حضرموت

إزاحة النقاب عن بعض غموضها

تأليف / دانيال فان در ميولين والدكتور . هـ . فون فيسان
ترجمة وتقديم محمد سعيد القدال

المقدمة

عرض تاريخي موجز لجهودات الرحالة في حضرموت

الجزيرة العربية بلاد عظيمة . عظيمة في اتساعها وعظيمة في تاريخها . ورغم ذلك فهي تبدو من الوهلة الأولى أنها تفتقد السحر والإغراء , وأنها دائما تقاوم من يسعى إلى الاقتراب منها . وتتحدى صخورها الجرداء أكثر المتسلقين جرأة . ويالـه من لهيب حار ذاك الذي تضطرم به تلك القمم الشماء الملتهبة التي لا يسقط عليها ظل . ولكم تتسم ألوانها الداكنة السوداء بالقسوة في أرض تشع بالضوء والحرارة . وعندما نقترب من شبه الجزيرة العربية نلمح أيضا سهلا رماديا وبحرا من الرمال يضطرم بأمواج عالية محدودة ساكنة لا حراك فيها . والهواء الذي يهب على تلك الأرض يرتعش فيحيل أي شيء غائما ومعالمه غير واضحة . والسماء لا لون لها مثل الرصاص المصهور الذي يؤذي النظر . الجزيرة العربية عظيمة وغامضة , ولكنها لا تغري و لا تسحر الذي يعبر صخورها الجرداء الملتهبة وشعابها الساحلية .

ورغم أنها كالبحر الشاسع الذي يبعث على السأم , إلا أن صحراء الجزيرة العربية لها تأثير ساحر لا يفسر و لا يقاوم بالنسبة لكل من يلج أرضها الممتدة الصامتة .

و لا ياخذ بك ذلك السحر دفعة واحدة وإنما يأتي ببطء وبعد التحلي بأعلى درجات الصبر والمحاولات الدؤبة , وبعدها يتكشف للإنسان بالتدريج جلال الجمال الملهم لهذه الأرض وصلابة أهلها وشجاعتهم الصامدة وإيمانهم الذي لا ينازعه الشك ثم يشرق على الإنسان إدراك غائم بكنوز الحضارة التي تراكمت كل البشرية والتي تحكي عن الصراع الدائب ضد قوى الطبيعة القاسية الصارمة .

لقد انكشفت أسرار كل مناطق العالم لأعين الغربيين الفاحصة , ولكن الجزيرة العربية ما زالت تحمي اسرارها فالمسيحيون المحتقرون والمكرهون لا يسمح لهم الا نادرا بدخول هذه الأرض التي اختارها مهبط لآخر أنبيائه فلم تنجح إلا أعداد قليلة من اختراق حدودها ولكن لن يمضي وقت طويل حتى يتم اختراق الجزيرة العربية طولا وعرضا . وتكشف أثار المعينيين والسبئيين والحميريين فتحكي عن فصول جديدة لتاريخ الحضارة الإنسانية وهي لما تزل في مهدها .

وقد حقق اكتشاف الجزيرة العربية حتى الآن تقدما بطيئا وشاقا , وفي الواقع فإن عمر تلك الاكتشافات لا يتعدى قرنين ونصف . و خلال تلك الفترة فإن الرحالة الذين جابوا تلك البلاد قد تعاقبوا على فترات متباعد وشد انتباههم منطقتان هما الحجاز أرض الحرمين مكة والمدينة ,واليمن التي سماها الرومان(اليمن السعيد) والتي تزخر بتاريخ الحضارات القديمة .

ولم تبق في الحجاز أسرار بالنسبة للغربيين فرحلة نيوبور وجماعه عام ١٧٦٣م وضحت الأمر وفتحت الطريق . وقام بيركهارت قبل قرن بأول مهمة علمية كشفية واعقبه بيرتون . وفي عام ١٨٨٤ – ١٨٨٥م قام البرفوسور هورقرنوج متخفيا تحت اسم عبد الغفار باحاثه في مكة وقد أرغمه شكوك أحد الأوربيين الأغبياء في جده على ترك عمله والعودة إلى بلاه ولكنه تمكن من انقاذ المادة التي جمعها لكتابه الكلاسيكي (مكة) الذي لا يضاها ودون التقليل من أعمال الرحالة الآخرين فان الرحالة داوتي يستحق التنويه فقد ظل متجولا مدى عامين في الص الصحراء يقاسم القبائل البدوية شظف العيش حتى وصل إلى حافة المجاعة عندما حل بشمال الجزيرة العربية ونجا هو وزوجته من الموت بأعجوبة عندما اقتربا من مكة وكتابه الذي حظي مؤخرا بالتقدير الذي يليق به هو في الحقيقة ملحمة عن حياة البدو الرحل .

وأجرى قلاسر أبحاثا عن اليمن لبضع سنوات لكنه عاد إلى بلاده قبل أن يكمل إعداد مادته الغزيرة القيمة وبدأت تتخذ أخيرا الخطوات لنشر تراثه العلمي . وكان بيركهات قد قتل وهو في خضم حركته الكشفية . وقبلهما سافر هالفي وأتيحت له الفرصة لرؤية أرض سبأ وبقايا آثار سد مأرب الشهير لكنه عاد مبكرا , ولم ينجز اكثر من إزاحة جانب من النقاب الذي ما زال يغطي أرض مملكة الجنوب القياسية عن اليمن سوف تأتي ولعلها تظهر قريبا كانت حضرموت في وقت ما وثيقة الصلة باليمن . ويعود الاسم في الواقع إلى وادي حضرموت ومدن القطن و شبام وسيئون وتريم . وكان هذا الوادي في عهد السبئيين يمتد عدة أميال في عرضه وتغطية تربة خصبة مكونة من مزيج من رمل وطين , وكان بحق جنة على الأرض وذلك بسبب النظام المتطور جدا للخزانات وقنوات الري . وتمتد المناطق المحيطة جنوبا حتى المكلا و الشحر على ساحل المحيط وتشمل الاسم الأكثر شهرة : (حضرموت) وفي الصفحات التالية عندما نعني حضرموت وفي الصفحات التالية عندما نعني حضرموت الداخل فسوف تستعمل هذه الكلمات .

ظهر الاسم منذ القدم في سفر التكوين (الفصل العاشر , ٢٦) . وهناك عدة آراء حول معنى الاسم لكن لم يتم التأكد علميا من أي منها . و الحضارم أنفسهم لهم عدة اجتهادات حول أصل الكلمة وتاريخها . ولعل أكثرها قبولا لديهم ما يتصل بنبيهم هود فقد كانت آخر كلمات هود عندما وصل نهاية رحلة عمره ولم يستجب أهل عاد لدعوته أن قال حضر الموت وهو يشير بهذا التعبير إلى قرب أجله كما يشير إلى نهاية قوم عاد الذين دمرهم اللهّ .

كانت حضرموت في عهد الرومان ضمن اليمن السعيدة الم تكن في ذلك الحين هي ر بهذا التعبير إلى قرب أجله كما يشير إلى نهاية قوم عاد الذين دمرهم اللهّ .

كانت حضرموت في عهد الرومان ضمن اليمن السعيدة الم تكن في ذلك الحين هي ارض الصبر و المر والبخور , الم يكن الطريق التجاري المهم من الهند إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط يمر بموانئ جنوب الجزيرة العربية عبر حضرموت واليمن ومنها إلى مصر وسوريا ؟ و لاشك أن حدود ملكتا السبئيين والحمريين قد امتدت حتى وديان حضرموت . وعندما انهارت المملكتان واختفى نظام الري الرائع , وانتهت الحضارة , احتفظت الصحراء بالسر فاحتضنت أعمال الري العظيمة لمدى قرون تحت كثبان الرمل التي تراكمت تدريجيا بفعل رياح الصحراء المحرقة وتنفرط عقد الوحدة ولم تستطع الشعوب المتحضرة أن تحافظ على بقائها واحتل أبناء إسماعيل مكانهم . ومنذ ذلك الوقت عانت اليمن وحضرموت من حياة الفقر وتحطمت العلاقة المثمرة بين المنطقتين . ووجه قلاسر ناظريه نحو وديان حضرموت , ووضع بالفعل أول خريطة كروكية للمنطقة بين اليمن وحضرموت مستعينا بالبيانات التي جمعها من أفواه البدو . ولكن أدرك قلة الرحالة الذين يريدون البحث في حضرموت أن الطريق إليها ليس عبر اليمن وإنما عن طريق الموانئ على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية .

يعتبر فريدة أول رحالة علمي ينجح في التوغل في منطقة حضرموت وفي جمع مادة غزيرة وقيمة . ومعلوماتنا عن هذا الرجل الفذ قليلة . قال عنه مالتزان الذي حقق كتابه إنه ولد في وستفاليا وعمل في ربيع عام ١٨٣٠ ضابط الجيش اليوناني , ثم في آسيا الصغرى ومصر . وحوالي عام ١٨٧٤٣ قام برحلته الخالدة . ويبدو أنه عاد مؤخرا إلى مصر لينشر سجل رحلاته . ولم يتمكن من نشر أعماله في بلاده لأنه كان يعتبر لدى بعض ذوي الشأن خادعا وتقاريره جامحة الخيال و لا تصدق . وكاد فريده أن يحظى باعتراف علمي في انجلترا حيث أدرجت الجمعية الجغرافية الملكية خلاصة لتقريره في مجلتها . وتم العثور على ناشر لكن لسوء الحظ انتحر المترجم الذي كان يقوم بترجمة التقرير . ولم

يعثر إلا على نص التقرير فقط , أما الخرائط و الرسومات الملونة فقد ضاعت .
أدار فريده ظهر لأوربا بعد أن أصيب بخيبة أمل كبيرة . وعند زيارتنا لحضرموت أشار البدو والمرافقون لنا إلى كومة من الحجارة في مكان ليس بعيدا عن المكلا , وقالوا إنها مقبرة لرجل مسيحي قتل قبل مائة عام عندما حاول التوغل في بلادهم . واعتقدت ورفيقي أنهم يقصدون فريده الذي ربما لقي خيبة أمله الأكبر في تلك البقعة واكتشفنا بعد الاستقصاء الدقيق أن فريده استقر أخيرا في الجيش التركي مات فقيرا ومجهولا في مستشفى في استنبول لقد اقتفينا لبعض الوقت طريق فريدة في رحلتنا في الغدو والرواح واستفدنا كثيرا من مذكراته المفصلة وخريطته . ولكن لدينا تحفظا حول الرحلة التي ادعى إنه قام بها من الخريبة في وادي دوعن إلى عمد وحورة وسهوة وباه السافي ثم عودته إلى عمد والخريبة . وأثبت فون فيسمان عند مسحه لوادي دوعن أن فريده قد وصف الوادي وصفا مختلفا عن حقيقته حيث وضع القرى التي تقع في أعلى المجرى من وادي عمد في أسفله , ووصف العقبة التي تقوده من عمد إلى الجنوب بأنها انحدار متدرج وفشل في كل أجزاء وصفه , مما جعل فون فيسمان يقتنع تماما أنه لم يقم بتلك الرحلة . أما القصة مغامراته حتى حدود بحر السافي , حيث غاص مقياس رسمه في رمال متحركة , فمصدرها الأقاصيص التي سمعها من وادي دوعن عن القوافل التي تغرق في الرمال أو في بحيرات الملح التي تغطيها طبقة من الرمال . أما تحقيها للأجواء الأخرى من رحلته حتى صيف في وادي دوعن وهي آخر مكان في رحلته شمالا ووادي حجر , فإن وصفه للأرض جيد ودقيق . وما زلنا نرى في (فريده) الرحالة الأعظم في حضرموت . فقد ألهب التجربة . والذين جاءوا من بعده قدموا أقل مما قدم .
وتمضي الأعوام حتى يناير ١٨٩٣ عندما جاء رحالة آخر وحاول أن يقتفي نموذج فريده اللامع , ولكنه نموذج أفضى إلى خيبة أمل

إثر أخرى . هذا الرحالة هو ليو هيرش الذي نشر تجاربه عن تلك الرحلات عام ١٨٩٧ بعنوان (رحلة إلى جنوب الجزيرة العربية , أرض المهرة وحضرموت) واستغرقت رحلة هيرش من الساحل إلى الداخل نصف عام . فقد سافر من عدن إلى الشحر , ثم إلى سيحوت وقشن , ثم عاد إلى المكلا , وهناك تخلت عنه الشجاعة للحظات فعاد إلى عدن . وفي عدن تسلح بتوصيات جديدة من السلطات البريطانية ورجع مرة أخرى إلى المكلا .

وكان عليه أن ينتظر هناك لفترة شهر حتى يحصل على الإذن بالسفر إلى الداخل . نجح هيرش أكثر من فريده في التوغل حتى حضرموت الداخل . فكان أول أوربي يشاهد مدن شبام وسيئون وتريم . ولكن ما كان بإمكانه السفر أكثر من ذلك . ولم يمكث سوى بضع ساعات مع مضيفه في تريم , ثم أرغمه السادة باسلوب لا يخلو من تهديد على العودة من حيث أتى .

وبعد هيرش حاول (ثيودور بينت) وزوجته القيام برحلة إلى وادي حضرموت . ووصلا المكلا في ديسمبر ١٩٨٣ وذلك بعد بضعة أشهر من رحلة (هيرش) الناجحة . واستطاعا أن يبدءا رحلتهما في نهاية الأسبوع , ولكن لم يسمح لهما أن يتعديا شبام . وعليه فقد تأجلت رحلة النصارى إلى قبر هود وبئر برهوت عقدا من الزمان . ونشرت مسز بينت أحداث هذه الرحلة عام ١٩٠٠ .

هكذا نأتي إلى نهاية القائمة القصيرة للرحالة إلى حضرموت . لكنا حصلنا على تقرير كتبه ضابطان بريطانيان قاما برحلة إلى حضرموت , و حسب علمنا فإن نتائج رحلتهما لم تنشر ,أما أحدهما وهو (وارنر) فقد كتب مجرد مذكرات عن حضرموت وكانت ملحقا لمقالة كتبها (كوكران) في المجلة الجغرافية عام ١٩٣١ ص ٢٠٩ – ٢٢٢ وكان (وارنر) قد ذهب عام ١٩١٨ في مهمة دبلوماسية إلى شبام ولم يتعدها . وقام سرب من سلاح الطيران الملكي في عدن برحلة كشفية هامة بقيادة قائد السرب (كوكران) الذي أعطى في مقالته سالفة الذكر (

استطلاع جوي على حضرموت) انطباعا عن المنطقة التي شاهدها من الجو . فشاهد قبر هود وقام بتصويره , لكنه لم يتمكن من العثور على بئر برهوت

ولم يقدر للدكتور (ويلهم هاين) أن تطأ قدماه أرض حضرموت الداخل . فقد وصل عام ١٩٠٢ إلى قشن مصحوبا بزوجته . وعاش هناك شهرين في شبه أسر , ولكنه استفاد من فترة أسره وجمع معلومات هامة عن حضرموت ضمنها دراسته التي نشرها في المجلة الجغرافية في فينا عام ١٩١٤ (مجلد ٥٧ ص ٣٢ – ٥٨) .

وقامت الحكومة المصرية بناء على طلب من حكومة الشحر و المكلا بتكليف المستر (ليتيل) للقيام بمسح جغرافي وجيولوجي للمنطقة غرب المكلا حتى وادي حجر بهدف العثور على ثرواتها المعدنية . وتمخض عن هذا البحث كتاب (جغرافية وجيولوجيا المكلا) الذي نشرته المطبعة الحكومية في القاهرة عام ١٩٢٥ . ونحن ممتنون لاستفادتنا من الخريطة التي تضمنها هذا العمل القيم .

و لا يمكن أن ننهي هذه القائمة عن أولئك الذين كرسوا أنفسهم لاكتشاف حضرموت دون أن نذكر العمل الذي قام به الدكتور (بيرخ) فقد قام بتكليف من الحكومة الهولندية , ودون أن تطأ قدماه أرض الجزيرة العربية , بتأليف كتابه (حضرموت والمستعمرات العربية في الأرخبيل الهندي) الذي نشر في بتافيا عام ١٨٨٦ . وقد استعان في كتابه بعلماء الحضارم في بتافيا . واستطاع أن يضع خريطة لحضرموت . ومن الطبيعي أن يكون بالكتاب والخريطة جوانب قصور عديدة , ولكنه قدم خدمة جليلة . و قد استعان ضابط السلاح الطيران الملكي بخريطته في رحلاتهم , وأدخلوا عليها إصلاحات هامة .

الفصل الأول

الرحيل : عدن – المكلا

نحن مدينون برحلتنا إلى المكلا للحكومة الهولندية التي أوكلت إلينا تلك المهمة . وسوف تتضح فيما بعد الروابط العميقة بين حضرموت واندونيسيا , كما ستتضح رغبة الحكومة الهولندية للتعرف الدقيق على الأوضاع الاجتماعية والسياسية في الجزيرة العربية لآلاف العرب الذين يشكلون عنصرا هاما في النسيج الاجتماعي لتلك البلاد . ولم يتم استيعاب الحضارم في وحدة الشعوب الاندونيسية , وظل العديد منهم شديد التمسك بعلاقته مع وطنه الأم , على أن يعود في يوم ما وينتظر ساعة البعث والحساب في تلك البقعة الطاهرة . إن المهمة التي أوكلت للدكتور (بيرخ) ليضع هذا الكتاب كانت نتيجة للاحتياجات العلمية لتلك الحكومة فيما يخص تنوع الشعوب الاندونيسية . وكان هو نفس الهدف بالنسبة للمهمة التي أوكلت إلينا .

ورغم إدراكي للصعوبات التي واجهت المسيحيين الغربيين للدخول إلى أرض الحضارم المتعصبين , إلا إنه كان لدي بعض الأمل في نجاح المهمة , وذلك لسببين.

أعطتني السنوات التي قضيتها في الخدمة المدنية في حكومة هولندا في اندونيسيا قناعة بأن الحضرمي ممتن من المعاملة التي لقيها من حكومتنا هناك , ومن فرص ادخار المال الذي ساعده على عبور دروب الحياة . وبصفتي موظفا في الحكومة الهولندية في اندونيسيا , فقد اتضحت لي مشاعر الترحاب بين العائلات الحضرمية التي لها علاقات مع الاندونيسيين , وكان الحوار الذي يدور بلغة الملايو غالبا ما يحدث العجائب .

والسبب الثاني أنني قضيت عدة سنوات ممثلا لحكومتي في جدة وهي ميناء مكة المكرمة .
وكانت معرفتي بأوضاع المسلمين في الأراضي المقدسة , وبالنظام الوهابي الذي رسخه حديثا ابن سعود العظيم في بلاده . وكان الحديث الذي يدور بلغة الملايو سببا في جذب مستمعين في وسط الدوائر التي ليست لها صلة بجزر الهند الشرقية
وحتى لا تكون الرحلة مجرد مهمة دبلوماسية , بل تخدم أيضا غرضا علميا , كان من الضروري أن أصطحب معي رفيق درب يتولى هذا الجانب . وقد وافق الدكتور (هيرمان فون فيسمان) على المشاركة في المغامرة في حضرموت . وكنا قد التقينا من قبل في جدة ونما بيننا إعجاب مشترك . وقد استقى فون فيسمان تجربته في الأسفار والبحث مع الدكتور (راثجينز) من همبورج و حيث قاما بالترحال في الحجاز واليمن . إن الخريطة الضخمة للمنطقة التي سافرنا فيها , والاستكشات , والمعلومات الجغرافية والجيولوجية والنباتية و التي تضمنها هذا الكتاب , هي من جهده .
في نهاية إبريل ١٩٣١ , التقينا في عدن . وما كان لخططنا أن تكلل بالنجاح لولا تعاون السلطات البريطانية . لقد كان بينت وزوجته مكتئبين من مسلك حكومة عدن نحوهما .
وكان حظ (هيرش) أفضل , وربما كان حظنا أفضلهم جميعا ز فقد وعدنا المقيم السياسي البريطاني الكولونيل (رايلي) بالمساعدة , وبشرنا بأن حظنا في النجاح أفضل من الذين سبقونا . ونبهنا إلى أن مشكلتنا الكبرى ستكون فصل الصيف الذي يجعل وادي حضرموت صعب الاحتمال , كما سيحل وقت الرياح الموسمية الغربية قريبا . وعبر أيضا عن اعتقاده بأننا لا نستطيع العودة إلى عدن بحرا عندما يبدأ هبوب تلك الريح كما أن الرحلة برا من المكلا إلى عدن ستكون شاقة ومرهقة , وربما مستحيلة , ذلك لأن بعض القبائل الساحلية تشتبك من وقت إلى آخر في حروب مع بعضها البعض . ولذلك

رأى (رايلي) ضرورة عودتنا إلى الساحل بنهاية مايو سوداء إلى المكلا أو الشحر .
على أن هذه النظرية لا تتفق مع الحقائق . أولا , تهب الرياح الموسمية الغربية أحيانا ما بعد نهاية مايو . ونحن لم نرجع إلا في نهاية يونيو , ثم أبحرنا إلى عدن , كانت رحلة جيدة لحد ما . ثانيا , علمنا من القبطان ومن التجار في المكلا أن السفن لا تتوقف عن الابحار في فترة الرياح الموسمية الجنوبية الغربية , على الرغم من أن الشحن والتفريغ محفوف بالمخاطر في السواحل المفتوحة في الشحر والمكلا و لا يتيسر إلا خلال ساعات محدودة من اليوم , وبالتحديد في فترة ما بعد الظهيرة , وخلال الليل تلتجئ السفن إلى خليج بروم .
وعرفنا الكولونيل الذي يعرف الكثير عن المنطقة المحيطة وبقبائلها . هذا الرجل الهادئ له نظرة دقيقة عن البلاد والناس , وكان قد رافق الكولونيل (كوكران) والضابط الطيار ركاردس في رحلتهما الاستطلاعية فوق حضرموت . وقدم لنا معلومات قيمة . وسمعنا منه عن الكولونيل بسكون ورحلة الصيد التي قام بها في نوفمبر ١٩٢٩ ووصل حتى تريم . ويستحق قنصل هولندا في عدن منا جزيل الشكر.
وفي مساء الأول من مايو أبحرت السفينة الصغيرة (أيامونت) من ميناء عدن وعلى ظهرها مجموعتنا الصغيرة , وكان معي فقط خادمي صالح الذي رافقني من جدة كما رافقني في رحلة سابقة إلى اليمن , وبرهن على مقدرته في الرحلات الشاقة عبر المناطق الغربية .
وكانت الرحلة ناجحة بالرغم من أن السفينة العتيقة (أيامونت) كانت تسير بسرعة ستة أميال في الساعة . وقطعنا المسافة إلى المكلا التي تبلغ ٢٣٠ ميلا في أربعين ساعة . وفي ظهيرة اليوم الثالث من مايو وصلنا إلى المجاري المفتوحة التي تقود إلى المكلا . وخلال اليوم كنا نرى الساحل باستمرار , ورأيناه أكثر وضوحا صبيحة اليوم الثالث من مايو , وكانت (بئر علي)

ببراكينها البنية السوداء , وأمامها كثبان الرمل الصفراء البيضاء كانت تومض في الشمس تحت السماء المبيضة الزرقاء . وهناك منحدرات متصدعة خلف الصخور البركانية , ويبلغ ارتفاع نتوءات الهضبة الجيرية ٦٠٠٠ قدما . وأخذت الصخور الجيرية تبدو اصغر وأصغر , واختفت تماما بعد بئر علي وقبل أن نعبر (رأس الكلب) كانت التلال الرملية تنحدر نحو الجبال , وكأنها في تشكيل عسكري . ثم يأتي مدخل وادي حجر وهو الوادي الوحيد في المنطقة الذي يوجد به ماء باستمرار .
وفي الحقيقة فإن الماء لا يظهر من القارب , ولكن العين التي ملت رؤية الصخور والرمال انتعشت بمنظر النبات الكثيف , وأمكننا حتى التمييز بين الأشجار والميناء وبعض أكواخ الصيادين , وتتعاقب الجبال ذات الصخور الخضراء - الرمادية مع حطام الصخور الجيرية والصخور الرملية بألوانها المحمرة - البنية وتمتد الطبقات في اتجاه شمالي شرقي , ولكن كثيرا منها في تقاطع عرضي . ثم تعبر علينا أرض شبه مستوية ساحلية من طراز عتيق جذاب ثم تظهر بروم بخليجها الذي يحمي من الرياح الموسمية الجنوبية الغربية , وتنحصر المدينة بين جبال لا تترك سوى مساحة صغيرة لبستان من النخيل ومزارع للذرة والذرة الشامية . ثم ظهر قصر أبيض ومسجد بمئذنة وبعض المنازل الحجرية وشاطئ وقوارب صيد , صورة جميلة مثيرة للدهشة في هذه البقعة من الصخور الجرداء والصحراء .
وما إن أخذت بروم تلاشى في الهواء الساخن المرتعش الذي خيم على الأرض , حتى بدأ يتضح أمامنا شيء أبيض وخلفه حائط منحدر من الصخر . كان ذلك هدفنا إنها المكلا .
وسوف يتخذ هناك القرار الخالص برحلتنا إلى حضرموت . وإذا كان لنا أن نتوغل إلى الداخل من هنا , فإن فرصتنا قد حانت .

الفصل الثاني

المكلا جمالها أخاذ .

وهي البوابة إلى حضرموت الغامضة التي ظلت موصدة أمام الأجانب لفترة طويلة . وتمتد المكلا مثل شريط أبيض على حافة المحيط الأزرق عند سفح جبل مائل شديد الانحدار بصخوره الحمرة البنية . وتصادم أمواج البحر المدينة باستمرار . وتبقى المنازل البيضاء ذات الطوابق المتعددة مستقيمة صامدة . السياج الذي يحيط بسطوح المنازل مشيد من أعمدة ناصعة البياض . والمآذن شكلها مخروط قوي وهو الشكل الذي يتميز به الأسلوب الحضرمي . يقوم قصر السلطان الجديد في أقصى اليسار , وخلفه القصر القديم . ويقف القصر الجديد على صخور سوداء بالقرب من البحر . ولون القصر ضارب إلى الصفرة , وأبوابه ونوافذه من الطوب الأحمر , وشرفاته فاتحة الاخضرار . إننا أمام لوحة تحيطها أشجار جوز الهند والنخيل والمانجو والباباي . وهي لوحة ذات جمال بهيج لا يترك مجالا لناقد , إن التلوين هو الذي صنع ذلك الجمال . وحتى غياب الفن المعماري من المنازل له جماله .

يقف قصر السلطان الثالث في أقصى اليمن بعيدا عم المدينة . ويمتد بين هذه المباني السلطانية لسان الأرض الذي يقف عليه المركز القديم لمدينة المكلا . هنا تقف الحصون الصامدة للقلعة القديمة .

يقوم الميناء في إحدى جوانب هذا اللسان القصير من الأرض , حيث تمخر السفن الشراعية بجلالها نحو المرفأ . وتظل القوارب الصغيرة والسنابيك في غدو ورواح تنقل المسافرين والبضائع إلى أعتاب السلالم العريضة التي تقود إلى مبنى الجمارك الشاسع .

وترسو السفن على بعد مائة ياردة في البحر , وصلت لتوها سفينة هولندية ضخمة تحمل ١٥٠ حضرميا من جاوا . وفي عرض البحر قارب بخاري تملكه شركة منافسة وصل في نفس الوقت الذي ألقت فيه (أيامونت) مراسيها . فأصبح اليوم بالنسبة لمدير الميناء والطبيب يوما مزدحما , لأن القبطان الهولندي يريد أن يبحر قبل الغروب . واهتم الطبيب بأمرنا وأخذ منا الخطاب الذي حملناه من المقيم البريطاني في عدن ليقدمه للوزير ومعه طلبنا بالسماح لنا بالنزول إلى البر . وبعد ساعات من الانتظار جاء الرد الإيجابي , وأصر الطبيب على مصاحبتنا بنفسه إلى مقر إقامتنا ليتأكد أنه يناسبنا .

واخترقنا الشارع التجاري الذي يعج بالحركة , وسرنا بحذاء الشاطئ نحو قصر السلطان الذي يقع في الجزء الجنوبي الغربي من المدينة . ثم انحرفنا يمنيا إلى حديقة القصر القديم , وسرنا تحت أشجار النخيل والفواكه الأخرى , ودخلنا ساحة القصر التي يتوسطها حوض حجري . وتوقفت العربة أمام درجات حجرية , فأشار علينا الطبيب مرحبا قائلا (يا حيا بكم) وداعانا إلى مبنى قديم مصان صيانة جيدة . ودخلنا ساحة واسعة في الطابق الأعلى تقود إلى غرفة الاستقبال الرحبة وإلى غرف النوم والسكن . لم يخامرنا شك بأننا سوف نعيش هنا عيشة ملوكية , ولا بد أن الطبيب قد قرأ على وجوهنا العرفان المصحوب بالدهشة على هذا الاستقبال الذي لقيناه في ميناء حضرموت .

عندما حان وقت المغيب وأذن المؤذن لصلاة المغرب سكتت ضوضاء المدينة الصاخبة وجلسنا على شرفة منزل الطبيب . وشرب الحضور شايا خفيفا من أكواب كبيرة مع كثير من السكر واللبن يسكبونه من براد كبير . معنا أيضا اثنان من الإنجليز يعملان في القارب البخاري الذي يشرف على الساحل . أما صديقنا الطبيب فكان يعمل كيماويا في عدن , ويتحدث

الإنجليزية بطلاقة مثل ضابط الجوازات وكذلك شاب حضرمي علمنا لدهشتنا إنه من عائلة العطاس الشهيرة .
جاء السيد علوي العطاس من جاوا قبل أشهر خلت بهدف استيراد عربات وبضائع أخرى عن طريق وسيط للعائلة يعيش هناك . وكان العطاس سيقوم بزيارة للداخل قريبا , فرأينا أن نتعاون معه ونوحد صفوفنا سويا للرحلة . والسيد علوي من مواليد جاوا وتعلم في القاهرة لبضع سنوات . وقام بزيارات لإنجلترا وفرنسا , ويبدو أنه قد ابتعد عن حياة أهله الصارمة التي تأخذ بالاقتصاد في العيش . وشكرناه فيما بعد لتقديمنا لأهله في حريضة , الذين لقينا مهم تعاونا وتعاطفا فاق كل توقعاتنا المتفائلة .

١) الحياة في السوق (البازرا) :

بعد أن أصبحت أمامنا الآفاق المشرقة , ذهبنا نتجول في الطريق الرئيسي الذي يجري مثل بحر من البشر على امتداد الساحل من غرب المدينة إلى شرقها . يوجد ممثلون لكل قبائل الداخل , وهم يتجمعون في حلقات في الحوانيت المصطفة . أغلبهم لهم بشرة داكنة , ونصفهم الأعلى عار , وأجسامهم مدهونة بالنيلة . و رؤوسهم عارية وأقدامهم حافية , ويلبسون فوطة غليظة يلفونها حول وسطهم . وشعرهم المنفوش المرسل الفاحم السواد المعقوص يربطونه بعقدة مستديرة في مؤخرة الرأس. أو يعصبونه في مكانه بضفيرة جلدية , أو يلفونه بخرقة خلف الرأس . كان لابد من تسليم بنادقهم وأحزمة الذخيرة إلى الحارس عند بوابة المدينة مما بعث فيهم شعورا بعدم الاطمئنان . ويلتمع شعرهم المدهون بالسمن , ك ا يدهون الجزء الأعلى من جسمهم بالسمن فوق طبقة النيلة , فتنبعث منهم رائحة قوية من خليط السمن مع النيلة.
مررنا في طريقنا بسوق السمك وهو مسرح لحركة تجارية نشطة في الأسماك التي يزخر بحرهم بأنواع متعددة منها . ويستمر

ذلك النشاط من الصباح حتى المغرب . ويبدو أن سمك القرش أكثر الأسماك انتشارا , فقد رأينا جوالات من القرش المجفف المملوح وهي معدة لترسل إلى الداخل , حيث يتناول البدو والحضر في أوقات الرفاهية قطعة منه يدعمون بها وجبتهم البائسة المكونة من الخبز والأرز , إن رائحة السمك المجفف المتعفن تصاحب المسافر حتى وادي حضرموت .

في سوق المكلا روائح نفاذة أكثر من أي مكان آخر . فالبقرب من سوق السمك توجد دكاكين صباغة الأقمشة بالنيلة , وتفوح من الصباغة رائحة تبعث على الغثيان . وتغطي طبقات النيلة أجسام العمال ومنازلهم .

تتكدس في حوانيت الشارع الطويل في السوق تجارة أخرى أكثر جاذبية من السابقة وهي صناعة النسيج والأحزمة الجلدية , وينسجون كذلك قطعا صغيرة من الأقمشة مخططة بألوان زاهية وبها أطراف جذابة تنسج منفصلة ثم تخاط معها .

تبيع الحوانيت كل أنواع الحلوى . وكذلك التمر الفاقع الصفرة والشديد الاحمرار ولكنه لم ينضج تماما لأن ذلك بداية موسمه . وتباع الفواكه والبهارات , وحزم كبيرة من التمباك الحمومي الشهير . وبضائع يابانية وهندية وهولندية , والرغيف المخلوط بالسكر والأرز , واللبن وقشر اللبن المجفف , والزنجبيل والشاي من سيلان وجاوا , ومختلف أنواع الحبوب والسمن , وزيت السمسم , والجاز , والكبريت وفناجين الشاي والخناجر (الجنبيات) وأحزمة الرصاص .

تجولنا في هذا المستودع التجاري لحضرموت . وبدأ الباعة يشعلون مصابيحهم التي يتصاعد منها الدخان , ويضيئون فوانيسهم . كان علينا أن نسير بحذر وسط الزحام والدخان المختلط بالرائحة النفاذة المنبعثة من الرجال والبضائع . عبرنا ذلك العالم الغامض وكأننا في حلم . وأخذت تنمو بداخلنا الرغبات والآمال التي تحفظنا عليها بحذر لنعبر إلى البلاد التي تقع خلف هذه المدينة ونتعرف على أهلها .

٢) الوزير السيد أبو بكر بن حسين المحضار:

قابلنا الوزير صباح اليوم التالي. وكان يتولى تصريف شئون الدولة في حالة غياب السلطان.

كان السيد أبو بكر بن حسين المحضار رجلا في ريعان العمر. وهو ذو شخصية حيوية ويقظة في تجانس, ولم تظهر منه أي بادرة امتعاض من النصارى والإفرنج. ويقع حكم الدولة القعيطية على كتفيه وشعبيته مدعومة بتراثه. في المقام الأول بوصفه من السادة ومن سلالة الرسول فهو ينتمي إلى الطبقة التي تقود المجتمع روحيا ودنيويا, وفي المقام الثاني, كانت عائلة أبو بكر لستة أجيال خلت أكثر العوائل نفوذا في حضرموت.

وفي إحدى ساعات المحنة, استنجدوا بقبيلة يافع المقاتلة ليدعموهم في صراعهم ضد القبائل البدوية. فأرسل سلطان يافع نجدة بقيادة أحد القعيطيين, الذي دحر أعداء عائلة المحضار, ثم انتزع السلطة منهم وأخذ نفوذ القعيطي ينمو, وفي عام ١٨٧٤ طلب من الحكومة البريطانية في عدن أن تتدخل لحل النزاع بينه وبين آل كثير الذين رفضوا إعادة المال الذي استلفوه منه. فقامت السلطات البريطانية بدعم القعيطي, وتمكن من انتزاع مدينتي الشحر و المكلا من الكثيري, لكن احتفظت عائلة المحضار بزعامتها في المنطقة.

أخبرنا الوزير أنه لا مانع في رحلتنا إلى الداخل. وأضاف أن الطريق آمنة شريطة أن نسافر تحت حراسة جنود من العبيد التابعين للدولة. ثم أكد علينا إلا نعتدي مدينة شبام نسبة للمخاطر التي تهدد منطقة الكثيري, لكن احتفظت عائلة المحضار بزاعامتها في المنطقة.

أخبرنا الوزير أنه لا مانع في رحلتنا إلى الداخل. وأضاف أن الطريق آمنة شريطة أن نسافر تحت حراسة جنود من العبيد التابعين للدولة. ثم أكد علينا ألا نتعدى مدينة شبام نسبة

للمخاطر التي تهدد منطقة الكثيري . وألا نحاول تحت أي ظرف العودة إلى الشحر عن طريق تريم . فالسيد له سلطة فيها ويحظى بخدمات البدو مقابل المال , و لا يمكنه تقديم حماية مسلحة ضدهم . أما سلطة القعيطي فهي قوية وجنوده من العبيد رأية نحتمي بها .

يستغرق الاستعداد للرحيل أربعة أيام , نستطيع خلالها أن نجد دليلا يعتمد عليه وعلى وسيلة ترحيل جيدة . ويمكننا خلال فترة الانتظار أن نقوم برحلة إلى الشحر , لكنها ستكون عن طريق الساحل لأن طريق الجبال مرهق – ومرهق هنا تعني أنه غير مأمون . فقد كانت قبيلة الحموم في حرب طويلة مع القعيطي , وكان جنود القعيطي , وكان جنود القعيطي يقعون دوما في كمين ويقتلون . وقد يحدث هذا حتى في طريق الساحل لأن يرق الجبال مرهق – ومرهق هنا تعني أنه غير مأمون . فقد كانت قبيلة الحموم في حرب طويلة مع القعيطي , وكان جنود القعيطي يقعون دوما في كمين ويقتلون . وقد يحدث هذا حتى في طريق الساحل . وكنا راغبين في السفر بهذا الطريق , ولو أننا نفضل نذهب بطريق ونعود بآخر .

٣) رحلة إلى الشحر عن طريق شحير :

أرسل لنا الوزير في اليوم التالي حافلة بسائقين وأربعة جنود . كان علينا أن نسافر في ذلك اليوم إلى شحير فقط . (وشحير تصغير شحر) . وبعد الظهر سارت بنا العربة عبر بوابة المدينة المنيعة التحصين وعليها الحراس . وبعد البوابة مباشرة يقع وادي سدد حيث توغل البحر عميقا داخل الأرض وكون له خليجا . هنا تعسكر القوافل بالقرب من الساحل عند سفرها وعودتها من الداخل . مئات الجمال تتحلق في دوائر كبيرة , وتعلف الطعام الذي أمامها , وجمال أخرى يتم غسلها وحك جلدها بماء البحر , بينما مجموعة ثالثة ترسل خوار وزمجرة من آلام الجرب والدمل . وهناك بعض الحمير التي ينام بينها البدو

وهم يتغطون بفوطهم أو يجلسون حول موقد للنار يأكلون من أوان خشبية ثريدا من الخبز المفتت مع قليل من الدهن . والبعض الآخر منهمك في مهمة تحميل الجمال وهي مهمة شاقة . فبعد وزن الحمولة تقديريا برفعها من فوق الأرض ثم تقسيمها , يتم ربطها في السروج . ويقوم الأطفال بجمع روث الجمال في زنابيل , فله قيمة كبيرة إذ يستعمل في الوقود . وتموج الأرض بقمل الجمال , وهو في الواقع نوع من القراد . وتنتشر رائحة بول الجمال النفاذة مع العرق فوق هذا الانتشار الواسع للمعسكر المؤقت

سرنا على جانبي وادي سدد , لأنه يمتلئ هنا بالماء حتى تمكنا أن نعبر بالتفافة واسعة خلف سلسلة تلال المكلا التي يبلغ ارتفاعها ١٨٠٠ قدما . وعلى الشمال الطريق على بعد بضعة أميال من المكلا يوجد بستان من النخيل يتوسطه المنتج الصيفي للوزير والسلطان ويوجد نبع من الماء تمتد منه قصبة حديدية تمد مدينة المكلا بالماء .

القرب من حدود سلطنة المكلا تقع قريتا البقيرين الزراعيتين . وعلى الطريق قلعتان محصنتان بالجنود . وبعد البقيرين بمسافة قصيرة تنتصب صخرة طلاؤها أبيض .

ووضعت على الجدار الصخري على جانبي الطريق علامتان توضحان , حتى في تلك المنطقة الجبلية , متى تكون البلاد في حالة سلم وحالة حرب . ويسمح بأخذ الثأر أو تسوية ضغائن قديمة في المدينة او حولها .

وعلى بعد مسافة قريبة من حدود تلك العلامات , أقام عشرون بدويا معسكرا مؤقتا تحت صخرة معلقة . وعلى قمة الصخرة في الجانب الآخر من الطريق يقف الحراس باحثين عن أي قافلة تمر على الطريق العام . وقد عادت إحدى القوافل سالمة إلى المكلا بعد أن أدت مهمة تتعلق بالأخذ بالثأر . وأدركنا لاحقا أن وجودنا لا بد أن يكون السبب في إطلاق سراحها .

يتلوى الطريق عبر صخور شديدة الانحدار , وأخيرا يتعرج صاعدا إلى هضبة يبدو أنها مكونة من صخور مرجانية جيرية . وتقع

قريـــة (المعـــاس) في وادي صـــخري علـــى مقربـــة مـــن مقدمـــة الهضبة . وتقع شمالا على وادي أطول قرية الحرشيات , وتظهـر من قمة الهضبة بعيدا على الشمال قرية الهواع .

سرعان ما اجتزنا كتلة المكلا الصخرية , ثم أخذ الطريـق ينحـدر إلى مدخل للبحر تعمق بعيدا في اليابسة , وهنا تقع قرية بـويش . ويزع البباي والبيدان والموز على حافة مزارع الألفا ألفـا . توجـد في أعلى الوادي الذي يمتد حتى البحر القريب من بويش المزيد مـن أشـجار النخيـل والفواكـه الأخـرى , وهنـا أيـضا المـزارع الـتي يمتلكهـا الـوزير وبعـض أغنيـاء المكـلا . الآبـار الـتي تـروي المـزارع ليست عميقة هنا , إذ لا يزيد عمقها عن عشرين قدا . وعلـى الساحل بين بويش والمكـلا تقـع قريـة روكـب . ثم يبـدأ الطريـق في الـصعود مـرة أخـرى , ويـسير لفتـرة فـوق تكـوينـات مرجانيـة , ثم ينحدر بعد ذلـك حـتى وادي فلـك (بـسكون مخفـف علـى الفـاء وضـم اللام) , حيـث يمتـد مـاء البحـر بعيـدا في اليابـسة ويبـدو دوما مثل نهر صغير . وقليلا في أعلى الوادي تقع قرية (بعـسرة) وينو على حافة النهر كـثير مـن القـصب . وترتفـع علـى الجـانبين الـسدود المرجانيـة الجيريـة العاليـة ثم يمتـد الطريـق فـوق أرض مسطحة تنمو فيها الأعشاب . وهناك قطـع مـن الأرض مغطـاة كلها بأعشاب زكية الرائحة يمكن التعرف عليها مـن رائحتـها , وهـي إما بلا أوراق أو لها أوراق صـغيرة وتنتـشر هنـا وهنـاك بعـض أشـجار الـصنت بأزهارهـا المـستطيلة وسـط الأعـشاب البنيـة اللون التي تنمو فوق الأرض الصخرية الجرداء وتغطيها قطع مـن المرجان . وتنمو في الـوادي الـصغير نباتـات الفربيـون الخـضراء إلى ارتفاع ستة أقدام .

وتبدو بلونها الأحمر المنعش وزهورها المحمرة في نهايـة أغـصانها مثل باقة الورد في هذا المحيط الخالي من الألوان .

٤) أول لقاء مع قبيلة بدوية :

هناك سهل شاسع في منخفض تنمو في تربته الطينية الأعشاب . وترعى فيه الأغنام والخراف والحمير والجمال منتشرة بعيدا عن بعضها البعض . وتجلس الصبايا البدويات فوق قمة تل قريب . هذه هي ريدة الشحر . حيث المرعى والمقر الرئيسي للبدو الرحل في هذه الأماكن . وأقام البدو معسكرهم المؤقت فوق هضبة صخرية على يمين الطريق .

فاتجهنا نحوهم نحمل آلات التصوير ونحن نتوجس خيفة . ولم يلحظونا , كما أن كلاب الحراسة الشرسة التي تنتشر في الجزيرة العربية والتي تجعل المرور بمعسكر للبدو أمرا مستحيلا لا وجود لها هنا , وغيابها هذا لافتا للنظر . ويبدو أن البدو في حضرموت ليس لهم خيام , إنما يسكنون في كهوف أو منازل أو أكواخ , أو يعيشون كما في هذه الحالة بلا مأوى . فيشدون كوخا على مساحة خمسة أقدام حيث ينصبون أربعة أعمدة طولها حوالي ثلاثة أقدام ويعرشونها بأعمدة أخرى يغطونها بحشائش جافة طويلة . لا يمنع هذا الكوخ الشمس كثيرا . توجد منها هنا عشرة أكواخ متناثرة . بعضها أكثر بدائية عبارة عن أعشاب مغطاة بخرق بالية وليس بها إلا بعض الظل . زفي المعسكر شجرة طلح وضعت على قمتها بعض الأعشاب التي تدلت بين أغصانها الشائكة . ويرقد جمل يتلوى من ألم الجروح الملتهبة في ساقه , ويجلس بجانبه بعض الرجال والنسوة والأطفال يرقبون الحيوان البائس في محنته .

أثار وصولنا بعض الصخب لكن يبدو أن لهم روحا متسامحة و أجابوا على أسئلتنا بشيء من الفضول . وجلس النسوة والأطفال وبعض الشيوخ العجزة تحت ظل الأكواخ البائسة ويرقد الأطفال في مهد مصنوع بطريقة عملية . ويبدون في

داخلـه مثـل المحـار الـذي لـه أرجـل . حيـث يرقـد الطفـل في الجـزء الأسـفل بينمـا يحميه الانحدار الأعلـى من أشـعـة الشـمس والـريح . وتحمـل الأم هــذا المهــد في ترحالهــا وتجعــل الجانــب المفتــوح في واجهتهـا . ويرقد الطفـل فـوق زعـف منسـوج أو جلـد . وفي حالـة الجلد يوضع فيه ثقب بعرض بوصة لخروج الفضلات . وتتـوجس الأمهات كثيرا من العين الشريرة فكان علينا ان لا نبدي اهتمامـا ملفتا بأطفالهن .

وزعنا بعض قطع النقود على الأطفال والشيوخ , وبعدما تبادلنـا معهم الحديث أخذ توجس الآخرين يتلاشا . ورأت إحـدى النسـاء ضرسـا ذهبيـا في فـم أحـدنا , فكـان علينـا أن نسـلم أفواهنـا لكشف دقيق . وانفجرت صيحات الضحك وتبعها مرح طاغ ثم أخذوا يكتشفون العديد من الأشياء الغريبة عن الإفرنج . فبعد ان فحصت المرأة التي في المقدمة أفواهنا ذهبت أبعد من ذلك . أخذت تفك بأصابعها القوية الداكنة الجزء الأعلى من كم ذراعي . كانوا كلهم في ترقب . واندهشوا عندما وجدوا ان الجـزء المغطـى مـن بشرتي أيضـا أبيض . وانفجـر الجميع بالضحك , وتواصـلت عمليـة الفحـص ثم انتزعـت المـرأة قميـصي مـن البنطلون , وعندما ظهرت بطني أيضا بيضاء انفجرت صيحة طويلة (آه) تعبيرا عن ذهولهم . واستمرت اليد الداكنة تمسح بإعجاب ذلك الجزء من جسدي .

وعندما أرادت المرأة أن توصل فحصها لجسدي أكدت لها أنه كله من نفس اللون . فقالت : (هل فعلتم هذا بالصابون ؟) . فقـد سمعـوا أن الإفـرنج معـتادون علـى غـسل أجـسادهم بالصابون . فقلت لها : لا إن اللّه خلقنا هكذا , فقالت : لا شك أنكم تعيشون في منازل ولذلك فإن الشمس لا تحيل أجسادكم داكنة كما تفعل بنا , ولا شك أنكم تعيشون على اللبن , فقلت لها : لا إننا نأكل نفس الأشياء التي تأكلونها , فقالت : ابقوا معنا وسوف نرقص ونصفق لكم الليلة , وأخذت سائلتنا المرحة ترقص وتصفق , فكان ذلك مصدر تسلية كبرى للنساء

الأخريات . فقلت لها : يسعدنا جدا أن نبقى , لكن ليس لدينا وقت , فعلينا أن نمضي بعيدا . فقالت : لا ابق هنا , وسوف نعطيك زوجة , فلم أتمالك نفسي من فحص النساء غير الجميلات اللائي أحطن بي . وقرأت المرأة أفكاري . فقالت : لا , الفتيات الجميلات في المرعى , وسوف يعدن بعد المغيب .

رغم ما في حياة المرأة البدوية من بؤس وبدائية , إلا أنها تبذل جهدا كبيرا لتبدو جميلة . فقد تعلمت منذ الصغر أن التي تريد أن تكون جميلة عليها أن تعاني . فمنذ سن مبكرة بين الثامنة والعاشرة , تثقب الحافة الخارجية للأذن بثقوب صغيرة , ثم تعلق فيها حلقات فضية بحجم الخمس شلنات , أو تتدلى منها سلاسل فضية صغيرة , وتبقى أذن الفتاة البائسة منجذبة إلى أسفل , وتطلى أظافر اليدين الرجلين بالحناء فتصبح أطراف الأصابع مسودة بينما راحة اليدين محمرة . أما الوجه واليدين والذراعين والساقين والقدمين فتمسح بالكرى الأصفر . وتكحل العينان , وحتى الرجال يستعملون الكحل لاعتقادهم بأنه يقوي النظر .

تخضب النساء والفتيات وجوههن ورقابهن وصدورهن وأكتافهن والجزء الأعلى من ظاهر اليد والقدم بخطوط متشابكة , وغالبا ما يستعملون صبغة زرقاء أو سوداء , لكن يستعملون أيضا الحمراء والخضراء . ويزيلون الحواجب وتوضع مكانها خطوط رفيعة سوداء . ويحلقون أطراف شعر الرأس في شكل دائرة ثم يدهنونها ويلصقونها مع الجمجمة . توجد اختلافات متنوعة للأوصاف التي ذكرتها سالفا وكلها بهدف المساعدة على التجميل . أما بالنسبة لذوقنا فإن النتيجة في الغالب قبيحة , إن لم تكن مفزعة .

لم نستقبل بعد ذلك أبدا من نساء البدو بمثل هذا الود الدافق والتحيز العابر . فعندما كنا نلقاهن في مناسبات لاحقة بعد ذلك , كن يصرخن ويهربن من أمامنا أو يقذفنا بأقذع الشتائم ,

ويبدو أن أفراد قبيلة (الحيقي) هذه يعرفون القليل عن دينهم , فلم يصبن بعد بالعداء للنصارى .
شيد سلاح الطيران الملكي البريطاني بالقرب من هذا المعسكر مهبطا للهبوط الاضطراري . فوضعت علامات بيضاء على الأركان وفي الوسط . أما المطار الكبير فيقع على الساحل بالقرب من (فوه) على بعد ثلاث ساعات من المكلا . ويقال إن هناك مطار ثالثا في هذه النواحي .
تنمو على السدود المرجانية بعض النباتات الصحراوية والأعشاب ذات الروائح الزكية . وتنتشر أسراب من الجندب فوق الصخور الجرداء . وينحدر الممر نحو الوادي , حيث يختلط ماء النبع القادم من غيل باوزير مع ماء البحر المالح .
تقع قرية شحير على الجانب الأبعد من الساحل , يقال إن سكانها ١٥٠٠ يعيشون في أكواخ من الطين . وينتصب منزل الشيخ في مكان بارز , والمنزل هو ايضا الحصن الذي يدافع عن المدينة ضد الهجمات . وفي المصطبة مدفعان صدئان . توجد في الجدران السميكة فتحات في كل طابق , والنوافذ صغيرة , مضيفنا هو الشيخ (الماس) الذي استقبلنا بحفاوة في مجلسه . وبناء على رغبتنا أمر بإعداد مكان لنا فوق السطح , لكن كان علينا أن ننتظر حتى يتم إبعاد النساء عن طريقنا . فقام مضيفنا بالتأكد أن النساء اختفين خلف الأبواب المغلقة قبل أن يسمح لنا بمصاحبته إلى أعلى . كان سطح المنزل رائعا . وتخلصنا من الحشرات , واختفى الناموس .
طلبنا من مضيفنا ألا يذبح خروفا من أجل إكرامنا . ووجد مشقة في إقناعه بطلبنا الغريب لكنه تفهم في النهاية أننا نرغب أكثر في الشاي والفاكهة . فأحضروا طبقا عليه أكواب الشاي , وطبقا آخر عليه شرائح من البطيخ والتين الطازج والتمر والحلوى . لقد زار مضيفنا الشيخ (الماس) بعض أجزاء العالم , وهو ينتمي إلى أسرة السلطان , وبه لمسات من دم هندي , وأخوه هو العامل على غيل باوزير مركز زراعة التمباك الحمومي

الشهير . وكان يقيم معه في ذلك الوقت وألح علينا ان نزور غيل باوزير أغنى وأجمل بقعة في الجزيرة العربية , وعدناه أن نعبر على الغيل في رحلة العودة .

(٥) نزهة إلى غيل باوزير :

لم تسمح لنا خطة العوده من تريم إلى الساحل بالوفاء بوعدنا لعامل غيل باوزير . لكننا زرنا الغيل بعد عودتنا إلى المكلا ,عندما إنتظرنا بضعة أيام حتى وصلت السفينة التي أقلتنا إلى عدن . بدأنازيارتنا لغيل باوزير عن طريق شحير في الرابع والعشرين من شهر يوليو. ركبنا سياره وضعها الوزير السيد أبوبكر المحضار تحت تصرفنا كما فعل من قبل.

يقع خلف هضبة التشكيلات المرجانيه حوض شاسع من أطفال الرملي يرويه نهر صغير,ويقع النبع الذي يروي الغيل خلف المرتفعات الساحليه.هذا الحوض وشريط الأرض الصالح للري الذي يقع عند منحدر الغيل,هو المنطقة الرئيسية لزراعة التمباك الحمومي الشهير . تقع المدينة الصغيرة التي تحرس المدخل إلى هذا الحقل الغني , على حافة هضبة الصخر المرجاني . وعندما يقترب منها الشخص القادم من الساحل لا يكاد يرى أشجار النخيل , لكنه سرعان ما يجد نفسه أمام حائط أبيض عال , به بوابة ضخمة حصينة , تظل مغلقة كما يبدو حتى أثناء النهار .

وخلال فترة الانتظار لا يرى المسافر إلا قصر السلطان الضخم يقف شامخا بالقرب من الحائط . ويستعمل القصر الآن ثكنات للجنود .

طلب منا الانتظار بعيدا طلب منا الانتظار بعيدا من البوابة الحصينة المرعبة أثناء إرسال خطاب التعريف الذي حملناه معنا إلى القصر ليفحص حتى يمسح لنا بدخول مدينة التمباك . ليس في مدينة غيل باوزير مظاهر جمال ما عداء القصر الكبير العتيق وبعض المساجد . لذلك سررنا بدعوة

سلطات القصر لنا بأن نمضي إلى الحدائق و إلى قصر السلطان الريفي الذي يقع في المنطقة الزراعية خلف المدينة . فواصلنا السير دون إبطاء مبتعدين عن الحصن الذي يفوح برائحة التمباك . هذا الجانب الشمالي من المدينة , به تحصينات أقل من الجانب الجنوبي , لذا يبدأ منه الطريق الكبير إلى المكلا والشحر . وتقوم عربات النقل حاليا بنقل أكياس التمباك البالغ طولها ٢٠٠ ياردة , من الغيل إلى المكلا . ويجلب السماد لمزارع التمباك من المكلا .

تقع خلف المدينة مباشرة منطقة زراعية غنية , يملك فيها السلطان الكثير من مزارع التمباك , التي يقال إنها تشكل مصدر دخل كبيرا بالنسبة له , وبالقرب من الجانب الخلفي للمدينة حديقتان , أقيم حديثا في كل منهما مقر صيفي . دخلنا الحديقة الصغيرة التي بها المنزل الصغير الذي خصص للرجال من الحاشية . وفي الحديقة الأخرى منزل أكبر للزوجات ووصيفاتهن ز

أغلقت البوابة خلفنا فورا , وبقي في الخارج الفضوليون من الشباب الذين تبعونا . ووقفنا صامتين في الحديقة الفارهة نحاول ان نجعل أعيننا تعتاد على الظل الكثيف تحت أشجار الفواكه المزهرة . تخيلنا كأننا انتقلنا جسديا إلى جزء من جزر الهند الشرقية . فأشجار الفواكه المألوفة في تلك البلاد موجودة هنا و والحرارة المتقدة الرطبة تتخلل ظلال هذه الحديقة الغناء .

أقيم أمام الفيلا حوض للسباحة حديث الطراز لكنه لم يكتمل بعد يبلغ طوله ٣٠٠ قدما وعرضه بعرض المبنى . ويلتحم الحوض مع درجات الشرفة . ويقبع على ماء الحوض الصافي مثل البلور قارب مزركش بلا حراك . وملء الحوض بالماء بواسطة مضخة تكريما لنا . رغم أن الماء دافئ إلا أننا أبدينا إعجابنا بالاستمتاع بالسباحة والتجديف بالقارب .

يعمل مضيفنا الذي ينوب عن السلطان , في زراعة التمباك وهو في نفس الوقت موظف وقال : إن التمباك الحمومي يزرع هنا فقط . تم محاولات لزراعته في لحج وفي اليمن , لكن نسبة لاختلاف المناخ والتربة , فإن النوع الذي زرع كان أقل درجة في رائحته وطعمه من النوع المزروع في الغيل . تعتمد الزراعة في الغيل على درجات عالية من التجويد . فيوضع السماد للتمباك ثلاث مرات : الأولى بفضلات الطيور (الغوينو) والثانية بالسمك , والثالثة بروث البهائم وفضلات الإنسان . ويروى بماء صاف وبكمية معلومة . ويوضع كل نوع من السماد في الزمن الصحيح . وتأتي أفضل أنواع الغوينو من جزيرة على الساحل الصومالي تمتلك السلطات البريطانية امتياز فيها . ويوجد نوع من الغوينو في جزيرة في بئر علي غرب المكلا بالقرب من عدن . ويصدر كل محصول التمباك إلى مصر , ومن هناك يذهب جزء منه إلى سوريا وإلى بلدان البحر الأحمر . ويكسر التمباك الحمومي إلى قطع صغيرة ويدخن في الشيشة . وتستعمل سيقان النبات أيضا لذلك تجفف كل الشجرة وليست أغصانها فقط . ثم تربط في حزم كبيرة وتعبأ في جوالات مستطيلة , وزنها ٣٠٠ رطلا وهو ما يساوي حمولة بعير . سعر الجوال هذه الأيام بين ١٢٠و ١٣٠ روبية .

٦) إلى الشحر من طريق الساحل :

لم ننعم بالنوم في شحير في تلك الليلة , فقد كان هناك حفل زواج في الساحة التي تقع أسفل المنزل الذي نقيم فيه . فأضيئت مصابيح الغاز , وبدأ بعد ذلك الرقص في الساحة فوقف الرجال والنساء قبالة بعضهم البعض في صفوف طويلة , ثم أخذوا يقتربون ويبتعدون عن بعضهم مع إيقاع أرجلهم وتصفيق أيديهم . ويشاركون كلهم في غناء رتيب متواصل يكررونه باستمرار بنفس اللحن , أما كلمات الأغنية الفعلية فيقوم بإلقائها شخص واحد . كلهم يحفظون الأغاني

القديمة ويجدون متعة في تكرار مقاطع منها ويجدون أيضا حماسة متزايدة من ذلك التكرار . ويتساقط العرق على صدور الرجال المكشوفة , لكنهم لم يرهقوا إلا قبيل الفجر عندها هدأ صخب الاحتفال .

أيقظنا السائق قبل أن يحل الضياء بأصوات بوق سيارته أمام القلعة . فهو يعلم أن علينا أن نسافر إلى الشحر ونعود عن طريق الساحل قبل ارتفاع المد .

رافقنا مضيفنا في الرحلة . يمضي الطريق على الشاطئ الشرقي للوادي حتى الساحل الذي يقع على بعد بضعة أميال . وترسو عليه قوارب الصيادين , وبجانبها الرجال الذين يجمعون الغونيو . هناك أماكن لتجفيف السمك بالقرب من بعض الأكواخ , كانت الرائحة تلك الليلة تصلنا في الشحر , ينقل الغوينو . من هناك إلى غيل باوزير ليستعمل في السماد .

يشبه الساحل هنا سواحل هولندا الرملية , وتوجد أيضا كثبان رملية عليها بعض النباتات لا يزيد ارتفاعها عن ٢٠ إلى ٣٠ قدما . وكان على الساحل جيوش من السلطعون التي ما إن حست بحركتنا حتى أخذت تفر أمامنا في اتجاه البحر أو نحو الكثبان الرملية , حيث تحاصر أكوام الرمل الممرات الحلزونية التي تؤدي إلى مساكنها تحت الأرض . لا شك أن هذا العدد من السلطعون كان بسبب المطر التي هطلت بالداخل فأخذت تنحدر باحثة لها عن مخرج إلى البحر . وعندما اقتربنا من الشحر برزت الصخور المرجانية فوق الرمال , وأصبح الممر هنا ضيقا , ويختفي تماما عندما يرتفع المد .

تقع الشحر على ساحل مسطح متدرج الانحدار , حتى أن السفن لا تجد لها مرفأ إلا بعيدا في البحر . ورأينا في تلك اللحظة عددا من السنابيك والبحارة الذين يمارسون تجارتهم إلى ما بعد الغسق بوقت بعيد . يجري الممر من الساحل عبر رمال كثيفة إلى البوابة , التي تفتقد الآن أي ذوق معماري . أما السور فهو أيضا جديد وجانبه الداخلي مقوى بأعمدة من الطوب

المصنوع من الطين . ويبدو أن السور أكبر من حجم المدينة , لذلك نصفها ميت وآخذ في التداعي خلف الجدران . العديد من المنازل غير مأهولة , وتهدم بعضها .

عبرنا ساحة شاسعة في طريقنا من شرق المدينة إلى غربها . الشوارع قذرة , حتى المنازل المأهولة يبدو عليها الإهمال . وتحلق فوق المدينة رائحة الأسماك المجففة المتعفنة إنها رائحة أقوى من رائحة المجاري . وتقع المباني الحكومية في الجزء الغربي من المدينة . وتقف القلعة بجانب البحر على تل رملي شامخ تمت حديثا صيانة المبنى وتعطي خطوطه البسيطة القوية إنطباعا جميلا . وفي طابقه الأرضي مدرسة مؤقتة تظم بين (٣٠٠ – ٤٠٠) . ترقد على التل بالقرب من القلعة مدافع ضخمة عتيقة وبجانبها سارية تقف وحيدة يقع على الجانب الأرضي من الساحة مبنى الحكومة وهو مبنى ضخم مستطيل جيد البناء وشيدت على السطوح شرفات يتناسب طقس الشحر الحار الرطب .

لم يكن الحاكم بالمنزل في ذلك الوقت وقد التقينا به على الساحل في عربته الأمريكية الجميلة . ملامح هندية ويبدو أنه متمدن إلى حد كبير بالنسبة لمدينته شبه المعزولة عن العالم الخارجي . التي ما زالت تحلم بأمجادها الغابرة . كانت الشحر بحق في وقت من الأوقات أكبر من المكلا بل كانت مركزا تجاريا هاما قبل ظهور المكلا .

يوجد تحت السور الشرقي سهل شاسع تقع فيه المقابر وبينها بعض القباب وعلى حافتها العديد من المساجد . يمتلك بالقرب منها السيد أبو بكر الكاف رجل تريم قطعة أرض أقام عليها قصر ضيافة فخم لأقاربه وأصدقائه القادمين من جاوا إلى تريم أو عائدين منها عن طريق الشحر .

كان الكاف منهمكا في تشييد طريق للعربات بين تريم و الشحر وكاد أن يكتمل ما عدا مسافة قصيرة من الساحل عبارة عن مسيرة ثلاثة أيام بالجمال . فإذا اكتمل هذا الطريق بالرغم من

معارضة قبيلة (الحموم) المقاتلة التي يمر الطرق بأغلب منطقتها وربما استطاع الشحر أن تنمو وتملأ الجدران التي تحيطها .
قمنا قبل مغادرة المدينة بزيارة اخرى لنائب الحاكم . ساعدنا في تلك الزيارة مفتش الضرائب وهو هندي على قدر رفيع من التعليم كان استقبال نائب الحاكم حارا ووديا . فسرنا عبر مجموعة من الحراس الأشداء إلى مجلس على الطريقة العريقة حيث النوافذ والشبابيك والأعمدة الخشبية مزينة بنقوش والسقف مطلي بالأبيض والأحمر والأسود وشاركنا بلذة في شرب الشاي مع كميات متنوعة من الحلوى والفواكه الطازجة والمعلبة .
سكان الشحر حب التقدير الرسمي ٩٠٠٠ نسمة لكن يبدو أنهم لا يعتدون ٦٠٠٠ نسمة وبما أن الغربيين لا يدركون مدى ازدحام المنازل العربية الكبيرة بالسكان فيبقى تقديرنا غير مؤكد . بالمدينة ٣٦ مسجدا .
استعجلنا في الرحيل قبل ارتفاع المد وصاحبتنا عربة (فورد) أخرى وبعض الجنود ضمانا لسلامتنا . الصخور المرجانية تسم بالعبور لكننا اتجهنا إلى الوادي . تخلصنا في النهاية بعد التأخير الجم والإرهاق الذي لا طائل تحته لكن لم يعد الوقت الكافي لتناول الوليمة التي دعانا لها مضيفنا في الشحر . وأبدى أسفه الشديد لعدم تلبية دعوته فالناس في هذه البلاد إما لا يفهمون الأوربيين الذين في عجلة من أمرهم أو لا يقدرون تعجلهم .
فشعار الناس هنا ان الصبر والانتظار من عند اللّه وان العجلة من الشيطان (الراضة من الرحمن والعجلة من الشيطان) وأصر الشيخ الماس ان نأخذ سترته بدلا من سترتنا التي تمزقت أثناء السيارة فغادرنا المدينة ونحن في إعجاب من الكرم العربي .
كان قد حل الظلام عندما وصلنا حدود المكلا . لكن البدو ما زالوا في كمينهم ينتظرون العدو . كانت بعض النيران الخافتة

تتقد في معسكرهم بين الصخور ويقف المراقبون قريبا من الطريق . فنحن في حماية الدولة التي لا تخشى إلا من هجمات الحموم .

٧) أيام الانتظار الأخيرة في المكلا :

يبدو ان الاستعدادات لرحيلنا من المكلا كانت فعلا مستمرة ز لكن علينا أن نتحلى بالصبر ليوم آخر , إذ يجب أن يكون كل شيء معدا إعداد جيدا . أخبرنا الوزير إنه بإمكاننا السفر أثناء النهار فقط , حيث ان الطريق شاق بالنسبة للسفر ليلا . وأضاف الذي لم ير جبال حضرموت بعد فلم يتعلم بعدما هي الجبال الحقيقية .

فكان أمامنا يوم آخر لنوسع معرفتنا بالمدينة , ونزور الموظفين , نتسلق بعد ذلك الصخرة الواقعة خلف المدينة لنجمع بعض النباتات والحشرات ثم نضع الأساس لخريطة رحيلنا .

يسكن السيد أبو بكر وسط المدينة في نهاية لسان الأرض حيث كان السلطان يعيش سابقا .

واتضح ان الجزء الأكبر من نتوء الجبل تحتله المقبرة التي تتوسطها قبة الشيخ يعقوب وهو رجل المكلا الصالح . ليس هناك وجود لأشجار الإثل التي تحدث عنها الرحالة الأوائل , ليس بالمقبرة الآن أي اخضرار . أما زيارتنا للسيد أبو بكر فكانت ذات طابع رسمي , فمازالت أمامنا مخاطر , ولم نتعرف بعد على بعضنا البعض , فكان هناك حذر من الجانبين . الموظفون الحكوميون الذين زرناهم ليسوا من مواطني البلاد وإنما هنود جاءوا بهم من عدن . ويحتكر الهنود التجارة وأعمال البنوك , لكن يبدو أن الحضارم اخذوا يسعون جاهدين مؤخرا لإزاحتهم .

يبلغ سكان ١٢ ألفا (٢٥) . وأخبرنا ضابط الجوازات أن حوالي ألف حضرمي يرجعون من جاوا كل عام ويعود منهم مثل هذا العدد . ويعبر منهم عن طريق الشحر بين ٤٠٠ إلى ٥٠٠ . وعلمنا

منه أيضا أن عادة شرب القهوة , وهي عادة عربية قديمة , قد أخذت تتراجع هنا لكنها تراجعت بشكل اكبر في حضرموت الداخل , وحل محلها شرب الشاي الذي وفد من الهند ومن جزر الهند الشرقية . وفي كل زياراتنا كان الشاي يقدم أكثر من القهوة فكان الشاي الخفيف مع كثرة من اللبن والسكر موجود دائما .

يحتفظ مدير الجمارك بأرقام الصادرات والواردات سرا , مدعيا ان قيمة الوردات مهمة فقط بالنسبة له , لكنه لم يكون بعد فكرة واضحة عن القيمة الكلية للبضائع المستوردة . كانت أهم بضاعة مستوردة هي الأرز من البنغال . وبالميناء حوالي ٤٠ ألف تنكة من الجاز والبنزين وهي الكمية التي تستهلكها البلاد سنويا , وسوف يزداد الطلب عليها كثيرا في المستقبل .

٨) تسلق الواجهة الشمالية لجبل المكلا :

في عصر أحد الأيام أحاط بنا جمع من الصبية عندما بدأنا نتسلق بمشقة الحائط الصخري المحمر الشديد الانحدار الذي يقع خلف مدينة المكلا . وبدأ منظر المدينة م البعد على ارتفاع ٦٠٠ قدما شيئا فريدا . وتنتصب قريبا من الحافة أربعة حصون للدفاع عن المدينة يبلغ عرض الهضبة بضعة مئات من الأقدام , تبدأ بعدها الخور في ارتفاع حاد حتى بلوغ القمة المسطحة . ساعد الصبية بحماسة في جمع النباتات والقبض على الحشرات وشاهدنا من فوق القمة على الشمال بانوراما رائعة , كان الوق يسمح لنا فقط بعمل بعض الاستكشافات التمهيدية وقياس ميلان قمم الجبال المنتشرة قبل أن تغيب الشمس ويصبح الجو باردا , قال الدليل الذي يرافقنا إنه عند الهبوط سيدلنا على طريق أسهل نسلكه . ولكن حدث العكس , فقد ظللنا الطريق كليا . وتركنا الصبية خلسة ووجدوا طريقا إلى منازلهم , أما نحن فكنا نتقدم ببطء مع تزايد

الظلام والحائط الصخري شديد الانحدار . وبما أني لست خبيرا في التسلق , فلم أتجاسر بل كان باستطاعتي أن أخطو خطوة إلى الأمام . وصلت بعد المشقة إلى بقعة تحت صخرة معلقة وأنا منهك وممزق الثياب , فارتميت عليها . على أنهم في المدينة أخذوا يفكرون في أمرنا , وبعد ساعة كاملة رأينا مصابيح تقترب من اتجاهين مختلفين , كانوا جنودا أرسلهم الوزير للبحث عنا فاستطاعوا أن يصلوا بصعوبة إلى البقعة التي نحن فيها . كما أنهم تنبهوا إلى حاجة الإنسان الكبرى عندما يقوم برحلة كهذه الرحلة في بلادهم , الماء . وعندما رفضت أن أخاطر بالنزول في الظلام وفضلت البقاء حتى الصباح , قال قائد الفرقة : إنه مكلف ان يهبط بنا في نفس المساء . إن رجال الجبال هؤلاء لهم خبرة ويتسلقونها بخفة ورشاقة بأقدامهم العارية , وسرعان ما وثقت في توجيهاتهم , وصلنا المكلا في نفس المساء دون كبير عناء . ورافقنا القائد وهو يسير مزهوا وسط جموع الناس الذين كانوا يتابعون هبوطنا من ضوء المصابيح التي معنا وخرجوا ليشاهدوا وصولنا . وجاء دليلنا لمقابلتنا وهو بدون جلباب وكوفية لأنه فقدهما عندما هبط باحثا عن نجدة . وكان رده على التأنيب الذي جاءه من عدة جهات : هذه إرادة اللّه , اللّه هو الذي قدر لي أن أضل الطريق وهو الذي جاء بكم سالمين الشكر للّه .

الفصل الثالث
(من المكلا إلى وادي دوعن)

١) بداية متعثرة :

استغرق تجهيز القافلة عدة أيام . أبدى خلالها الوزير وموظفوه اهتماما كبيرا بأمرنا . وعند زيارتنا للسيد أبو بكر زودونا بالكثير من النصائح والمعلومات الأساسية , كما تعرفنا على قائد القافلة وكانوا يلقبونه (موتور) وهو لقب حديث استحقه بجداره لأنه كان يقطع المسافة من دوعن إلى المكلا في يومين وليلتين عندما كان يحمل الرسائل الحكومية العاجلة , وكان يحظى بثقة الوزير الكاملة , وقال بصوت رقيق إنه يشهد اللّه أن يضحي بحياته من أجلنا وسوف يوصلنا بمشيئة اللّه سالمين مع ممتلكاتنا إلى باصرة حاكم دوعن .

كان (موتور) صغير الحجم , وشعره المموج المدهون الأسود معقوص بضفيرة جلدية رقيقة حول رأسه . ويعلق على رقبته سلسلة يتدلى منها خاتم فضي يتوسطه حجر بني مستدير في حجم ظفر الإبهام . ويلف حول خاصرته قماشا داكن الزرقة وضع فيه غمد سكينه (يسمونها جمبية) , وكان هذا كل لبسه . وأعلنا ثقتنا في (موتور) وقيادته , وختمنا الاتفاق

بالمصافحة . وسوف يوفرون لنا في المكلا الجمال الصالحة للسفر في الجبال ثم نستبدلها في دوعن بأخرى صالحة للسفر في السهول . وستخصص الجمال لحمل الأمتعة أما نحن فسوف نركب الحمير لأن ركوبها أقل مشقة وأكثر راحة للشخص الذي يريد النزول منها باستمرار ليقوم بمسح الطريق وأخذ الصور وجمع النباتات والحشرات .

وكان علينا أن نوفر الطعام للبدو المرافقين لنا , وأوكلنا لموظفي الوزير مهمة تدبير المؤن وقرب الماء وأدوات الطهي الخ , وابتهجوا بالمهمة أما السيد علوي الذي سيرافقنا فكان عليه أن يدبر الحمار الذي سيركبه والجمل الذي سيحمل متاعه .

تحدد رحيلنا في اليوم التاسع من مايو . وفي الصباح الباكر جاء الموظفون يحملون حساباتهم , بعد أن قاموا بكل الترتيبات . فكان علينا أن ندفع مائة وستين روبية للجمال وحمارين ومرتب اثنين م الجنود العبيد . وأحضر قائد القافلة الطعام الذي يكفينا جميعا للرحلة من المكلا إلى دوعن التي تستغرق ستة أيام . ورافقنا اثنا عشر بدويا من قبيلة سيبان . ومعهم أيضا جمالهم المحملة بالبضائع , لكنهم سيأكلون من المؤن الوافرة التي حملناها معنا .

تحول البدو في يوم الرحيل إلى حركة دائبة فاخذوا يجمعون الجمال والحمير ويعيدون التي هربت منها وتدور بينهم مفاوضات لا نهاية لها , وترتفع الضوضاء من الشجار حول توزيع الحمولة . لكنهم لم يذكروا أي شيء عن بداية الرحلة . وفي اليوم الأول لرحلة طويلة كهذه يقطع المسافر عادة مسافة قصيرة لذلك كان بإمكاننا أن نؤخر رحيلنا إلى ما بعد الظهر . علمنا في العصر أن مرافقينا من البدو ينتمون إلى القافلة التي التجأت إلى المكلا خوفا من مطارديهم وأن أعداءهم ينتظرونهم عبر الحدود مباشرة , فذهب الوزير في الصباح ليجري مفاوضات تؤمن لنا مرورا آمنا , ولم يعد بعد . وعاد في الثانية ظهر مرهقا ومصابا بحمى , فأرسل ابنه نيابة عنه ليودعنا ويخبرنا أن والده

استطاع إلى شروط لهدنة لفترة أسبوعين . الآن فقط بدأ رجال سيبان يعملون وكأنهم يعنون الرحيل فعلا .
عندما حل المغيب لم يستعدوا بعد , فقبلنا عرض الوزير بأن نعبر الحدود بالسيارة وننتظر هناك وصول الحمير ونسير بها حتى المعسكر المؤقت الأول وننتظر الجمال التي ستصل كما هو متوقع عند منتف الليل . وركبنا السيارة ومعنا متاعنا على الحمير ورافقنا السيد علوي وخادمه وطباخنا صالح . وبالقرب من الحرشيات تركنا السيارة على جانب الطريق , وانتظرنا لبضع ساعات مع أمتعتنا حتى وصلت الحمير . مضيفنا بعد ذلك سار في سير منتظم وسط ظلام حالك , يتقدمنا بدوي يحمل مصباحا . وعسكرنا عند قرية (طلعة السفلى) لنقضي الليل في مجرى السيل الجاف في الوادي . ومن حسن الحظ لم يمض وقت طويل حتى وصلت الجمال . فنصبنا الأسرة السفرية وسط الصخور الضخمة . وكنا في أمان تحت الناموسية التي حمتنا من الناموس الذي يموج هنا بالقرب من بساتين النخيل ومزارع الذرة . لم نتعود بعد الأصوات والروائح في مثل هذا المعسكر المؤقت , لذلك لم ننم إلا قليلا .

٢) الرحلة إلى وادي حمم :

دبت الحركة في كل شيء في المعسكر قبل ساعة من الشروق, لكن لن نتحرك قبل أن ننتهي من أخذ المقاسات . وبعد فترة وجيزة من رحيلنا بدأت الشمس في الشروق كنا سعداء بمغادرة هذا المعسكر الرطب الموبوء بالناموس , ومن حسن الحظ أن كل يوم يمر يقربنا أكثر من الجفاف والبرودة في هضبة حضرموت الجبلية . وتتكون المساطب في الطلعة أساسا من كتل صخرية مستديرة , النبات نادر ولكنه متنوع , وتنمو أشجار الطلح

بكثرة في الوديان , ويسمونها هنا (سمر) وأصبح وادي (لصب) الذي نسير فيه عريضا ورمليا , والطقس دافئا .
غشيتنا خيبة أمل بل ضيق , عندما علمنا أن الفرقة التي تقدمتنا قد عسكرت في الثامنة عند بئر على حافة الوادي حيث لا يوجد ظل يحمي من حرارة الشمس سوى بعض أشجار الطلح . وأنزل البدو الحقائب وصمموا على عدم مواصلة السير , لا إكراما لنا ولا بإغراء بالمال . فهنا سوف يأكلون أولا ثم يرتاحون من عناء المسير , كان الحر عنيفا حتى خشينا أن نصاب بضربة بشمس , وعلى الرغم من أن (موتور) حسن المقصد , إلا أنه لا يستطيع أن يقف ضد الرغبة الجماعية التي عبر عنها رفاقه . فقام بمساعدتنا في نشر بعض ثيابنا فوق أغصان الطلح حتى نجد بقعة ظل نسترخي تحتها . وما فتئ رفيقنا السيد علوي يؤجج نيران غضبنا بترداده المستمر وعلى وجهه مسحة غموض قائلا هؤلاء البدو أيها القنصل أناس رديئون , رديئون جدا وانتابني قلق وأنا أفكر في ما قد يكون مخبأ لنا من هذه العصابة غير المنضبطة , الذين ليس لديهم أي اهتمام ظاهر بأمرنا , ومع ذلك أخذوا يلتهمون الطعام الذي اشتريناه . فهل يا ترى سيطيلون من أمر هذه الرحلة إلى دوعن قدر ما استطاعوا حتى يتمتعوا تماما بالمؤن المجانية التي وفرناها ؟ وازدادت شكوكنا عندما رأينا تلذذهم الشديد وهم يتحلقون حول وعاء الأرز الممتلئ , في حالة مرح وهم يتكرمون على البدو الفضوليين العابرين الذين كانوا في حالة مرح وهم يتكرمون على البدو الفضوليين العابرين الذين كانوا يشاهدونهم . واستمر هذا الحال طوال الرحلة .
فهناك مجموعات تتابع المعسكر على أمل الحصول على بعض الطعام , كانوا يظهرون على الدوام في اللحظة الحاسمة عندما يغرف الأرز من القد الكبير , فعندها يظهر الضيوف المجهولون بطريقة غامضة في ذلك العراء الخالي من السكان . ويبدو أن طباخنا له كراهية واحتقار متأصلين للبدو . فما فتئ ينبهنا

باستمرار لهذه الظاهرة . أما أنا فكنت متعاطفا مع أيدي أهل سيبان الممدودة .
ولنا في هذه الأثناء إلى الدرك السحيق من الاكتئاب ونحن نحتمي من الحرارة بشجيرات الطلح التي لا ظل لها . فكان الاستلقى أو الجلوس تحت الشمس أكثر خطورة من السير تحتها , هذه كانت تجربتنا دائما . وعندما فشلنا في إقناع البدو المتخمين على مواصلة السير , واصلنا نحن مع جنودنا العبيد . وسار معنا قلة من أبناء البدو المرافقين لنا يحمل كل واحد منهم بندقية صغيرة الحجم من الطراز القديم مزينة بقطع من الفضة , وربط كل واحد منهم حزام الرصاص حول خصره النحيل . وساعدوا بحماسة في القبض على الفراش وفي جميع النباتات .
وصلنا بعد ساعات إلى قرية (لب) الصغيرة . وهي تقع في المكان الذي تتسع فيه الفجوة وتصبح الجبال على جانبي الوادي أكثر ارتفاعا . حفرت قناة في جدار الصخر العمودي يخرج منها جدول يناسب منه الماء إلى مزارع الذرة في القرى , لكنه لا يمكث طويلا . ثم تركنا الممر وأخذنا , نبحث عن نسمة منعشة وسط الذرة التي تنمو في ارتفاعها إلى قامة الرجل . ويزرع الموز والباباي على حافة الحقول . أما سكان تلك القرى فلا يظهرون . تقف مساكنهم المبنية كالحصون عالية فوق الأرض المزروعة في واجهة الجبال . ولعل تحركاتنا كانت مرصودة من خلف فتحات النوافذ الصغيرة المعتمة .
بعد اجتياز القرية يضيق وادي اللصب ويزداد انحدار سلسلة الجبال . وتبدو قناة الماء مثل حزمة غليظة خضراء متعلقة بالجدار , تنمو فيها النباتات المائية بكثرة . وسرعان ما يظهر الغدير بمياهه الصافية كالبلور . وفي الأماكن التي ينساب فيها الغدير في حيضان نشاهد في ضحضاحها أسماكا صغيرة سوداء والعديد من الضفادع السوداء . والصخور مليئة بالثقوب العميقة . وتنحدر الطبقات المتراكمة نحونا . وكلما أوغلنا الصعود في الوادي يصبح جدار الصخر متعلقا فوقنا .

وتبرز القشرة الصخرية من حافتها عالية فوق رؤوسنا حتى أمكننا أن نسير تحت ظلها . هنا قررنا أن ننتظر وصول الجمال . وعلى الفور راح رفاقنا في نوم عميق . أما نحن فأخذنا نبحث عن بقعة في الغدير يكون فيها مجراه قد اتسع وتكونت بركة يمكن أن نستحم فيها . صحيح جاءت الأسماك الصغيرة لترى إن كنا صالحين للأكل لكن ذلك لم يفسد علينا المتعة العميقة غير المتوقعة بالاستحمام في بيداء جنوب شبه الجزيرة العربية . كان الماء بالتأكيد دافئا لكن الهواء الجاف له أثر منعش حالما يخرج الإنسان من الماء ويهب عليه ويجفف جسمه . وكلما توغلنا في الداخل تصبح المياه أكثر دفئا , ولا يكون الاستحمام ممتعا فيها إلا في الليل .

وصلت أخيرا الحمير والجمال ووصلنا السير في انحدار الوادي الحاد . وسرعان ما حرمنا متعة الغدير وشطآنه الكثيفة النبات . ولم نعد نراها بعدما عبرنا الكهف في الحائط الصخري الذي ظهر على شمالنا . على أن الخضرة استمرت غنية ومتنوعة . و يتضح من الينابيع الصغيرة في سفح الحائط الصخري الذي ظهر على شمالنا . على أن الخضرة استمرت غنية ومتنوعة . و يتضح من الينابيع الصغيرة في سفح الحائط الصخري أن كمية المياه ما زالت وافرة . وسقطت كميات ضخمة من الصخر من الجدران شديدة الانحدار في الوادي . وفي بعض الأماكن تجوفت تلك الجدران بفعل الريح والماء ولم تبق منها سوى القشرة .

بدأ فون فيسمان في مسح الطريق من لبيب . وكنا نستعين حتى هنا بالخريطة الممتازة التي وضعها ليتيل في مسحه الجغرافي لمنطقة المكلا الجبلية في ١٩١٩ - ١٩٢٠ .

بدأ الوادي الآن يرتفع بشكل أكثر سرعة , ويحتاج إلى كثير من الصبر والحنكة لقيادة الجمال والحمير المحملة عبر الكتل الصخرية الضخمة . واعتادت جمال الجبال على هذا النوع من الأرض , فيعبر الجمل وبرشاقة بين الصخور , وعندما يجتازها

وينعطف يكون واعيا للحمل الذي يبرز من جنبي ظهره . وبمجرد أن يسمع قائد يصيح (حاذر من جهة الشمال) أو انتبه يمينك , فإن الحيوان يسير بحذر مبتعدا عن المكان الذي يهدد حمله بالارتطام .
صعدنا قليلا في نهاية الوادي , على بعد ميلين من (حوطة اللصب) إلى هضبة صغيرة ويقع داخل حدود (حوطة اللصب) بستان للنخيل والذرة . وفي نهاية الهضبة الصغيرة تقع قرية (لبيب) فتركناها شمالنا وهبطنا إلى وادي (حمم) وهو أيضا محصور بين جدران جيرية عالية . وكلما تقدمنا في السير أصبح هذا الوادي أكثر ضيقا .
وتعترض جلاميد الصخور الضخمة من حين لآخر طريق الجمال على القمم شديدة الانحدار التي على يميننا وعد بضعة أميال من لبيب يتخذ المسيل الصخري المنحناة . وهنا ننبع رائع به حوض مبني لشرب الحيوانات ويسمى المكان (الحلاف) وحسب مسح الطريق فنحن مرغومون أن نعسكر حالما يحل الظلام . فمن الصعب أن نمضي قدما في هذا الوادي بخوره الضخمة .

٣) الحياة في المعسكر :

نصبنا معسكرنا عند (الحلاف) بالرغم من أن مرافقينا من البدو لم يكونوا مرتاحين تماما لسلامته , فصعد القائد (موتور) حائطا صخريا يكاد يكون عموديا يقع على يميننا وأرسل آخرين ليتسلقوا حائطا آخر على شمالنا أقل حدة في انحداره . ومكثوا هناك يستطلعون ويتفقدون .
في هذه الأثناء انشغل كل واحد بشيء . أنزل البدو الحمولة من الحمير والجمال وقادوها إلى حوض ماء . وذهب البعض الآخر يبحث عن علف الجمال , ويقطعونه بخناجرهم المعقوفة . هم يعرفون جيدا نوع الأعشاب الصالحة للحيوانات . ثم أخذوا

يدحرجون حزما كبيرة من العشب على المنحدر , ولم يمض وقت طويل حتى كانت الجمال تنيخ في حلقات يتوسطها العلف . وتقف الحمير بعيدا مقيدة إلى شجرة أو صخرة , قانعة بمضغ طعامها . وبعد ساعات يبدأ الشجار بين الحيوانات , وذلك عندما يوشك العلف على الانتهاء . وكنا ما نكاد نغفو , حتى ننتفض مرعوبين بالنهيق والرفس وبخوار الجمال فيركض بعض البدو كالشياطين السود خلف الحيوانات التي تشتجر فارة حتى يمنعوها من أن تأذي بعضها .

شاركنا في المهمة الشاقة الخاصة بتنظيم المعسكر واستعنا بخادمنا صالحا لإدخال أسرتنا , وحقائب المعدات , وصندوق أوعية الطبخ والمنضدة السفرية والكراسي واخترنا مكانا مناسبا نصبنا عليه الأسرة , وأخرجنا أدوات الأرصاد , والصندوق الذي يحتوي على اسطوانات النباتات المحفظة , وأضيئت مصابيح المعسكر وبينما كان صالح يعد وجبة بسيطة , بدأنا ذلك العمل الذي يحتاج إلى طاقات قصوى , فقد جمعنا كميات وفيرة من النباتات والزهور , حتى امتلأت حقيبة النباتات تماما وبعد ساعة وضعنا كل الزهور والنباتات بين طيات الأوراق وضغطناها في حزمات بين أخشاب الضغط , ثم أفرغنا محتويات الزجاج من الحشرات وفرزناها ولففناها في قطن وصوف ووضعناها في صناديق ما عدا الفراشات . لكم هو جهد صبور أن توضع كل فراشة في قطعة ورق مبتلة وتلف وتحفظ بعيدا . وفي هذه المناطق المنخفضة توجد أنواع عديدة من الفراش جذبتها أضواء المصابيح إلى معسكرنا , وكان أبناء البدو يجلبون إلينا أنواعا مختلفة باستمرار وهم يزهون بما حلوا عليه . وعندما نفرغ من هذه المهمة هناك اليوميات التي نكتبها . وأخيرا نتولى أمر آلات التصوير , فنضع الأفلام المستعملة بعناية ونستبدلها بأفلام جديدة لاستعمالها في اليوم التالي . ثم تأتي أخيرا اللحظة التي نستلقي فيها على أسرتنا , نحدق بارتياح عميق نحو السماء فوقنا وإلى كتل الصخر

السوداء المرعبة التي تمتد في الأفق , ونستمع إلى أصوات الحيوانات بالقرب منا وهي تمضغ طعامها في سكينة أو تحك جلدها , فيضفي علينا كل ذلك إحساسا بالرضى , ونشعر وسط جلال هذه الطبيعة مع الحيوانات الوفية وتابعيها البدائيين , أنها نعمة كبرى أن تركنا الحضارة الغربية خلفنا ونعيش في حضن أمنا الأرض . ولكن , آه آه , فسرعان ما انقطع سكون هذه التأملات بصوت أحد البدو يرتفع معبرا عن مشاعر الرضى في أغنية جافة لا ترخيم فيها , وأصوات البدو وهم يسترجعون خلافات الأمس بحرارة لعلهم يصلون بها إلى خاتمة . ولكن الحياة مع البدو ستكون بعيدة عن الواقع بدون مثل ذلك الحوار .

كان الوقت متأخرا عندما بدأ الكشافة يجاهدون لهبوط الصخر نحو المعسكر . وذهبت مجموعة أخرى لتحل محلهم لتراقب المدخل . في الرابعة إلا ربعا جاءت إشارة الرحيل . استغرقت قراءة الباروميتر والمقاسات الأخرى نحوا من ساعة . أظهر البدو ضيقهم من هذا فهو بالنسبة لهم شيء غير مجد , لكن له ميزة كبرى بالنسبة لنا إذ يمكننا من أن نستبين معالم الجبال قبل الرحيل ونتمكن من قراءة البوصلة .

عندما تجاوزنا الوادي أخذ الطريق يتلوى صاعدا , ولم تعد الجبال هنا شديدة الانحدار فأمكن حفر ممر على المنحدر فوق مجرى الوادي بالتقريب ٣٠٠٠ قدما . إنه ممر بدائي لكن أدخلت عليه تحسينات هنا وهناك . سرنا في اتجاه الشمال الشرقي والشمس متوهجة أمامنا على زاوية مائلة , كنا في حالة صعود مستمر على امتداد الطريق . وأراد البدو التوقف عند السابعة والنصف . ولكننا منعناهم بإصرار عنيف . فتأجل التوقف حتى الحادية عشرة , وعبرنا عند العضوضة على بئر ماء كبيرة , وشاهدنا (ريمان الكبرى) على يميننا قريبة من منحدر الجبل . وتنمو بين مزارع التمباك الشاسعة أشجار النخيل وجوز الهند والموز . توقفنا عند القرية التالية وهي ريمان الصغرى حيث وجدنا ملجأ

من حرارة الشمس القاسية في منزل حجري خال يبدو أنه أقيم للقوافل العابرة .
تعرفنا هنا للمرة الأولى على تلك المؤسسات التي أقامها التقاة لحماية المسافرين من الظمأ , وهي (السقاية) وأخذنا نتنقل من سقاية إلى أخرى . وتعلمنا في النهاية أن ننظر بعرفان أكثر إلى تلك الأبنية البيضاء في أرض ينعدم فيها الماء , ورغم أننا ما زلنا عند بداية حافة الأرض الصخرية الجافة , إلا أننا ظللنا نتمسك بالمعايير الصحية بالنسبة لماء الشرب . والسقاية عبارة عن بناية صغيرة مساحتها عموما خمسة أقدام مربعة وارتفاعها ستة أقدام , وسقفه في شكل قبة , ومبني من الحجر الطبيعي , أو من الطين ومطلي بالجير الأبيض . وعلى جوانب جدران السقاية فتحات مربعة أو مثلثة على ارتفاع خمسة أقدام من الأرض ومن خلالها يغرف الإنسان الماء من حوض عمقه ست بوصات مشيد على ذلك الارتفاع من السقاية . ويملأ الحوض يوميا بواسطة شخص يحصل على أجر من الوقف المخصص لهذا الغرض . وتوجد قرعة نارجيلة أو علبة صدئة أو كوب خشبي في إحدى فتحات السقاية , تستعمل للشرب . وعلى المرء أن يألف سريعا العادة المتأصلة في هذه البلاد وهي شرب مجموعة من الناس من نفس الإناء , وحتى بين الأثرياء والسلاطين , فإن أكواب الشرب الخزفية الضخمة تنتقل من ضيف إلى آخر . ويشرب منها الجنود والعبيد أيضا . وماء السقايات أغلبه متسخ , وبه خليط من الروائح و المذاقات . لكن يعلم الإنسان التغاضي عنها , وبمرور الزمن تلاشى التمنع .

استطعنا أن نشتري في ريمان الصغرى الحليب واللبن الخمير والليمون وجوز الهند والموز , ولكن بأسعار عالية , والنا السير بعد الظهر , ووصلنا بعد فترة قصيرة إلى الهضبة المغطاة بعناقيد كثيفة من الأعشاب و الشجيرات . تقع هنا قريتا الغيضة و الغياضة وسط مزارع تمباك مزدهرة ومحاطة

ببساتين نخيل صغيرة . وعمدة قرية الغيضة من أقارب العطاس , لذلك كنا تواقين لزيارته . ووجدنا باب منزل العمدة البسيط محلى بزخارف بديعة , واستقبلنا في غرفة صغيرة معتمة , تستعمل مخزنا للتمباك وللاستقبال في آن واحد . عاش العمدة في بتافيا سبع سنوات , وكون ثروة من تجار الباتك وما زال ابنه يواصلها هناك . وحالما علمت ذلك اقترحت عليه أن نتحدث باللغة الملاوية بدلا من العربية . فوافق مضيفنا بحماسة , وسرعان ما انغمسنا في ذكريات عن جاوا . وفي هذه الأثناء أعدت القهوة , التي تكون ثلاثة أرباعها من الزنجبيل وربعها من البن . وأخذ يمر علينا القدح خزفي كبير يتنقل من فم إلى فم . وكانت هذه الأقداح الفخارية تملأ بالماء وتوضع في الفتحات الصغيرة , فيهب عليها الهواء وتتبخر حبات الماء على سطحها ويبرد الماء داخلها نتيجة لعملية التبخر , ويستعمل الأغنياء والفقراء على السواء نظام التبريد هذا .

تحدث مضيفنا بشوق عن جاوا الجميلة الغنية , وعن السنوات الحلوة التي قضاها هناك , وكان من الواضح أنه تواق للعودة إليها لولا أنه سيترك عائلته خلفه , لأن نساء الحضارم لا يتركن موطنهن ويذهبن وراء أزواجهن . واتضح لي من الوداع الحار , أنني لست مخطئا عندما اعتقدت أن السنوات التي قضيتها في الخدمة المدنية مع الحكومة هولندا في جاوا سوف تسهل لي ترحالي في حضرموت .

ساروا جميعهم معنا لوداعنا , وأخذ لهم صورا فوتغرافية بناء على طلبهم . وتابعنا مجرى السيل العريض ثم عبرنا الهضبة التي تحيطها مصاطب ارتفاعها ٣٠٠٠ تقريبا . وعند نهاية الهضبة تقع قرية (حمم) على ارتفاع ٥٠ قدما فوق تل في حافة الوادي الذي اتخذ اسمه منها . وهناك أشجار جوز طويلة عند سفح مزارع الذرة و التمباك الذي يزرع بعناية ويجنى بحذق . صحيح إنه ليس تمباكا حموميا من الدرجة الأولى . لكن رغم ذلك أسعاره عالية في السوق .

بمجرد مغادرتنا حمم حل الظلام فأجبرنا على التوقف ونصبنا معسكرنا . وتوغل الوادي هنا داخل الصخور الرملية والخليط الذي تحت الصخور الجيرية العتيقة . وأمست الليالي الآن على ارتفاع ٣٠٠٠ قدما . وحسب أقوال أصحابنا البدو الذين هم خبراء متميزون في تذوق الماء , فإن كمية الماء تتحسن كلما ابتعدنا من الساحل . وتختفي كل الملوحة الحادة تدريجيا .

حصلنا في معسكرنا في حمم على كميات وافرة من الحشرات والنباتات . وعثرنا على الفراش المسمى مبتلع الذنب . وجاء عمدة حمم لزيارة معسكرنا .

وقال إن القريته البالغ سكانها بين ٢٠٠ و ٣٠٠ نسمة تزرع التمباك , وهوالمدر الأساسي لمعيشتهم . ولذلك لم يهاجر إلى جاوا من رجاله سوى ثلاثة , لكنه مع كل خير عن أرض الوعد وكم يتمنى أن يذهب إليها , ولكن هذا يعني أن يترك خلفه عائلته مكونة من ستة أبناء . وعنما ألته إن كان قد أدى فريضة الحج أجاب بالنفي .

قابلنا عدد قليلا من المسافرين بين المكلا وحمم , مجرد حمال قليلة محملة بالموز والفواكه الأخرى في طريقها إلى وق المكلا .

وبمجرد أن انفض المعسكر في صباح الحادي عشر من مايو , بدأنا نعد عقبة طويلة ولم نصل قمتها إلا بع ساعتين . وعندما تقدمنا قليلا مررنا بمكان يسمى (كبر) زعم البدو أنه مكان آخر يمكن أن نجد فيه الماء لساعات , وألحو علينا بشدة أن نرتاح هنا لفترة ما بعد الظهيرة . ومباشر بعد موافقتي اتضح لي أن القصة عن الماء اخترعت من أجل أن نتوقف . كان المكان غير ملائم , والماء يجلب من بئر في بطن الوادي من عمق عشرين قدما . ووجدنا أنفسنا مرغمين للبحث عن ظل يقينا من الشمس بين فجوة من الخور ليس فيها مساحة كافية .

اغتم فون فيسمان الفرصة وتسلق الجرف الشديد الانحدار الذي يصعد إلى الهضبة يصاحبه أحد الجنود العبيد . وتتكون الستون قدما من الطبقة العليا من الحجر الجيري الذي كان

يتساقط عموديا في كل مكان , حتى ليصعب أن تجد فيه بقعة صالحة لاتخاذ المقاسات , لم يصدق البدو أن (الإفرنجي) سوف يتمكن من الصعود بحذائه , وكانوا يتابعون (ستيريا) لذلك عندما لذلك عندما تمكن من أن يقهر جزاء من الجدار محفوفا بالمخاطر بينما لم يتمكن الجندي إلا من متابعته بمشقة , فإن شعبيته ترسخت نهائيا بين أهل سيبان , وأصبحوا يلقبونه منذ ذلك الوقت (حرمل) وهو يعني الرفقة الحسنة , ولازمه الاسم طوال إقامته في حضرموت . و (حرمل) تحريف لكلمة (هيرمان) وهو نبات شهير في حضرموت لا تأكله الأبقار , فهو لذلك عديم الفائدة .

لم تمكنوا من حفظ أسمي , فأخذوا ينادونني منذ ذلك الوقت قنصل , والبدو ديمراقطيون إلى حد بعيد , فإذا أرادوا أن يستفسروا عن شيء لا ينتظروا اللحظة المناسبة وإنما يصيحون من مؤخرة القافلة (ياحرمل) أو (يا قنصل) فأرد عليهم في الحال بنفس الصوت العالي (ياحاج) أو (ياسيباني) ثم يأتي بعد ذلك السؤال الذي أحاول أن أرد عليه مازحا . ويستمتعون بالضحك , وإذا استطاع الإنسان أن يمتلك زمامهم بالحفاظ على روح المرح عندهم , فإنه يستطيع قهر ما هو عصي لديهم . واتضح لي ضرورة خلق صدقات مع البدو , على أن نحافظ في نفس الوقت على مسافة في علاقتنا حتى يشعروا بنفوذنا .

استطاع فون فيسمان أن يرى من فوق حافة الهضبة على البعد منظرا بديعا . في الجنوب الشحر , والبحر وفي الشمال أعلى جبل في حضرموت هو كور سيبان , والكتلة الضخمة للخور الجيرية العتقية . وفي الشمال أعلى جبل في حضرموت ه كور سيبان , والكتلة الضخمة للخور الجيرية العتيقة . وفي الشرق والغرب السهل اللامتناهي , وما زلنا نرى بالقرب منا الوديان التي نخرتها المياه , في الأعلى على امتداد خط الأفق

بالقرب من الحائط الصخري تنمو أنواع مختلفة من النباتات الشائكة بأوراقها التي تجمع بين الزرقة والخضرة .
عندما بدأت الشمس تخترق الشق الصخري الذي احتمينا به وارتفعت الحرارة إلى ٢٣ درجة , أرغمنا على الرحيل , بالرغم من أن البدو لم يكونوا ميالين لذلك . فكان إيقاظهم مشقة , وبينما كانوا يبحثون عن جمالهم التي كانت هائمة تبحث عن العشب , فتقدمناهم بخطى وئيدة , كان الطريق في البداية يتلوى على المنحدر في وادي حمم في أعلى مجرى السيل . وأخذنا ننظر إلى الأشجار الصغيرة والأعشاب الندية الاخضرار . وكنا نرى من حين لآخر راعية وسط الرجال مع قطيع أغنامهم . ثم هبط الطريق نحو الوادي . فأخذنا نسير فوق جلاميد الصخر بألوانها الرمادية البيضاء , وتحت أشجار الصنت الصغيرة بأغصانها الخالية من الأوراق . هكذا وصلنا طريقنا الوعر إلى نهاية وادي حمم , الذي نسير فيه وعلى جانبيه طوال الأيام الماضية .

٤) عبر وادي لصب إلى الهضبة الصخرية الكبيرة . المعسكر في الحسى :

ما أن نفذنا إلى الهضبة العليا , حتى دخلنا سريعا بطن وادي (لصب) الشاسع الضحل , المغطى أغلبه بالنبات . تنتشر هنا منازل صغيرة بائسة , مثل مربعات من الحجر , بها حدائق صغيرة بدائية . ويعيش الناس أساسا على تربية الضأن والأغنام . فنصبنا معسكرنا لقضاء الليل مباشرة بعد المنازل التي تتكون منها قرية الحسى , وبجانبها بئر كبيرة مبنية من الحجر حتى يصل إلى سطح الماء . والبئر محفورة في مجرى السيل لذلك أقيم حولها حائط سميك لحمايتها يبلغ ارتفاعه

قائمة الرجل , حتى يصل إلى مياه السيول التي تأتي بعد هطول الأمطار .
وتسكن عائلة (موتور) قائد قافلتنا في الحسى , وكان ذلك مدعاة للتعطيل ومضيعة للوقت في ذلك اليوم , فلم يكن البعض على استعداد لمغادرة الحسى تحت أي ظرف .
نسي البدو الآن كل مشاحنة وأخذوا يشعون بالرضاء واللين , ونهض أهالي الحسى لقطع العلف للحيوانات وجاء كل السكان لمشاهدة معسكرنا , بعد ذلك أخذ (موتور) كل رفاقه ليتناولوا الطعام في القرية . وكان قد جاءنا قبل ذلك بفوطة مليئة بالنبق . تسمى شجرة النبق السدر أو الدوم , ولها أهمية جوهرية في هذه الأجزاء من حضرموت حيث الماء لا يكفي لزراعة النخيل . وينمو شجر النبق هنا بشكل جيد حيث يعتمد على ماء السيل الذي بعد هطول الأمطار , والماء الجوفي في عمق بعيد تحت السطح ولا يمكن استعماله لري الزراعة , وحتى انعدمت الأمطار لعدة سنوات فإن شجرة النبق لا يموت . وثمر النبق كبير في حجم بلية الرخام وبداخله حبة قوية في حجم حبة البسلة , ويجمع طعمه بين الحموضة والحلاوة ومنعش , ويمن حفظ النبق لفترة طويلة , ويسحق النبق بحبه الداخلي وينع منعه خبز أو عصيدة . هذا النبات الصغير مصدر الغذاء الرئيسي للكثيرين في أوقات الجفاف , وفي أوقات الندرة يعيش كثير من البدو على النبق واللبن ولا يبدو عليهم الهزال من هذا الغذاء . وتحمل الرعيات النبق في سلال بيضاوية غيرة جميلة النسج .
أخشاب النبق محمرة بنية قوية , تستعمل للقوائم والعوارض في منازل الأغنياء المبنية من الطين من عدة طوابق . وتستعمل أغانه الشائكة في مزارع التمر , حيث تربط في ظفائر حول الساق بعد عناقيد التمر مباشرة عندما يقارب النضج حتى لا يسرق الثمر . وأخيرا فإن أوراق النبق أيضا مفيدة . فعندما تطول فترات الجفاف وينعدم علف الأغنام والخراف , تقوم الراعيات بملابسهن الطويلة السوداء بالتسلق إلى قمة شجرة النبق ,

ويـضربن الأغـصان بعـصاة فتتـساقط الأوراق الجافـة وتقـف الماشية تحت الشجرة في حالة ترقب الغذاء الذي بعثـه اللّه . أما نحن فكان إعجابنا بثمر النبق قليلا , إذ علينا أن نمضغ طويلا من أجل إذا قليل ومذاق أقل .
أحضروا لنا في الحسي كمية من شواء يرقات النمل الأبيض , وطعمه لا بأس به فأكل فون فيسمان طبقا مليئا , مما أدى إلى إصابته مباشرة بالآلام في الحلق ولم يستطع أن يصدر أي صوت , واستمرت معه هذه الحالة لساعتين .
تقع الحسي على ارتفاع ٤٥٠٠ قدم فوق سطح البحر , والليالي هنا باردة , وبينما نحن هناك فحصنا أكداس النبات التي جمعناها من قبل وضغطناها . ولخيبة أملنا الكبرى وجدنا أغلبها قد تعفن بالفطريات , فكان استبعاد النباتات التي تعفنت واستبدال أوراق اللف عملية شاقة ومثبطة للهمة .
نحن الآن في المنطقة العالية الجافة , ولا نتوقع أن نجد من الآن فصاعدا صعوبة لنعوض ما فقدناه من النباتات التي جمعناها من قبل لأن النباتات خلال فترة الراحة ما بعد الظهيرة , ونضع أكداس الأوراق التي بداخلها النباتات ونثبتها بالحجارة حتى تجففها حرارة الشمس المحرقة والرياح الساخنة . بهذا نحمي النباتات من التعفن .

٥) كور سيبان : أعلى قمة في حضرموت :

يقع معسكر الحسي في سفح كور سيبان , وبالطبع كان فون فيسمان يريد تسلقه .

ووضعنا الترتيب بحيث يتحرك في فجر اليوم التالي مصحوبا بجندي وبأحد البدو ليكون دليله , بينما أقوم أنا مع الجندي الآخر بالإشراف على استعدادات المعسكر للرحيل , وحث القافلة على التقدم السريع , ثم نلتقي مرة أخرى عند توقفنا بعد الظهيرة .
كان الليل في الحسى شديد البرودة , حتى غداء النوم في الفجر مستحيلا , فليس من السهل الاستيقاظ مبكرا . سرنا في صباح هذا اليوم الثاني عشر من مايو من السنة السادسة والنصف حتى الحادية عشرة . وانساب طريقنا فوق الأرض العالية المستوية , ومما يثير الانتباه هضاب الصخور الجيرية المسطحة , التي يخترقها الوادي عموديا ومن ثم تبدأ الوديان الجانبية .
إن هطول الأمطار هنا قليل بحيث لا يمكننا أن نعزي أصل هذه الوديان ذات الشطآن الحادة الانحدار فقط للاندفاع الشديد لمياه الأمطار , ويفترض (بنيت وزوجته) أن هذه الوديان كونها البحر , وهو م يفسر التشابه الذي نجده كثيرا في الخطوط العامة على جانبي الوادي , ولا يبدوا هذا الافتراض مقبولا . يبدو لنا أن نظرية (كيتاني) عن جفاف شبه الجزيرة العربية بل وجفاف كل العالم ربما يقدم تفسيرا مقبولا للحقائق . إن كثرة الأمطار في هذه الهضبة الجرداء , حيث تتسرب كل المياه في الحال , ربما سببت فيضانات عاتية اندفعت بقوة أولية خلال الوديان إلى البحر . بهذه الطريقة تكونت وديان شديدة الانحدار فوق الهضبة . ويمكن أن يعزي التشابه الرتيب في خطوطها العامة إلى الأرض التي حدثت فيها التعرية , حيث برز دائما نفس التركيب بينما الظروف المناخية في الداخل ثابتة .وهناك طبقات أفقية من الحجر الجيري سمكها بين ٥٠ و ١٠٠ ياردة , تقع على طبقات متشابهة من الصخور الجيرية الأفقية .
وتكاد تكون طبقة الحجر الجيري عند حافة الوادي عمودية مثلما كانت طبقة لصخر الرملي في البداية , لكنها تختلط مع

منحدرات حطام الصخر التي ترتفع عالية فوق جدران الوادي , أما المدن الصغيرة والقرى فتقع في الوديان الضيقة على تلك المنحدرات من الحطام , بينما في الوديان العريضة . مثل وادي حضرموت , فتبنى المدن والقرى أمام الحطام .

كور سيبان أعلى جبل في حضرموت بالرغم من أن ارتفاعه لا يتعدى ٧٠٨٨ قدما . وقمته عبارة عن ارتفاع تدريجي يبرز من الهضبة الشاهقة المحيطة به . ويزيد ارتفاع طبقة الصخر العتيق على ١٢٠٠ قدما عن الهضبة , لكنها أفقية لحد ما , مثل الحافة بالنسبة لجبل غريبة الذي يظهر في البعيد . يبدو أن اضطرابات عنيفة وقعت هنا فوق أديم الأرض . هناك ممر للجمال يقود إلى قمة كور سيبان المسطة , حيث يشاهد الإنسان منظرا بديعا فوق (وادي حويرة) الذي أحدث تجويفا عميقا في الجانب البعيد من كور سيبان يقع حوالي ٣٠٠٠ قدم دون وادي حمم . جبل غريبة بالتأكيد أكثر انخفاضا من كور سيبان , كما يظهر أيضا أنه منفصل عن السلسلة الأخيرة بوادي عميق على جانبه الجنوبي , لابد أن جبل بركة الذي يقع على مسيرة يومين , له نفس الارتفاع .

ينمو على إحدى القمم الشاهقة من كور سيبان نبات لعله شجر التنين , وبه عناقيد كبيرة من زهور محمرة , لكن سيقانها مشوهة لانتزاع قطع من لحائها ,كما اقتطعت منها أغصان نامية . وشاهدنا للمرة الأولى على قمة الهضبة عشب كروي , وهو العشر الذي يدر مادة مثل اللبن , ليس به عصارة , لكن له أغصان خضراء , على الرغم أن هذا النبات له أزهار وثمار , إلا أنه في ذلك الوقت بلا أوراق . ويحدث هذا دوما .

تمتد غربا من قمة جبل سيبان هضبة مجعدة , تتقاطع فيها عدد من ممرات للجمال , توجد بها أحواض لتجيع مياه الأمطار تسمى نقاب (مفردها نقبة) . والنقبة عبارة عن قبو محفور في صخرة جيرية , وبه فتحة مستديرة ضيقة قطرها ثلاثة أمتار , ثم ممر رأسي سرعان ما يتسع ليل إلى تجويف تحت الأرض عمقه

بين تسعة إلى عشرة أقدام وقطرة بين خمسة عشر إلى ثمانية عشر قدما . وتنساب مياه الأمطار عبر خنادق منخفضة . والفتحة الضيقة تساعد على منع التبخر , فيبقى الماء في القبو باردا . وفي الأماكن المناسبة التي تشتد فيها الحركة , توجد بين ست إلى عشر نقاب بالقرب من بعضها . ويبقى الماء في داخلها إلى فترة قد تصل إلى ثلاث سنوات على أن طعمها عموما فيه ملوحة . توجد أيضا في الغالب مباني مربعة صغيرة بالقرب من النقاب جدرانها من الحجر الطبيعي مرصوص بطريقة غير محكمة , وسقفها مسطح من الطين يسمونها مربعات تستعمل لحماية المسافرين وحيواناتهم من حرارة الشمس المحرقة نهارا ومن الرياح الباردة ليلا . ويجد المسافر دائما استحكامات ونقاط مراقبة محصنة بالقرب من النقاب , علينا أن نتذكر الحروب التي دارت في هذه الأرض الخالية من السكان .

لقد سهلت النقاب السفر في الهضبة الصخرية الجافة . وكان انعدامها سيؤدي إلى متابعة جلاميد الصخر في قاع الوادي المتعرج ,أو الهبوط إليها دوما بحثا عن الماء . أما الآن فينتقل الإنسان من نقبة إلى أخرى . تكون بعضها أحيانا فارغة نسبة لفترات الجفاف الطويلة , مما يسبب خيبة أمل كبرى , لكن سرعان ما يأتي المرء على أخرى . ويعرف البدو في هذه الجهات موضع كل نقبة معرفة تامة , فيضعون خطة مسيرتهم بناء على ذلك . تحتل النقبة محل السقاية في الوادي . فهي تنتمي إلى الهضبة التي تسمى (الجول) الذي يقع بين الجبال الساحلية والمنخفضات الكبيرة في حضرموت الداخل .

٦) الجول (السوط) :

أصبح طريقنا يقودنا عبر الجول حتى وادي دوعن . و الجول عبارة عن هضاب تتكون من حجارة جيرية لونها محمر بني , حيث توجد جبال أفقية لها قمم مسطحة , من بقايا هضاب قديمة أكثر علوا , تمتد مثل أجنحة طويلة . وتدخل الوديان عميقا في داخلها وكثيرا ما نهبط أيضا في منخفضات مسطحة في شكل أحواض تمر فوق الحافات المتداعية للهضاب , ثم نصعد بعد ذلك بمشقة نحو الجلاميد في ا لحافة الأخرى للهضبة التي تبعد نحو من نصف ساعة . وحيثما ينظر الإنسان يرى نفس الخطوط الطويلة الأفقية من المساطب الجبلية , التي حفرت فيها الوديان أخاديد متشعبة . والسهل مغطى بشظايا حادة من الحجر الجيري , ألوانها بنية داكنة وسوداء وعندما تطأها أقدام العابرين تحدث أصوات مثل رنين المعادن من تصادمها ببعضها , وتكاد النباتات تكون معدومة . توجد عند حافة الهضاب التي يمر عليها السحاب أحيانا , بعض أعشاب الصنت البائسة ولا يوجد أثر لحياة الحيوان هنا ما عداء القليل من السحالي وأحيانا طائرا وحيدا .

الطقس في الجو ساخن جدا أثناء النهار , فالشمس محرقة , والريح حارة وجافة , ثم تنقلب نفس الريح في الليل باردة ونفاذة , مما يجعل الإنسان يصحو ويبقى مستيقظا يتطلع إلى دفء الشمس قبل شروقها . ثم يبدأ العذاب من الحرارة مرة أخرى بعد ساعة .

الرتابة التي لا تنتهي هي العدو الأكبر للمسافر في الجول , فالضوء عنيف وينعكس الآف المرات من الصخور المعدنية اللامعة . ويتعرج ممر الجمال الضيق مثل شريط أملس لامع عبر الفضاء الفسيح الذي قل أن يتغير . وأزاحت الجمال بخفها الحجارة جانبا عن الطريق الذي ظلت تعبره على مر السنين , وتسطح حجر الهضبة الجيري وأصبح صقيلا من الأحذية

الخسبية التي يلبسها البدو , ومن خف الجمال . وتتبع القوافل نفس الطريق وقل ما تكون هناك ضرورة لتعرجات .
ارتحنا في الظهيرة عند النقاب والمربعات حيث لحق بنا المتسلقون من كور سيبان وتسمى هذه البقعة " بين الجبال " .
واصلنا مسيرنا في العصر فوق مستجمع المياه الجوفية بين الشقوق التي انخفرت عميقا عن اليمين والشمال , فكونت منحنيات كبيرة حول مساطب الجبال . شاهدنا عند نقبة " الغاط " جبال الساحل الجنوبي للمرة الأخيرة , واختصرنا الطريق (ويسمى مقربة) بأن هبطنا بمشقة إلى بطن الوادي , ووجدناه لدهشتنا الكبيرة مغطى بالأعشاب والأشجار و الأشجار الصغيرة , فكانت تنبعث منه رائحة الياسمين الذي ينمو بريا .
تقع أماكن إقامتنا لليل في " القمرة " خلف قارة " المول " وهو الجبل الوحيد الذي له قمة . يبدو أن (موتور) ورفاقه لم يكونوا على يقين من سلامة المكان فأرسلوا رجالا أحاطوا بنا للاستطلاع وتمت مراقبة دقيقة أثناء الليل .
ما إن غربت الشمس حتى بدأنا نرتجف في ملابسنا الخفيفة , فأسرعنا بارتداء ملابس دافئة قدر المستطاع . أما رفاقنا البدو فليس لهم أي ملابس دافئة ولا حتى بطانيات يتغطون بها أثناء نومهم . فكانوا يجلسون في الصقيع والأجزاء العليا من أجسامهم عارية , ويبدو أن ذلك لا يؤذيهم . على الرغم من أنهم يوقدون نارا يتحلقون حولها إلى وقت متأخر من الليل , يحكون أقاصيصهم أو ينشدون " دانا دانا " بتطريب . وكان وقع أصواتهم النكراء منفرا , وتبعث إيقاعاتها الغريبة على آذننا الكآبة والحزن . ثم ينشدون أغاني مرحة يستحثون بها الرجال والحيوانات على السير , وكم هو مدهش ذاك المدى الذي يستمر فيه الغناء والأثر المشجع الذي يحدثه بالنسبة للحيوانات . ولم يقتصر الأثر على الجمال , فحتى الحمير أخذت تعدو خببا حتى لا يلحق بها البدو الذين ينشدون ويتقافزون .

كان الليل باردا في " القمرة " وانقضى وقت طويل من الصباح قبل أن تتسرب الحيوية إلى مفاصلنا المتصلبة . وأمامنا مسيرة طويلة , وسوف يعاني المرء من الشمس المحرقة إذا بدأ الرحلة في وقت متأخر من الصباح . ما كانت هناك حاجة إلى مشقة العود والهبوط , فالطريق ينبسط في يسر فوق الهضبة المنحدرة تسمح برؤية مساطب جبلية مسطحة وليست وديان عميقة وشاهدنا في الجبال المحيطة الكثير من الخطوط الأفقية والهضاب العتيقة أو الطبقات الجيولوجية . وكلما ابتعدنا في المسير كلما قلت النباتات .

عبرنا فقط على قريتين صغيرتين بهما مساحات لا تذكر من الزراعة التي تعتمد كليا مياه الأمطار , وقضينا فترة الراحة بعد الظهيرة في مربعة . توافد علينا هنا بعض سكان القرية يطلبون أدوية . فكنت أجثوا عند صندوق الأدوية في الشمس المحرقة أحاول أن أعالج المرضى , فأقوم بتنظيف العيون المغطاة بأوساخ الالتهاب بالقطن والبوريك ثم بقطرات من الدواء . أما المصابون بالحمى فأعطيهم اسبرين مع كوب من الشاي الحار والليمون لعلاج الصداع والحمى . ونظفنا الجروح المتقيحة وربطناها بالضمادات . كما أعطينا بعضهم زيت الخروع والكينياء . ويعطي السكان انطباعا بالصحة والعافية , وعلى الرغم من أنهم لا يغسلون أجسامهم إلا نادرا , ويمسحونها بالسمن والنيلة , لكن المدهش أن الأمراض الجلدية قليلة بينهم . أما الملاريا فقد جاءت إلى الجول من المقاطعات المنخفضة .

غالبية البدو صغار الأجسام وبنيتهم ضعيفة , لكن لهم قوة تحمل عظيمة . ولا يعطونك الانطباع بأنهم يعانون نقصا في التغذية . فالشبان في قافلتنا يخبون طوال اليوم ويساعدون بحماسة صباح مساء , ويأكلون فقط وجبتين في اليوم (بعض التمر والأرز وقطعة من اللحم وأحيانا خبز بلا خميرة يخبزونه على الرماد الحار) .

تتكون قرية " الدهما " كما يبدو من حوالي عشرين منزلا صغيرا , شيد الجانب الأسفل منها من حجارة غير منسقة , وشيد الجانب الأعلى من الطين , وبها قلعة مربعة ضخمة مبنية من الحجارة للدفاع عن القرية ويسكن فيها العمدة . وفي حافة القرية بناء من الطين يستعمل جماعيا لدرس الحبوب . وهناك أفران لشواء اللحم وهي عبارة عن أكوام صغيرة من الحصى توقد عليها النار حتى تصبح ساخنة ويشوى عليها اللحم .
كان عدد المصابين بالعمى وبأمراض العيون الأخرى مروعا . والمقبرة التي تقع خارج القرية كبيرة . فوف من القبور مغطاة بأكوام من الحجارة مما يعطي انطباعا بأنها حديثة ويبدو أن " الدهما " ابتليت بوباء . حرثت الحقول بعناية وتنتظر الآن المطر . وهناك شجرتا نخيل وبعض أشجار السدر , مما يضاعف الاحساس بالخواء الذي يخيم على المكان . يبدو أننا فوق مستجمع المياه في مجرى نهر حضرموت الداخل . والفضاء جاف من النبات . وأشجار العشر خالية من الثمر والأزهار , فقد جف عشبها القليل وبعدما اجتزنا " دهماء " شاهدنا بحيرة صناعية تم حفرها بجهد كبير لتحفظ ماء المطر , كانت جافة في ذلك الوقت وصلنا بريرة بعد نصف ساعة من المغيب , حيث يقع مكان إقامتنا لليل بالقرب من قرية صغيرة .

٧) رحلة قصيرة إلى أنقاض قوم عاد :

كان برنامجنا ليوم ١٤ مايو حافلا . كنا دائما نسأل البدو عن الأنقاض والنقوش , كانوا يدركون ما نرمي إليه , فكلهم يعرفون أنقاض مدن ومقابر قوم عاد وثمود , السكان الأصليين للبلاد , الذين أزاحهم اللّه عن ظهر الأرض عقابا لهم على خطاياهم

الجمة . وهناك مجموعة أنقاض في اتجاه حضرموت الداخل , ومركزها في اتجاه اليمن ولعلنا نخطو هنا داخل حدود حضارة السبئيين . وقال أحمد العجوز وهو أحد رفاقنا السيبانيين , بعد أن أغريناه بعطاء جزل , إنه تجول في تلك الأنقاض , ويتذكر نقوشا رسمها قوم عاد على سطح صخرة في وادي في وادي " ثقب " , وهي ليست بعيدة تقع في الشمال الشرق من طريقنا , وبجانبها بقايا منازل سكنها أولئك القوم في أيام نبي الله هود , فوضعنا الترتيبات بحيث تتقدمنا القافلة ونقوم نحن برحلة سريعة إلى بقايا عاد دون أن نفقد يوما من برنامج رحلتنا . كان الليل في " بريرة " باردا لكن الحرارة في الصباح بلغت ١٨ درجة مئوية . إن رياح الليل المفارقة الكبيرة مع حرارة النهار تجعل اثر البرد كبيرا , تحركنا في الخامسة بقيادة أحمد وحماية الجندي " عبيد " . فسرنا في البداية على الحمير لبضع ساعات , ثم تركنا الحيوانات مع حراسها , وسلكنا ممرا جانبيا يقود عبر صخور إلى منبع وادي غار . وسرعان ما أصبح الوادي عميق التجويف وتسلقنا بصعوبة فوق حائطه الشديد الانحدار , لكن لحسن الحظ لم يستغرق ذلك وقتا طويلا , واقتربنا من بطن الوادي . و تعترض طريقنا أحيانا جلاميد من الصخر لونها بني يغشاه بياض . وتنمو مختلف النباتات الجذابة على حائط الصخرة , مثل الذي يوجد أيضا في " الحسى " . تابعنا قاع هذا الوادي الضيق لفترة طويلة , انتعش نظرنا بألوان أشجار الصنت المتناثرة . وبعد تسلق شاق ولنا حدود وادي ثقب , حيث قمنا بالالتفاف حول جلاميد ضخمة من الصخر . يبدو أن السيل كون هنا شلالات فاحفرت أحواض عميقة بين الصخور , وما زال بعضها يحتفظ بالماء , رغم أنها كثيفة ولونها بني . الشمس عالية حتى أن أشعتها تصل إلى قاع الوادي , فترتفع الحرارة بسرعة وأثر فينا التعب لفترة طويلة فشعرنا بضماء شديد . فتقلص سريعا مخزوننا من الماء . ووجدنا قليلا من الظل تحت بعض الأشجار منها بعض أشجار السدر الشاهقة , هنا

أخلدنا للراحة . ويعرف أحمد الطريق جيدا , فقد قادنا إلى بحيرة عميقة تحجبها الصخور , حولها جدران مستقيمة مليئة بماء بني اللون . ورغم أننا لن نجرؤ على الشرب منها فإننا نستطيع على الأقل أن نستحم فيها . واعترض دليلنا على الفكرة , فهو يعتقد أن في الماء ثعابين ضخمة . ولم نر زواحف خطيرة ولم نصدق بالرواية , لكن أردنا إظهار احترامنا للرعب من الخرافات التي صورها لنا البدو في هذه البقعة الجميلة من الطبيعة , لذلك تركنا فكرة السباحة .
يرتفع جرف الصخر عاليا قريبا من هذا المكان حتى يصبح الوادي هوة عميقة وهي ظاهرة لم نشاهدها من قبل . و لابد أن منازل قوم عاد كانت هناك في المكان الذي يبدأ فيه الجزء العمودي . وبعد أن تسلقنا قليلا فوق الجدار خرائب الصخر في القاع وصلنا إلى دار عاد ومنطقة عاد . وبعد أن تسلقنا إلى قاع الحائط الصخري المعلق جزئيا , شاهدنا بقايا منازل في غاية البساطة طولها عشرة أقدام وعرضها ستة أقدام . والثقوب في الجدار الصخري مقفولة في بعض الأماكن بالحجارة وتظل مفتوحة في أماكن أخرى , وتمتد عميقا في الجدار , لكن بعد تفحصها لم يظهر فيها ما يثير , ويصل ارتفاعها إلى قدم . شاهدنا أيضا صفا من الثقوب في المكان الذي به أعمدة في السقف وفي أعلى حائط الصخرة رسومات بلون أحمر منتشرة في عدة أماكن , ويبدو لها شكل الحروف الأبجدية , وأمكن التعرف على بعضها باعتبارها حروفا سبئية فهي في حالة حفظ هنا في مكان لا تصلها الشمس أو المطر .
قام البرفسور " موردمان " من برلين بفك رموز الصور التي أخذناها ووجدها كلها نقوش لأسماء أعلام .
يمكن التعرف على المنازل من مسافة ٤٥٠ قدما تقريبا . والمنازل قائمة مشيدة من حجارة طبيعية ملتصقة مع بعضها بالطين , ولا يبدو عليها أنها قديمة جدا . لعلها شيدت في وقت متأخر بعد النقوش .

تقع دار عاد تقاطع وادي منوة مع وادي ثقب وواصلنا تسلقنا على الجدار الصخري لوادي ثقب حتى منتصف النهار حيث المكان الذي تتوقف فيه قافلتنا عند مربعة " باخميس " ووصلنا بعد ساعة من انتصاف النهار .

٨) الاقتراب من وادي دوعن :

بدأنا نلاحظ أننا نقترب من العقبة الكبرى التي تقود إلى وادي دوعن , عبرت علينا قافلة طويلة محملة بالأرز قادمة من المكلا . وواصلنا مسيرنا في الساعة الثالثة والنصف , واخترقنا هضبة عالية جافة , تلاشى الأفق البعيد في ضباب أزرق , وتبدت الخطوط العامة لهضاب الجبال المنخفضة الممتدة في الأفق , أرضنا في غاية الرتابة بلا ألوان أم معالم . وسوف نفترق عنها غدا عندما نبدأ الهبوط إلى وادي دوعن , فهذه آخر ليلة لمعسكرنا المتجول مع أصدقائنا السيبانيين .
عسكرنا عند " حمحار " على حافة الهضبة , حيث وجدنا مأوى من الرياح . وفي أحد الأيام اشترى رفاقنا غنمة بعد مساومة مع صاحبها . وأدى توقع الوليمة إلى اضطراب ذهني لدى البدو جعلهم ينزلون حمولة الجمال على مسافة بعيدة منا . وتنبهنا إلى هذا الأمر بعد وقت متأخر , فأبدينا إصرار شديدا على إعادة تحميل الجمال , لكننا اقتنعنا في النهاية بقبول وعدهم بأنهم سيحملون أمتعتنا التي نحتاجها إلى حيث نعسكر . وجعلونا ننتظر : فذبحت الشاة وأعدت للطهي وخرجوا جميعهم يبحثون عن الحطب , وبدا لنا أنهم لن يهتموا بنا بعد ذلك , وحتى نتجنب هذا الإهمال قام صالح والجنود بنقل كل طعام البدو إلى مكان إقامتنا . وانتظرنا في ترقب لنرى ماذا سيحدث . عاد السيبانيون من كل اتجاه وألقوا

بالحطب في كومة كبيرة وأشعلوا فيه النار تحت الحجارة التي سيشوى عليها اللحم بعد قليل . وعندما أرادوا إعداد العجين للخبز اكتشفوا أن كل الطعام اختفى . فتوقف المرح فجأة , وبعد لحظة من الدهشة انفجر التذمر صاخبا . واقترب منا (موتور) مع رفيقين مطالبين بإعادة المواد الغذائية . تحدوا أولا مع جنودنا ومع صالح الذي أمطرهم بسيل من التوبيخ , لكنهم يخشون كلهم أن ينقلب غضب البدو عليهم . ثم عاد الرسل الثلاثة إلى رفاقهم , ويبدو أن (موتور) دافع عن موقفنا فقد واجه هجوما من كل الجهات . وبعد لحظة عاد بصحبة (الحاج) واتجهوا رأسا إلي وألقوا بنادقهم عند قدمي وهم لقد سلمنا لك أنزل عقوبتك علينا ثم انسحبوا وجلسوا ينتظرون . وتركتهم في حالة الانتظار لحظة , ثم تحدثت إلى (موتور) مكررا إشارتي إلى نواقصه . وارتاح الطرفان عندما استعاد القادة بنادقهم مرة أخرى , وتحقق السلام . واستعيدت أكياس الأرز والتمر وأمكن للوليمة أن تبدأ .

بعد قضاء الليل في " حمحار " تبع ذلك رحلة لساعات فوق الهضاب فوقها حصى منثور بألوان بنية ومصفرة . يمكننا أن نرى كل ما حولنا لمسافة تمتد لمسيرة عدة أيام , حقول من الصخور البنية تمتد بلا نهاية ويكاد الأفق كون مسطحا . ولم نر بعد أي شيء من وادي دوعن العظيم , ولم نفهم شيئا , لكننا تقدمنا عبر الممر الضيق الذي يتلوى عبر الأرض الصخرية الممتدة . وواصلت القافلة مسيرها يخيم عليها صمت ثقيل . وحوالي الثانية عشرة ظهرا وصلنا العقبة التي طال انتظارنا لها والتي تقود إلى وادي دوعن .

الفصل الرابع
وادي دوعن

١) الهبوط إلى الوادي :

لا يظهر وادي دوعن الخلاب بانحداره الشديد إلا عندما يصبح قريبا جدا , لأن المساطب الأرضية تستمر دون تغيير على الجانب الآخر . ويبلغ عمق المنخفض إلى القاع ٩٠٠ قدما حيث ينحصر الوادي بين بقايا الصخور المتحطمة . اقتربنا من صخرة صغيرة في الجدار تمكنت الجمال من العبور خلالها . سار السيد علوي في المقدمة دون توقف مع طلائع القافلة , فهو يتطلع شوقا بعد الرحلة المضنية إلى حياة المدينة مرة أخرى .

بقينا فوق القمة لفترة لقياس الانحدار وأخذ الصور الفوتوغرافية . توجد عند بداية الهبوط في الطريق الصخري قلعة حصينة من الصخور الصم . (تسمى هنا : كوت جمعها أكوات وهي كلمة من أصل فارسي) . ثم شاهدنا قرية أخرى شبيهة بها في الجانب الآخر . هناك العديد من النقاط العسكرية التي تسهر على سلامة الوادي الغني الذي يقبع في الأسفل . اقتربنا بحذر نحو حافة الهضبة المتداعية , وعندما حدقنا إلى أسفل امتلأنا رعبا . وشاهدنا حولنا حقولا لا متناهية من الصخور الرمادية البنية , التي لا نبات فيها لا رائحة لها . وفي واجهتنا مباشرة , وتحت أرجلنا تماما جدران من الصخر الأصفر وبعيدا في أسفل الوادي , حيث لا ترى أي حياة ولا حركة يقبع الشريط الرمادي الأخضر اللامع لبساتين النخيل ساكنا بين المربعات الصغيرة من أحواض مزارع الذرة

والذرة الشامية و الألفا ألفا باصفرارها وخضرتها البهيجة . ويتلوى خلالها وشاح جليدي مبيض , وهو مجرى السيل الرملي , وتنتصب قريبا من واجهة منحدرات الحطام الصخري قرى صغيرة , ليست أكثر من مجموعة السيل الرملي , وتنتصب قريبا من واجهة منحدارت الحطام الصخري قرى صغيرة , ليست أكثر من مجموعة منازل عالية مبنية من الطين لها نفس لون الأرض التي نقف عليها . لا يصلنا أي صوت من تحت و لا نلمح أي أثر لحياة .

يقع وادي دوعن بين ضفتي صخوره العالية منغلقا في أمان عن العالم , مثل قطعة غير حقيقية من جنان منسية تنتظر يوم البعث . هذه هي جائزة المسافرين المرهقين من السفر في الصحراء غمرتنا الفرحة , ووقفنا على حافة " أرضنا الموعودة " يغمرنا الإعجاب وما تجرأنا ولا كان باستطاعتنا أن نتخيلها بهذا الجمال . هذه ليست بعد حضرموت الداخل وإن كانت في الحقيقة بوابتها الخارجية , وقفنا على شفا الهاوية , وبدأنا ندير آلات التصوير في صمت . وبالرغم من الحرارة فلم نستطع أن ننتزع أنفسنا من السحر الذي خلبنا به هذا الوادي الزاخر بالخصوبة والجمال , وسط صحراء قاحلة لا متناهية من الصخر والحجارة .

وصلت في هذه الأثناء الجمال إلى العقبة وأنزلت منها الحمولة فلا بد أن ترتاح الحيوانات تماما قبل أن تخاطر بها في عملية الهبوط الشاقة . وعندما نظرنا من أعلى العقبة بدأ لنا من المستحيل على الحيوانات بأقدامها التي تناسب السير في السهول , أن تهبط الهضبة , خصوصا إذا كانت . لكن بدو سيبان يعرفون مساطب الأرض المرتفعة والعقبة وطاقت جمالهم . وليس من المألوف أن تصاب الجمال بحادثة في العقبة .

قسمت الجمال الآن إلى مجموعات من ثلاث أمام كل مجموعة بدوي .

يبدو أن الجمال كانت ترك ما ينتظرها , لأن الأصوات الحزينة من حناجرها استمرت دون توقف واحتاج إرغامها على الحركة إلى كثير من الصياح والتوبيخ من أصحابها البدو . يعبر فوق هذه العقبة جزء كبير من الحركة بين المكلا وحضرموت . وهناك طرق أخرى وطريق آخر مباشر من شبام , لكن من السهل أن تلاحظ في هذا الطريق خف آلاف الجمال حتى أصبح الصخر لامعا .
وعندما يصبح الممر شديد الانحدار وتتردد الجمال في سيرها يخاطبها صاحبها بكلمات تشجيع , فتبدأ تنساب أصوات أهازيجهم وصرخات تحذيرهم و تهليلهم , يتردد صداها في جنبات الحائط الصخري . فتبدأ تتحرك ببطء وحذر , وتصل كل القافلة إلى بطن الوادي دون حادث مؤسف .
كانت طلائع القافلة قد وصلت مع الحمير منذ فترة طويلة . ووقف جمهرة من الصبية ينتظروننا , كما وقفت مجموعة من النساء في الخلف في ظل أشجار النخل لا يردن أن تفوتهن الفرصة لرؤية النصارى . وأرسل الحاكم باصرة بعض الجنود ليقودونا إلى قلعته . كانوا يبدون كأهل اليمن الشمالي وبالفعل جاء بعضهم من المرتفعات الغربية , تقع القرى والمدن قريبة من سفح الجبال بالقرب من المزارع . المنازل عالية جيدة البناء , تقوم في الغالب على منحدر حاد . واستطاع قلة من الأغنياء طلاء الطابق العلوي من منازلهم بالجير الأبيض . أخذ الطريق يتلوى عر بساتين النخيل إلى (المصنعة) , وهي حصن الدولة . وأشجار النخيل قوية ورائعة . تتدلى منها عناقيد ثمارها الصفراء والحمراء . ويحيط بكل شجرة حائط من الطين حتى إذا جاء السيل لا يجرف جذورها ويبقى جزء كبير من الماء داخل تلك الحواجز . وتغوص أقدامنا حتى في الحقول الظليلة في طبقة كثيفة من الغبار الناعم مثل الدقيق , ذلك لأن السيل لم يأتهم منذ فترة طويلة .

٢) باصرة حاكم وادي دوعن :

يمضي بنا الطريق صعودا عبر قرية المنعة إلى الحصن , الذي يقف فوق صخرة عالي تعلو كل المنازل الأخرى . يبدو الحصن مثل قلاع العصور الوسطى العاتية عليه أبراج في أركانه , وبوابات ضخمة , واسطبلات , ومساكن للجنود , و قاعات وغرف . والبوابات المتينة منحوتة نحتا رائعا ومزينة بلوحات معدنية ورؤوس مسامير . فتح لنا جنود الحراسة البوابة الأولى . فعبرنا ممرا إلى البوابة ألثانية , ثم عبرنا اسطبلا به بعض العجول , إلى البوابة الثالثة. ثم قادونا عبر صالة تزخر بالجنود , إلى صالة أضيق هي في الواقع ممر , تنفتح على شرفات السطح حيث يشعر الإنسان بالنسيم حتى في ذلك الوقت من اليوم . هنا يجلس باصرة المسن الضرير محاطا بمستشاريه وبزعماء قبائل البدو الحليفة . نهض باصرة بمشقة متلمسا طريقه ليحيينا . قامته فارهة ولحيته طويلة بيضاء , وما زال ذهنه يقضا وصوته واضحا . كنا في غاية الارهاق وحرارة جسمنا ساخنة , لذلك استمتعنا شاكرين بفناجين القهوة القوية وأقداح الشاي الساخن المتلاحقة التي تبعت القهوة . وسألنا العبد الذي يعد الشاي في " السماور " إذا كنا نريد شاي سيلان أو جاوا . وكسرت قطع من سكر القمع (أو سكر الرأس) ورموا بها في أكواب الزجاج . ثم قدمنا لنا بعد ذلك التمر والأناناس المعلب . خيرنا باصرة بين السكن في القلعة أو في منزل في المدينة , فاخترنا منزل المدينة , وذهبنا إلى هناك مصحوبين بموكب من الجنود وحفيد الحاكم ولفيف من ذريته .

يتكون المنزل من خمسة طوابق ويقف على حافة قرية (عورة) , وكنا نشاهد من فوق سطحه أشجار النخيل المحملة بالثمار . أما الأجنحة التي سكنا فيها فكانت غير مأهولة ونظيفة , أمر باصرة بفرش سجاد في الغرفة التي شاركنا فيها السيد علوي

. وصحبنا موكب التابعين إلى أعلى وظلوا يراقبون وينظرون إلى الأشياء المدهشة التي كانت تخرج من حقائبنا . طرح علينا أحفاد الحاكم بهندامهم الحسن العديد من الأسئلة وحكوا لنا الكثير ويبدو عليهم الرضاء وهم يتكدسون في الغرفة المكتظة الساخنة . تخلصنا من ذلك الجمع بعد مشقة . وساعدنا الأولاد في ذلك . لكن بعد ذلك لم تبد لديهم الرغبة في مبارحتنا . ثم تسللوا في النهاية على وعد بأنهم سيعودون بعد بضع ساعات .

بعد مضي ساعة عاد ثلاثة من الصبية وسمحنا لهم بالدخول . قالوا بلهفة إن لديهم رسالة عاجلة لنا حسب قولهم .فقالوا إن والدهم يمتلك أجمل منزل في كل وادي دوعن , ولابد أن نراه دون تأخير , وذكروا أنهم ولدوا في أدس أبابا من أم اثيوبية . حيث كان عمل والدهم هناك في تجارة الجلود التي جمع منها ثروة بنى بها هذا المنزل . لم يبرحنا الصبية إلا بعد أن وعدناهم بالحضور في الغد .

٣) أيامنا في وادي دوعن :

يقال إن الليالي في وادي دوعن باردة . إن ٣٤ درجة مئوية ليست بكل تأكيد ما يعد باردا , على أن الطقس جاف ويمكننا أن ننام فوق السطوح لكن الناموسية ضرورية . فالمراحيض والحمامات في المنزل مكان توالد الحشرات . يتواجد الذباب أثناء النهار أكثر ما نحتمل .

في صباح اليوم التالي , السادس عشر من يوليو , أرسل لنا بارة فطورا عربيا أصيلا : كمية وافرة من التمر في سلة , علبة مليئة بالعسل بقرصها وهو العسل الشهير في هذه البلاد وأحد بضائعها القليلة التي تصدر , معه أناناس من إنتاج مصنع صيني لحفظ الفاكهة في سنغافورة , وكمية من الخبز الحضرمي في سلة , عبارة عن فطائر من الدقيق خبزت لتوها وما

زالت ساخنة . هذا الخبز بلا ملح وقيل نوعا ما ولكن مذاقه طيب , أما عندما يبرد يصبح قويا مثل الجلد . وطعمه أفضل وهضمه أيسر من الخبز الذي يصنعه البدو ويخبزونه في الرماد . هذا الأخير في حجم راحة يد الرجل (أي سمكه حوالي بوصة) وهو غالبا محروق من الخارج وغير ناضج من الداخل , ولونه إما أصفر أو أحمر حسب نوع الذرة أو الدخن الذي صنع منه . ثم ذهبنا سويا إلى المصنعة لنناقش الترتيبات لرحلتنا القادمة , ونجمع خلال نقاشنا عن هذا الإقليم . أما رفاقنا السيبانيون فسوف يبقون هنا مع جمالهم وحميرهم , لأننا نحتاج الآن إلى جمال معتادة على السفر عبر الوادي العريض المسطح .

قمنا بتصوير الحاكم المسن مع مجموعة كبيرة من عائلتنا في الشرفة القريبة من المجلس . ثم بدأ حوار طويل , وكانت أسئلتنا التي لا تنتهي تقابل بإجابات صبورة . أخبرنا باصرة أن وادي دوعن وفروعه وادي ليس تحت سلطته . ويبلغ سكان القرى الخمسين ٢٠ ألف نسمة .

توجد فقط مدرستان , أسس كليهما ويصرف عليهما السيد الرائع من تريم أبو بكر بن شيخ الكاف . إن قيام هذا الشخص القيادي من منطقة الكثيري بتأسيس ودعم معظم المدارس في منطقة القعيطي , أمر غير عادي , ويعود الفضل لكثير من المدارس في المكلا و الشحر إلى كرم الكاف . يوجد في خريبة , وهي العاصمة القديمة لوادي دوعن مدرسة بها بين ٧٠ إلى ٨٠ تلميذا , ومدرسة أخرى في قيدون بها بين عشرين إلى خمسين تلميذا .

يوجد في محافظة باصرة حوالي ٢٠٠ مسجدا بينها مساجد رائعة , أقامها في الغالب السادة الأثرياء أموالهم دائما من المهجر . كل مقاطعة في حضرموت لها بلدان معينة يهاجر إليها سكانها في مجموعات ويكونون ثرواتهم فيها . فيذهب أهل دوعن إلى الحبشة ومدن ساحل البحر الأحمر وساحل أفريقيا

الشرقي . ولم يذهب منهم إلى جاوا سوى مائة , بينما ذهب إليها من وادي ليسر حوالي ٥٠٠ رجلا .
ينضوي تحت سلطة باصرة ١٥٠٠ بدوي من بينهم كل قبيلة سيبان من إقليم القبلة (أي من الشمال) وعثمان بن محمد العمودي حاكم " ريدة الدين " وزعيم قبيلتها متحالف مع باصرة وموجود معه الآن . يقال قبيلة العمودي هذه متوحشة وبدائية , لكن يعطي زعيمهم انطباعا متجانسا . وما كنا ندري وقتها أننا سوف نعبر منطقة في رحلة عودتنا , و إلا كنا اغتنمنا الفرصة وقمنا ببعض الإجراءات مقدما . يدعى العمودي أنه يحكم ٢٥٠٠ بدويا , كما أكد أن الذين يخوضون له لن ينالهم أذى من أي إنسان إلا ما يأتي من اللّه .
يبدو أن بساتين النخيل المتصلة في وادي دوعن تنتج فقط ما يكفي للاستهلاك المنزلي ولاستعمال البدو المجاورين . فلا يوجد تصدير للتمر . ترسل سنويا إلى الساحل ما بين ٤٠٠ إلى ٥٠٠ حمولة جمل من العسل . على أن تجارة الواردة منتعشة في الأرز والسكر والدقيق و الجاز واللبن و التمباك والأقمشة الخ . فالميزان التجاري ليس في صالح وادي دوعن . لكن يمكن الموازنة بالأموال من المهجر التي يرسل أغلبها إلى هنا .
وقضينا الصباح في التجول بين بساتين النخيل والقرى الصغيرة الواقعة بالقرب منها في واجهة سفح الجبل الذي تشع منه الشمس . عندما عبرنا " القرين " اندفع نحونا أبناء السيد محمد بن عبداللّه بن طه البار وهو المنصب . وقادونا في زهو إلى منزل والدهم . يستحق المنزل بحق مشقة الزيارة , فرغم حداثته إلا أنه حافظ على النمط القديم . كل النقوش الخشبية على الأبواب والنوافذ والزخرفة فوق الألواح الحديدية المطلية بالقصدير ورؤوس المسامير حضرمية أصلية . والمنزل مبني من الطين فوق جلاميد من الصخر .
والطوابق المأهولة مطلية بالجير الأبيض وكذلك السياج الصخري والسطوح أركانها المزخرفة . يوجد دائما بجانب منازل

الأثرياء مسجد بمئذنة , مطلي باللون الأبيض الخلاب , وهناك ممرات تصل المنزل بالجانب الأرضي و كذلك بسطح المسجد . تقام صلاة المغرب والعشاء في فصل الصيف فوق السطح , هنا يجلس العالم في الأمسيات ويقوم بتحفيظ القرآن للصبية الذين يتحلقون حوله . والسيد الذي جمع ثروة في المهجر يقوم أولا ببناء المسجد ثم بعد ذلك المنزل . أليس هو مدين لوضعه المتميز في بلاده للإسلام , ولعون اللّه للثروة التي نجح في جمعها في المهجر والنتيجة هي هذه المساجد الفارهة في بلاد حضرموت الفقيرة .

الممرات والسلم في منزل السيد البار مثل المنازل الأخرى , مغطاة بطين بلون بني خفيف ممزوج مع تبن بديع . والأرضية دائما مزينة بخطوط متموجة حفرت في الطين قبل أن يجف . وفي الغرف الكبيرة توجد أعمدة خشبية حيث لا توجد قوائم في السقف , وهي دائما مصنوعة من جذوع النخيل . والألياف الخارجية لجذع الشجرة مكسوة بالطين أو مغطاة بفروع النخيل . والألوان المفضلة هي الأحمر الغامق والأسود والأبيض , وهي التي يطلق بها السقف .

يدخل الإنسان المجلس أو غرفة الاستقبال عادة عبر باب يقع وسط أقصر الجدران

وتجد على جانبي الباب صناديق خشبية , تحفظ فيها مراتب النوم والمخدات أثناء اليوم , هذه الصناديق الثقيلة مزخرفة بشكل بديع بحديد مطلي بالقصدير , وهي في الغالب الزينة الوحيدة في الغرفة . فتحات الشبابيك صغيرة منخفضة الارتفاع و مزالج الخشب والبراويز في منازل الأغنياء منحوتة . والأرضية مغطاة بحصير بسيط مصنوع من أغصان النخيل , يفرش فوقها الأغنياء السجاد . وتوضع مساند على الجدران للاتكاء عليها . ووضعت في منزل البار مرايا في السقف وهو تقليد حديث وقبيح . كما أن الألوان الحضرمية الأحمر الداكن والأسود والأبيض التي تنسجم مع الخشب البني اللون والطين

بلونه البني الفاتح , قد أضيفت إليها بعض الألوان الجديدة القبيحة .
أخذنا المزيد من الصور للصبية والأطفال حتى ندخل البهجة على الأسرة . كان معنا في المجلس رفيق الخدمة وأطفالهم بألوانهم السوداء الفاحمة , يقدمون القهوة والشاي والحلوى الوافرة وتجاذبون معنا الحديث , لكنهم يقفون في الخلف في تواضع شديد .
شاهدنا عدة أشكال من الزنوج في الطرقات والمزارع , مما يدل على وجود أعداد كبيرة منهم في وادي دوعن . ويعملون في الزراعة والخدمة المنزلية .
بذلنا ما في وسعنا لمعالجة عدد من المرضى الذين توافدوا علينا بعد الظهر طلبنا للدواء أو لتنظيف جروحهم وقروحهم . لم نستطع أن نقدم إلا القليل , وعلى أي حال ما هي الفائدة من العلاج مرة واحدة . يوجد في كل حضرموت وما حولها طبيب واحد حصل على تدريب غربي , ويعود الفضل هنا أيضا إلى السيد أبو بكر الكاف الرجل المستنير الذي استقدم هذا الطبيب الشاب الهندي , لكن مركز عمله في مدينة تريم البعيدة , ويذهب الأغنياء احيانا إلى عدن لاستشارة الطبيب , كما ان البعثة الطبيبة في الشيخ عثمان بالقرب من عدن معروفة للقلة .
ذهبت مع السيد علوي قرب المغيب إلى قارة " المحضار " الذي نحمل له رسالة من الوزير في المكلا . استقبلنا استقبالا وديا للغاية . فقد شاهد السيد المسن بعض أنحاء العالم , ويرى الحياة في حضرموت موات . كنت مدفوعا للحديث باستمرار , ثم أصبح الجو وديا حتى أخذني إلى منزله الآخر الكبير وتجول بي في كل أنحائه , بعد أن تأكد أولا أن كل زوجاته الصغيرات قد أغلق عليهن الأبواب ووضع المفاتيح في حزامه . وانتقمت الزوجات بأن قمن بالتمعن في الأجنبي من فوق السطوح . يبدو من مطبخ المنزل الواسع بجدرانه العالية أنه مزدحم بالسكان. تناولنا

العشاء في شرفة السطوح , بعد أن عاد السيد وحاشية من صلاة العشاء في المسجد المجاور للمنزل . واستدعى المحضار ابن أخيه الوزير وكنا نحمل له أيضا رسالة من والده في المكلا , وبعد أن قرأها دعانا أن نكون ضيوفه في اليوم التالي . قبلنا الدعوة للإفطار لأننا سنتحرك إلى نقطة توقفنا التالية في " صيف " .

بينما كنت أقوم بهذه الزيارات , قام فون فيسمان برحلة قصيرة إلى الخريبة حيث تسلق العقبة المواجهة للمكان الذي نزلنا منه .

الخريبة مدينة صغيرة , بها شارع تجاري واحد وأربعة شوارع أخرى كبيرة وعشرين مسجدا صغيرا . هي أكبر وربما أقدم مدينة في وادي دوعن . ويرى بعض الجغرافيين أن اسم خريبة الذي يعني أنقاضا , هو الموقع الأصلي لمدينة دوعن التي ربما جاء اسم الوادي منها . ويتحدث " بليني " عن " توأني " التي اتخذ منها الأباضية الهراطقة مركزا لهم , ومن المؤكد أن المدنية قد دمرت عندما أبيدوا .

يقود طريق العقبة إلى وادي عمد . ويحرس هذا المدخل إلى وادي دوعن قلعتان محنتان . يتولى حراستهما دائما جنود من يافع لأن الوادي في هذه النقطة يقع في حدود الأرض التي تقع خارج ممتلكات القعيطي .

بدأنا يوم السابع عشر من مايو مبكرا . فودعنا رفاقنا من بدو سيبان و(موتور) الذي يحمل معه حقيبة من الرسائل إلى المكلا . كان لابد من إعداد الحقائب ووضعها على الجمال لتسير قبلنا إلى صيف بعد ذلك ودعنا باصرة وأبناءه وأحفاه في المصنعة تحركنا بالحمير عبر مزارع النخيل البديعة إلى " هويبية " على بعد ثلاثة أرباع الساعة حيث يملك فيها الوزير في المكلا مزارعا ديرها الآن ابنه سالم

سافرنا معظم الطريق فوق الحواجز الطينية التي تقع بجانب قنوات الري وتخرق مزارع النخيل العديد من قنوات الري العميقة التي توزع ماء السيل على الأرض المزروعة , ورغم أن سدود هذه

القنوات ضيقة إلا أنها عالية حتى تحمي المزارع أن جرفها اندفاع ماء السيل الشديد . وفي مجرى السيل الأساسي سدود هنا وهناك بين خزانات من أكوام من جلاميد الصخر .
يمتلك الوزير بالقرب من الوادي المخضر منزلا بديعا . بقربه مسجدا لونه أصفر شاحب ومئذنة هي قطعة جميلة من الفن المعماري الحضرمي .
استقبلنا فور وصولنا السيد مصطفى رغم كبر سنة , ومعه حضرمي آخر حقق ثراء ملحوظا في جدة . ودار الحديث حول الحرب العالمية والنتائج التي ترتب عليها . يشعر المرء كما هي الحال دائما , أنهم يتلمسون نقاط الضعف في الغرب , باحثين عن البذرة الدنيوية والروحية التي يمكن أن تدمر القوة التي تسيطر وتستعبد العالم والإسلام . اتضح جليا أن مستمعينا يعتمدون على استعادة ألمانيا لمكانتها بقوة والانتقام لنفسها من الهزيمة في حرب عالمية جديدة تضع حدا نهائيا للوضع المسيطر في كل الغرب . كانوا تلهفون لأخبار الحرب منطلقين مما يسمى التعاطف المجرد لألمانيا إن المعارضة المباشرة لمثل هذا التنبؤ بالمستقبل أمر صعب , وليس أقل صعوبة إبراز بعض الحجج المؤيدة للسلام للبشرية تتخطى الاختلافات الدينية , ويتم عرضها بالطريقة التي لا تنسى بها سريعا .
بعد أن تناولنا إفطار يتكون من الخبز الساخن والسمن مع العسل والبيض مع البصل والأناناس المعلب , استأنفنا الحوار مرة أخرى بحماسة متجددة . ولم يسمحوا لنا بالمغادرة فقد كان علينا أن نقبل أيضا دعوة لوجبة منتصف النهار . وقد لاحظ مضيفونا أننا مرهقون , فاقترحوا أن نستلقي وننال قسطا من النوم . علينا أن نرتاح قليلا بعد وجبة منتصف الظهيرة ثم نغادر ونحن على صفاء , بالرغم من الخلافات العميقة التي برزت بشكل ساطع في نظرتنا للحياة وتوقعاتنا للمستقبل .

الفصل الخامس
عبر وادي حضرموت الداخل

استقبال جاف في " صيف " :

الطقس حار . تبلغ درجة الحرارة ٣٩,٥ درجة مئوية تحت أشجار النخيل في الطريق الذي سرنا فيه لساعات . كان اتجاهنا نحو " صيف " متنقلين بين السد وقناة الري الجافة . بدأ النبات ينمو أخيرا شيئا فشيئا وازداد كذلك عدد القرى على منحدرات أنقاض الصخر .
أصبحنا نرى بمرور الوقت أشجار النبق بكثرة بدلا من أشجار النخيل . كانت أغصانها الشائكة تجمع في حزم كبيرة وتوضع حول سيقان النخيل تحت عناقيد التمر لتمنع الوصول إلى الثمار . ويغطي الثمر بسلال من أغصان النخيل تربط حول العناقيد لحمايتها من الطيور والحيوانات الأخرى . قابلتنا في طريقنا الحمير المحملة بتلك السلال , وقابلنا كذلك رجال وصبية يجرون أغصان النبق . تجد أشجار النخيل عناية فائقة . فتنظف سيقان الأشجار حتى تبقى عناقيد التمر تتدلى مباشرة تحت الأغصان . وموسم جني التمر مناسبة سعيدة في الوادي . يتوافد المحظوظون الذين يمتلكون أشجار نخيل من الجول وجنبات الوادي . ويعود الذين في المهجر إلى الوطن الأم وقت الحصاد فترة تبجيل وتقليد أكثر من أهميته الاقتصادية . ولا يعتبر التمر بضاعة للتجارة , لكنه مهم كمصدر للغذاء لجمهرة الناس . ويعتبر العبيد والبدو أن تمر دوعن هو التمر الحقيقي , ويعتبرون التمر المستورد من البصرة درجة أقل . أما السادة الأشراف الذين أثروا في المهجر فلا يعطون التمر قيمة كبيرة كغذاء يومي . إنهم يحافظون على بساتين النخيل ليجدوا فيها مقصورة في

الصيف وحماما للسباحة , ويستمتعوا بالظل وشقشقة العصافير , وأنين أصوات السواقي التي ترفع الماء من الآبار إلى السطح , وقوم عمال وموظفو المنزل والعبيد وزوجاتهم وأطفالهم بالعمل في بساتين النخيل التي يحصلون منها على معيشتهم الأساسية . إن بساتين النخيل التي يمتلكها الأغنياء في هذه البلاد ما عادت مصدر دخل تحت الظروف الحالية .

أما الحقول التي تعتمد على السيل فإنها تمتد إلى ما بعد بساتين النخل . وتحرث جيدا وتظل تنتظر هطول الأمطار . وأحيانا يأتي سيل واحد في العام , يكون وفيرا بحيث تكفي مياهه لموسم حصاد تمر ناجح . وفي الساحات الخالية بين النخيل تزرع الذرة في الصيف والقمح في الشتاء . وتأتي معظم السيول في الخريف .

وجدنا من حسن طالعنا العديد من السقايات في الطريق إلى " صيف " صحيح ليس الماء دائما صافيا وخاليا من الروائح , لكننا عانينا كثيرا من الظمأ فلم نلتفت إلى هذا الأمر .

قبل أن نصل إلى " صيف " بمسافة طويلة , وأصبح بطن الوادي الشاسع مقفرا , وأخذ ممرنا الضيق يتعرج فوق الحجارة الجرداء .

شاهدنا " صيف " قرب المغيب ترقد فوق منحدر حطام الصخر العريض حيث يصبح الوادي شاسعا جدا وتكسر الشاطئ الصخري وتراجع , ضرب الفقر المدينة الصغيرة المحاطة بالسور , ذات المنازل القصيرة , ويبدو أن حالة عدد قليل من سكانها قد سمحت لهم بطلاء الطوابق المأهولة بالجير الأبيض وببناء داريزين فوق شرفات السطح . اقتربنا من المكان الصغير الخامل ونحن نتعثر فوق الصخور . لقد أفسدتنا معاملة الأيام الماضية حيث كان رجال السلطة والأعيان يستقبلوننا باعتبارنا ضيوفا لهم مكانة مرموقة . على أي حال ما زلنا هنا تحت النظام القعيطي , وزودنا الشيخ الجليل باصرة برسالة إلى حاكم صيف , وقد حذرتنا عائلة المحضار من حاكم " صيف " فهو رجل

فقير وضليع في علوم الدين التقليدية , لكنه جاهل وليست لـه كفاءة في مسائل الإدارة الدنيوية . والسكان متعصبون وفقراء . لكننا كنا نأمل فقط أن يمنحنا الحاكم شرفة السطح لقضاء الليل , وليس أكثر من ذلك , لأننا نرغب أن نبدأ رحلتنا صباحا في اليوم التالي .
بدت " صيف " جافية , خالية من النبات والألوان , والسكان يحدقون بطريقة عدائية إلى مجموعتنا الصغيرة , وهي تخترق الشوارع الضيقة المتسخة . ثم قادنا الحراس إلى اسطبل ضق , اجتزنا الساحة الداخلية التي تقف فيها الأبقار , ث تسلقنا إلى السطح عبر سلالم ضيقة . وأحاطت بنا منازل طويلة كئيبة منعت عنا النسيم المنعش , وحجبت عنا أيضا النوافذ الصغيرة التي كانوا يتجسسون منها علينا . وتوافد إلى الإسطبل وإلى سطحنا كل من " توم " و " ديك " و " هاري " حتى أصبحنا بعد قليل وسط جمهور محتشد . كل الجنود من قبيلة يافع , واستقبلونا بحفاوة نيابة عن الحاكم الغائب , ورجونا أن نتقبل القليل الذي يمكن أن يقدموها لنا . بل أحضروا خروفا وجديا , وخيرونا أن نختار واحدا منهما للعشاء كان الجنود سعداء بهذا التغيير الذي طرأ على حياتهم الرتيبة . بل أظهروا غاية المودة مما جعلنا نقبل الأمر الذي لا مفر منه ونعد إقامتنا الليل فوق سطح الاسطبل . ولم نر أحدا من سكان المدينة , ويبدو أنهم لا يريدون التعامل مع النصارى . أما البدو في الشارع والصبية فقد أبدو اهتماما كبيرا . وبمساعدة الجنود وبلغة ركيكة استطعنا أن ننظف مكاننا في السطح ونضع فيه أسرتنا . واستدعوا مجموعة من السكان الذين يتحدثون لغة الملايو . وقد تخلصوا من تعب أهالي "صيف " من إقامتهم في جاوا وهم يعرفون ويقدرون حكومة هولندا , وهمسوا لنا بأن مكان إقامتنا غير مناسب , فالحكم فقير وليست له سلطة . وقد تغيب متعمدا ليتجنب مشقة استضافتنا .

قمنا بكتابة مذكراتنا وبعض الأعمال الضرورية الأخرى ونحن وسط كل أنواع الصخب والضجيج .وجلس الجنود من " صيف " مع أتباعنا إلى ما بعد منتصف الليل , وهم يستمتعون بأكل الشواء والأرز . ويتبادلون بأصواتهم النكراء كل أنواع الحكاوي والأخبار .

وصلت محاولات " فريدة " لاختراق حضرموت إلى مأساة عندما حل على " صيف " الكئيبة هذه . فكان سيء الحظ إذ وصل قبل يوم واحد من زيارة قبر الشيخ أحمد بن عيسى العمودي حيث اجتمع آلاف البدو ,وكانوا يعتبرونه إفرنجيا وجاسوسا للإنجليز في عدن , ونجا بأعجوبة من الموت , وعومل بقسوة , وانتزعت نقوده وممتلكاته , وأرغم على مغادرة " صيف " والعودة إلى الساحل .

ومر " هيرش " على " صيف " دون مشقة . أما " بينت " وزوجته فقد هدوا أهلها بنقود ملكة بريطانيا . ووصفوا أهالي " صيف " بأنهم مجموعة مريضة إلى حد بعيد ونظرتهم موبوءة , كانت فترة راحتنا في " صيف " قصيرة الأجل . فعند الرابعة جاء الحاكم , وهو أيضا المؤذن , ليوقظ السيد علوي للصلاة . وبدأنا نستفسر فورا عن الحيوانات التي سنركبها وعن الترحيل .وكانت الإجابة عبارة عن وعود براقة , لأنه بعد فترة طويلة من شروق الشمس لم تظهر أي حيوانات . وأصبح البقاء فوق السطح غر محتمل فليس فيه ظل يحمي من حرارة الشمس . وظللنا ننتظر لساعات عند حقائبنا . واعترانا اليأس . ماذا سنفعل هنا إذا لم نحصل فورا على الحيوانات والسروج ؟ لا يمكننا البقاء في هذه المدينة , وصبيانها في الشوارع بلا خلاق , وجنودها الكسالى يتحلقون حولنا , وعندما ظهر الحاكم مرة أخرى واجه عاصفة من التوبيخ . وأرسلنا الجنود أنفسهم لترتيب الأمور , وأخيرا نفضنا عن أرجلنا غبار " صيف " ونحن نتنفس الصعداء .

رافقنا جنديان إضافيان , بعد أن رفضنا بعناد اصطحاب أكثر منهما . وتدفع لهما الحكومة القعيطية مرتباتهما , وهما من

يافع . كانت " صيف " بالنسبة لهما غير صحية , إذ يبدو عليهما الفقر والشحوب . و مرتبهما لا يكفي لإعاشتهما جيدا . وطلب كلاهما أن يدخل في خدمتنا ويسافرا معنا إلى الخارج . وعمل أحدهما في الفيلق العربي مع نظام حيدر أباد ويتحدث الهندستانية .

٢) رحلة شاقة من صيف إلى الهجرين :

يصبح بطن الوادي بالقرب من صيف عريضا , والجبال على جانبيه ليست منحدرة مثل انحدار الجبال في وادي دوعن , لهذا بدأت منحدرات الصخور أكثر علوا وعرضا .
هناك بعض الأرض المزروعة , لكن النخيل اختفى ,وأخذ طريقنا يتعرج فوق مزارع تنتشر فوقها جلاميد صخر مستديرة تمتد حتى الطرف الآخر من الوادي . وعندما وصلنا ذلك الجزء منه أصبح السير أكثر سهولة حيث التربة أغلبها مزيج من طين ورمل . والممر مغطى بطبقة سميكة من الغبار الناعم مثل الدقيق , ارتاحت فوقه أقدامنا المجهدة , لكن ذرات الغبار المتصاعدة زادت من حدة الظمأ . وأخذنا نعد جبلا ونهبط واديا , وأنظارنا مركزة باحثة عن قبة السقايات , وهي من حسن الحظ ليست معدومة هنا . والنباتات قليلة , فقط بعض أشجار النبق المنتشرة فوق الوادي .وتبحث عن الراعيات بقطعانهن الصغيرة عن ظل تحت أغصانها يحميهن من حرارة الشمس . ويضربن أحيانا الأغصان بعيدان طويلة فتتساقط الأوراق وتقضمنها الأغنام بنهم .

بعد مسيرة ساعتين قابلنا اثنان من السادة في هندام حسن , هما مرسلان إلى السيد علوي العطاس رفيق رحلتنا . وأخبراه أن أقرباءه في وادي حضرموت قد سمعوا بقدومنا , لكنهم توقعوا أن نكون قد قطعنا شوطا أبعد في رحلتنا , كما أرسل لنا السيد أبو بكر بن شيخ الكاف في تريم سيارتين في طريقهما إلى حريضة وهي مدينة أسرة العطاس حيث توقعوا أن تكون هدفنا الأول . فواصلنا مسيرنا الآن بهمة جديدة .وعبرنا مرة أخرى إلى الجانب الأيسر من الوادي , وهو الجانب الذي تقع فيه ط صيف " وأصر الجنود اليافعيون على أن هذا الجانب غير آمن , وترجونا أن ننتظر وصول الجمال قبل أن نواصل . الطقس حار جدا تبلغ درجة الحرارة ٣٩ درجة في الظل , ولم تظهر بعد الجبال التي تقوم على سفحها الهجرين . واصلنا مسيرنا المجهد في صمت فوق الراسب الطفالي , وهو أعلى من ذلك الذي عبرناه من قبل ذلك لأن مياه الأمطار قد جرفت العديد من القنوات إليه . ظهر أخيرا جبل الهجرين بحافته الحادة المتميزة وقمته المسطحة , حيث ترقد عند سفحه بساتين النخيل وسط الغيم الملتمع . اندفعنا الآن بعزم جديد , بالرغم من الحرارة وحيواناتنا المجهدة . وعندما وصلنا إلى حافة الأرض المزروعة , اعتقدنا أننا وصلنا إلى نهاية رحلتنا , لكن ما زالت هناك مسافة علينا قطعها , كان السير في قناة الري الجافة مرهقا إلى حد بعيد .

عندما وصلنا أول المنازل طلبنا شرابا باردا . فقدموا لنا قدحا من الفخار , فشرب كل منا بكلتا يديه , ثم أخذ كل واحد يناوله للذي يليه , واستمتعنا بمائه في جرعات كبيرة شرهة . واستمر الطريق يسير لمسافة طويلة فوق السد , ثم عبرنا مرة أخرى قناة الري الجافة . ولم تستطع الحمير مواصلة السير أكثر من ذلك , فترجلنا منها . واقتاد أحد الجنود اليافعيين حماري من لجامه إلى المؤخرة , وعندما وصل إلى هناك حاول أن يمتطيه خلسة . لكننا لمحناه , فصحت فيه لينزل منه لأني نزلت منه لتوي رأفت به

فصاح إليه رفيقه اليافعي الذي كان يسير أمامي بألا يطيع أمري . فحت فيه غاضبا ليصمت , وقلت له لقد دفعت أجر الحمير وأنا المسؤول عنها . وعندما رد علي بصفاقة قائلا : " أمسك لسانك " ضربته بصندوق على أذنه . فالتفت نحوي غاضبا وهو يمسك بندقيته وقال : هل أسكت على ضربك لي ؟ فقلت له : سوف تطيع أمري فأنت تحت قيادتي . فتراجع عبدالله إلى المؤخرة وهو مقطب الجبين , بينما ركزنا أنظارنا جميعا على بندقيته . ولم يمض وقت طويل حتى جاء رفيقه يطلب الصفح عنه . وقال : " لا تغضب منه فهو متوتر قليلا " ومن يستطيع أن يظل غاضبا لفترة طويلة من هؤلاء الأغرار الشرسين البدائيين ؟ وعندما اقترب المساء وانتهت الحرارة , ولم يعد الظمأ والإرهاق يعذبنا , أعطينا الجنديين اليافعين مكافأتهما التي انتظراها بشغف , وافترقا من النصارى كأحسن ما يكون الأصدقاء .

عبرنا بالقرب من الهجرين على مسجد عند قبة أحد الأولياء , واحتمينا بالظل البارد في هذا المكان ,وهو محرم على الكفار . لكن سمح لنا أن نقف تحت ظله حتى نسترد أنفاسنا . كان بداخل المبنى زير ماء , ولكن لم يسمح لنا بالدخول , فذهب الجنود الذين صاحبونا من المكلا إلى الداخل وأحضروا لنا الماء . واحتمت بعض النسوة الفلاحات بذلك الظل . ولم يحجبن وجوههن بعباءاتهن الواسعة الخشنة الداكنة الزرقة . على أنهن ما إن شاهدن غرباء حتى سارعن بتغطية وجوههن . وكن يضعن فوق رؤسهن قبعات عريضة من السعف للوقاية من الشمس .

٣) استقبال لا ينسى في الهجرين :

يبدأ الطريق من هنا يصعد نحو سفح الجبل حيث تقع الهجرين . ويقود إلى بوابة هذه المدينة ممر بعيد , وكانت تتحكم في الماضي بحكم موقعها في الطريق الرئيسي من الساحل إلى حضرموت . الشوارع داخل المدينة أيضا شديدة الانحدار وتعطي المدينة انطباعا بالاضمحلال . وبها قليل من المنازل العالية أو الجميلة , واللون الأبيض الذي هو علامة الرخاء يكاد لا يوجد حتى في منزل واحد . يطغى على المدينة اللون الرمادي والبني مثل الجبال التي تقف أمامها .

توقفنا أمام منزل بطابقين يقع في شارع جانبي . يقال إن السيد محمد سالم بن عبد الرحمن الكاف , الذي نحمل له رسالة تعريف من مضيفنا في دوعن , يسكن هنا . وأخذوا منا الخطاب , وأغلق الباب مرة أخرى , وانتظرنا في الشارع . وعندما طال انتظارنا قلنا لأنفسنا بقلق لعل الإفرنج غير مرغوبين في هذا المنزل . ولم يكن الأمر كذلك , فقد كان هناك حفل زواج بالمنزل في ذلك الوقت , والمنزل . ولم يكن الأمر كذلك فقد كان هناك حفل زواج بالمنزل في ذلك الوقت , والمنزل مزدحم بالنساء فكان لا بد من إزاحتهن خلف الأبواب قبل أن يسمح لنا بالدخول . وبعد الانتهاء من هذه المرحلة , وأخذنا إلى شقة تدل معالمها على أنها كانت مكتظة فقد كانت دافئة ومتسخة . ورغم أننا زحمنا المكان إلا أن بعض الفضوليين أقحموا أنفسهم علينا . ويبدو أن صاحب المنزل وابنه الذي يسيل المخاط من أنفه قد ادخروا الماء لكل الأغراض إلا للاستحمام . ولكن نظرته الودودة واستقباله الحار سرعان ما جعل كل شيء طبيعيا .

لعله من المناسب أن تقدم بالعرفان لحفاوة العرب . فمن الغربيين كان سيخفى امتعاضه إذ توقف حفل زواجه بمجيء قافلة من الناس المرهقين الجوعى ؟ ومن منا كان سيفتح كل

داره فورا للمسافرين " أبناء الطريق " ويقوم بنفسه بإحضار الماء لإطفاء ظمئهم , و يع لهم في الحال الطعام الذي يقيم أودهم .
الحياة هنا ديمقراطية . ففي غرفة الاستقبال المحشوة بالناس , يجلس العبيد والخدم والاطفال وصاحب الدار معا ويشربون من نفس الإناء , ويعبون لأنفسهم القهوة في نفس فناجين الآخرين دون غسلها . وكرس مضيفنا نفسه لخدمتنا . وكان يتغيب دائما ليتأكد بنفسه أن التحضير للوجبة يتم دون إبطاء .
وكانت تصلنا من الغرفة المجاورة أصوات النساء اللاتي كن في حالة المرح . وبالرغم من الحر القائظ , فإن الأغاني المتكررة والتصفيق والرقص المتناغم مع الموسيقى الرتيبة كان يصلنا مصحوبا بحماسة شددة , ودعانا مضيفنا بإصرار شديد أن نقضي الليلة معه . لكن علوي العطاس كان تواقا إلى رؤية أسرته في موطنه , ولذلك قررنا أن نواصل السفر إلى " المشهد " بعد الظهر .
قام مضيفنا الحاذق في هذه الأثناء في هدوء بإعداد غرفة لنا في ركن قصي من المنزل الشاسع , كان يرى إرهاقنا , فهمس لنا أن نتبعه حتى نهرب من فضول الزوار الذين لا ينقطعون . فأهل المدينة هؤلاء الذين لايمكن أن نحمي أنفسنا منهم , لن يجرؤا على الدخول إلى هذه الغرفة الهادئة . واستقبلنا فوق السجاد على الأرض , وسوف يهتم بألا يزعجنا أحد مدة ساعة . ثم أحضروا لنا الطعام في هدوء , ولم نسيقض إلا عندما كان الأرز الأصفر ينتظرنا في الصحون المفطحة حول مائدة الطعام المستديرة على الأرض , وبجانبه اللحم والطبيخ . وأمام كل واحد منا قطعة مستديرة من الخبز . واعتذر مضيفنا من قلة الأكل المقدم لنا , و انهمرنا على الأكل منحن نردد بسم الله الرحمن الرحيم , إن عادة طبخ الأرز واللحم مع كمية كبيرة من البهارات التي لا يألفها الضيوف الأجانب فبعد أن هدأت صيحات الجوع الأولى , وجدنا مشقة في مواصلة الأكل .

اللغة المفضلة عند مضيفنا هي الملاوية , ويهوى الحديث عن " شيربون " التي تقع في شمال ساحل جاوا , حيث حققت أسرته نجاحا ملحوظا ويتمنى أن يعود بعد بضعة أشهر عندما ينتهي حاد التمر . ويمتلك والده عشرين منزلا هناك . وهو يعرف مائة وخمسين رجلا سافروا من الهجرين ليبحثوا عن حظهم في جاوا . يبلغ سكان المدينة الصغيرة الآن ٣٠٠٠ نسمة . واطلعت قبل مغادرتنا على الجواز الهندي لمضيفنا , وأقربائه , وكتبت عناوينهم ووعدت بأن أقابلهم فيما بعد في " شيرون " فهم يستحقون ولو اهتماما بسيطا من جانبنا , فقد كنا مشدوهين بالحفاوة البسيطة الصادقة التي لقيناها في هذا المنزل , خصوصا بعد تجربتنا المريرة في صيف .

عند رحيلنا سعى كل من يتحدث الملاوية من أهل الهجرين أن يتبادل بضع كلمات مع ممثل الحكومة الأبيض لموطنهم الثاني . وعند وداعنا لم تحط بنا وجوده تعلوها الكراهية , والاحتقار , ولا التعابير المسيئة للنصارى الذين يجب إلا يسمح لهم بتلويث الأرض , بل كان خروجنا عبارة عن موكب انتصارنا صغير , وتزاحم حولنا الصبية وهم يمتلئون حماسة , وكل واحد منهم يحاول إبراز معرفته بلغة الملايو .

٤) عبر الأرض المحايدة بين منطقتي القعيطي و الكثيري :

تفضل مرافقو العطاس بمصاحبتنا إلى " المشهد " أول مكان في ممتلكات الكثيري , لكنها كانت في الواقع تحت إشراف عائلة العطاس . وانقسمت قافلتنا , فذهب فون فيسمان مع اثنين من العلويين الشباب والجنود اليافعيين وأحد جنودنا العبيد , ورهط من البدو الذين كانوا في الطريق ليستقبلوا جبل الهجرين ويتأكدون بأنفسهم إذا كانت الأنقاض التي خبرونا عنها موجودة بالفعل , ولأخذ صور فوتغرافية والقيام بمسح المنطقة . تنتهي أرض القعيطي بعد الهجرين مباشرة . وفي الشمال في وسط حضرموت الداخل , ترقد مثل الجزر مقاطعات " حورة " والقطن شبام " وهي خاضعة للنظام القعيطي .

والمنطقة المحايدة التي ندخلها الآن , ومرتع خصب لقطاع الطرق واللصوص .
بعد أن هبطنا المنحدر الذي تقع فيه المدينة , دخلنا منطقة تربتها من الطفال الرملي ومحروثة بعناية . وتنهض جبال الطفال الرملي البنية , عارية تماما وسط بساتين النخيل الخضراء ومزارع الذرة . ويوجد نظام شاسع من قنوات الري بمجاريها الجانبية , تقوم بتوزيع ماء السيل على الأرض المزروعة التي تقع بين سفوح التلال . وكلما سرنا مبتعدين عن الهجرين ,كلما أخذ يزداد عدد حصون الدفاع وأبراج المراقبة فوق التلال بجانب البساتين , وأخذت أشجار النخيل تقل , كانت المزارع في البداية خضراء , لكن في النهاية فإن سياج الطفال الرملي فقط هو الذي يشير إلى أنه إذا توفر الماء والأمن . فيمكن أن يزرع الإنسان هنا مثل الأماكن الأخرى ,وتفصل المنطقة المحايدة بين ممتلكات القعيطي والكثيري مسيرة نصف ساعة . وجب من الآن فصاعدا أن تظل القافلة مع بعضها البعض . نظرا لخطورة قطاع الطريق . ما زال بطن الوادي شاسعا , لكنه أصبح موحشا وخال من النبات . والراسب الطفالي تغطي هنا وهناك بالرمل والحجارة . لابد أن مدينة كبيرة كانت قائمة هنا في الأزمان الغابرة , لأن الطريق إلى المشهد يمر عبر خرائب استحكامات . وبدأت الشمس تجنح نحو الغروب وعلينا أن نصل المشهد قبل حلول الظلام . وأعددنا الحمير للبحث عن الفرقة المجهدة التي تسلقت جبل الهجرين .

٥) المشهد محط الخرائب :

المشهد مدينة صغيرة منقرضة تقع وسط صحراء الوادي الجرداء . ومعنى اسم " المشهد " هو المكان الذي مات فيه شهيد .وهي سوق موسمية هامة ومكان للحج . فخلال أيام محددة في شهر محرم حددت لهذا الغرض , يمتلئ المكان بالبائعين والمشترين الذين يسكنون في المنازل والأكواخ المؤقتة , وأغلب المنازل الآن خالية .

لم يكن حاكم المشهد موجودا بالمدينة , فهو يفضل السكن في حريضة الكبيرة المزدهرة , حيث يمتلك هناك منزلا وأسرة وبساتين نخيل . وله أبناء شبان رائعين يقومون بتمثيل والدهم في واجبات الضيافة خير تمثيل . تمتلك عائلة العطاس منزلا للضيافة جيد الإعداد لأفراد الأسرة الذين يمرون على المشهد . وتم حديثا طلاء الطابق الأعلى بالجير الأبيض , والسلالم و الممرات و الحمامات والمراحيض وكل شيء في غاية النظافة . كان شيئا كماليا بالنسبة لنا أن نستحم ونضع أسرّتنا السفرية فوق السطح النظيف بطلائه الأبيض بعيدا عن الروائح النتنة التي تنتشر في كل مدينة عربية . وياله من فرق بين سطح الإسطبل في صيف .

بدأنا يوم الثلاثاء ١٩ مايو فحصا دقيقا للنقوش في المشهد ولخرائب " ريبون " وهي قرية في الجنوب والجنوب الغربي . وأخذنا إلى صخور بها نقوش سبئية , منحوتة في المنازل وقبور الأولياء والمساجد و السقايات وفي داخل القرية الكبيرة العميقة . لم تكن المادة المشجعة , فالحجر الجيري الذي نقشت فيه مأخوذ من الجبال المجاورة وكان هشا فلم تبق إلا شظايا من أغلب النقوش . لا شك أن بحثا دقيقا أعمق مما نستطيع القيام به , سوف يسلط عليها ضوءا أكثر سطوعا . وعلى مسيرة عشر دقائق خارج المشهد إلى الجنوب الغربي تقع مجموعة أنقاض ريبون . وينسبها السكان إلى قوم عاد الخرافيين ولعلها في موقع

مدينة حميرية . ويشاهد الإنسان روابي يصل ارتفاع بعضها إلى ثلاثين قدما , وعلى قممها بقايا جدران بنيت من كتل حجرية منحوتة , تلتحم مع بعضها بنوع من الأسمنت . وفوق قمة التل الأول شاهدنا بقايا الأربع قوائم عليها نقوش مربعة , لعلها الأساس لأعمدة . وفي اتجاه المنحدرات وجدنا الكثير من شظايا الحجارة نقشت عليها شخصيات . وفي التل التالي بئر قديمة , قطرها ثلاثون قدما وعمقها يصل إلى ستين قدما . ويتكون الجزء الأعلى من حائطها من طبقات من صخر متراكم بينما الجزء الأسفل من الطين . تغطي الأوساخ الآن جزءا كبيرا من البئر ولعلها كانت أعمق مما هي عليه الآن . المياه الجوفية هنا حوالي ١٨٠ قدما تحت السطح . وتتناثر شظايا كثيرة من فخار بسيط وسط خرائب الصخور المحطمة وكذلك قطع من زجاج أسود خشن .

توجد مجموعة أخرى من الأنقاض على مسيرة ربع ساعة يسمونها (مقابر الملوك) عندما بدأنا السير في الحرارة الخانقة بين الرمال وتلال الطفال الرملي في الطريق إلى مقابر الملوك , التي تقع في مربع كبير جنوب غرب المشهد , تخلف كل الفضوليين الذين يتابعوننا . وجدنا نقوشا قليلة هنا . والتلال منفصلة عن بعضها البعض , وعلى قممها أساسات لجدران صلبة يتكون منها سياج مربع مساحته ثلاثون قدما . لم تكن الحجارة كبيرة جدا لكنها منحوتة نحتا جيدا . والأنقاض هنا مغطاة لحد كبير بأكوام من الطفال الرملي , ومن المحتمل جدا أن يكون بقايا الأجزاء العليا للمباني . وتتناثر بين الصخور كثير من شظايا فخارية بنية – حمراء .

يفترض بينت وزوجته أن ارتفاع الأرض إلى أكثر من ثلاثين قدما سببه الرمل المنجرفة لذلك اندفعت المباني القديمة لحد كبير , لكن يبدو أنه افتراض غير صحيح . يبدو الافتراض المضاد أكثر قبولا , إذ يرى أن مجرى السيل انجرف عميقا عندما أهملت

صيانة السدود وقنوات الري . وترقد الآن كل الخرائب فوق قمم التلال , فقد انجرف كل الراسب الطفالي من حولها .

السيد حسين العطاس الأخ الأكبر للسيد علوي رفيق دربنا موجود الآن في حضرموت وهو رب الأسرة الفعال في حريضة , وجاء إلى المشهد للقائنا . لقد أرسل والدهم تعليمات ببرقية , ليستقبلوا بحفاوة المبعوث الأول لهولندا في حضرموت . وما أن استلم السيد حسين التعليمات حتى امتطى هجينا وانطلق لملاقاتنا . ولم يجرؤ أن لبس في بلاده غطاء الرأس الواقي من الشمس (البيزنطية) الذي يستعمله الإفرنج , لكن برزت فيما بعد كل تقدميته وحيويته وجرأته , أصبح السيد حسن من الآن فصاعدا مضيفنا وقضينا وقتا جميلا تحت رعايته . ولو كان له الوقت الكافي ليرافقنا في رحلة العودة لتجنبنا الكثير من المنغصات .

عندما عدنا إلى المشهد استنجد بنا العديد من النساء والرجال المرضى . وكانت هناك دهشة عندما رفضنا أن نعطي دواء لشريفة (ابنة أحد السادة) لأنه لم يسمح لنا برؤية المريضة .

الفصل السادس
حريضة موطن آل عطاس

١) من المشهد إلى حريضة :

غادرنا المشهد بعد الظهر بقيادة السيد حسن , وسرنا عبر الوادي الكبير الشاسع الخالي من النبات إلى مدخل عمد . ويسمى بطن الوادي هنا بحران " أي النهرين " حيث مجرى السيل في وادي دوعن على الشمال ووادي العين على اليمين و تفصلهما هضبة من الرمال والراسب الطفالي , ثم يلتقيان عند هذه النقطة . وبجلب قرية سدب التي تقوم مثل القلاع العالية عند سفح الجبل , الماء لبساتين النخيل من وادي العين . وبعيدا على اليمين تقع قرية (حورة) وبها حصن كبير وقلعة كبيرة وقلعة للمراقبة على التل . إنها بحيرة قعيطية صغيرة وسط بحر كثيري .

عند وصولنا مدخل وادي عمد إلى الداخل في اتجاه جنوب غربي , فأصبح وضع الشمس متوهجا بيضاء رائع . وشعرنا أننا أقزام وسط رمال مجاري الأنهار العريضة وشواطئها العالية في البعد . كنا ننتقل من سقاية إلى أخرى . ودخلنا وادي عمد ونحن نتابع عن كثب الحائط الصخري على جانبه الجنوبي الغربي . وفي أعلى ذلك الجدار , الذي هو في حالة تصدع هنا وهناك , شاهدنا بعض التحصينات والقلاع . هناك بعض الأرض المحروثة في الوادي , لكنها ما زالت حقولا جرداء وسط الرمال , وينمو شجر النبق والأعشاب متناثرة هنا وهناك , ونعبر أحيانا على بعض أشجار النخيل والمستوطنات فيخرج سكانها وينادوننا في ريبة . وعندما سمعوا أن السادة من آل عطاس في ركبنا ترتفع التحايا " يا حيا يا حيا " وهي اختصار للدعوة أطال الله عمرك .

واصلنا السير تحت سماء مرصعة بالنجوم البهية , والنتوء الضخم الذي نسترشد به في سيرنا هو جبل غمدان ولم نر أنوار حريضة إلا عندما اجتزناها . وكلما اقترينا منها كلما ازداد عدد الرسل الذين يحملون المشاعل , وعدد الفضوليين الذين خرجوا للقائنا . كل حضور الشباب أكثر وضوحا , شباب غض وجرئ وكانوا يتدافعون من حولنا لمصاحبتنا والتحدث معنا بشغف . وسرعان ما بدأ الصبية يطرحون بعض الأسئلة باللغة الملاوية . وعندما جاءتهم الردود أيضا بنفس تلك اللغة , أخذت الأسئلة تتابع تباعا , هؤلاء الشبان الواعين , ولدوا في جاوا ثم أرسلوا إلى هنا ليحصلوا على تعليم عربي سليم وأصبحوا مصدر إعجاب وحسد من أقرانهم .

هل تستطيب لك الإقامة هنا ؟

قطعا لا , إنها أكثر بكثير في جاوا . هذه بلاد كريهة بفقرها حرارتها ومللها .

كان يملأهم الحنين إلى جاوا , حيث ما زال آباؤهم هناك فهم يرغبون في العودة فورا .

ترجلنا عند مدخل حريضة التي ليس بها سور , فقد رأينا بضوء مصابيح الغاز العديدة الأشباح البيضاء لوجهاء المدينة الذين كانوا ينتظرون قدومنا ، تقدم حاكم المشهد باعتباره المتحدث الرسمي . وقال إن أهالي حريضة ممتنون بتشريفهم بأول زيارة هولندية رسمية , كان الأجانب حتى وقت قريب يمنعون من دخول حريضة , لكن أصبح الرأي العام الآن أكثر حداثة . هناك تعاطف في كل حضرموت نحو هولندا وتقدير لتلك البلاد للاستضافة والمعاملة الكريمة التي يلقاها الحضارم في البلاد التي تقع تحت حكمها . وعبر عن أمله في أن تمون ثمرة هذه الزيارة تواصل الصلات بين حضرموت وهولندا , كانت أنوار المشاعل تضئ هذا المشهد الفريد على أطراف حريضة بشكل بديع , حي يدخلها أول أوربيين , وهم في غاية التعب وملابسهم متسخة وأطرفاهم متقلصة من الرحلة الطويلة , وأيديهم في

أيـدي وجـهـاء المدينــة بملابـسـهـم النظيفــة البيــضـاء . وأمــسـك الحــاكم يــد الـهـولنـــدي بوقـــار , وســـار الـــسـيد حـــسـن بجنبـــه . واصـطـحـب اثنان مــن الـوجـهـاء فــون فيــسـمـان بـنـفس الطـريقــة , ومن ثم بـدأ الـتـقـدم البطـئ نحو المدينة .والتمع مـسـجـد أبـيض رائـع في الظلماء ثم تلاشى فيـهـا مـرة أخـرى , أمـا البقيـة فـهـي مـنـازل بنية مـن الطـين يبـدو أنهـا شـيـدت بـلا نظـام عبرنـا المكـان بعـد خمـس دقـائق , وظـهـر علـى منحـدر ركـام الخـر مـنزل العـطـاس الضخـم مضاء وبه العـديد من الـشـبابيك الـصـغـيرة . وقـد أعيـد بناء المنزل وتوسعـته حـديثا , لـذا مـا زال الطـابق الأعـلـى بـلا جـير أبيض . وتقدم أحد أخوة حسن وعلوي مع عمه لتحيتنـا . تلقـى هذا الأخ تعليما هولنديا , بينما تعلـم علـوي في مـصـر , وحـسـن في الهنـد , وكان العم ضابطا في الـكـتـيبـة الحـضـرمية في جـيـش نظام حيـد أبـاد . كـان الاسـتقبال في المجلـس قـصـيرا , ثم عـدنا إلى أعلـى لتنـاول وجبـة دسـمـة فـوق الـسـطوح الواسـعـة بـصـحـبة الرجـال الأقربين من العـائلـة .

٢) بعض الأيام الجميلة في حريضة :

خصصت لنا مضيفة أنيقة لإقامتا في حرضة . كانت هذه ميزة كبيرة إذ أعطتنا مكانا فيـه خـصـوصـية نرتـاح فيـه , فـلا نقابـل الزوار إلا في منزل عائلة العطاس . وفي اليوم التالي (العـشـرين مـن مايو) كان هناك تجمع كبير لتقديمنا لأهالي حريضة . وتـتـم هـذه الأشـيـاء بطريقــة ديمقراطيــة هنــا . فيحـضـر هــذه الاجتماعـات العـالي والوضـيع , والكـبير والـصـغير , وحـتى البـدو في القـافلـة , والجنود من حراس المنزل , وجنودنا العبيد , وأفراد الأسرة الـصـغار . الشـيء الوحيد أن الصغار والتبع يبقون علـى مسافة في الخـلـف ويحرصـون ألا يحدثوا ضـوضـاء تزعج الكـبار . ويبقى الكبار وعقـلاء المنطقة مع بعض .

كان لمجموعة الشباب مكان هام نظمه السيد حسن بنفوذه ليصبح اتحادا لعائلة العطاس , وفكرة الاتحاد مستوردة من " عليقرة " حيث درس السيد حسن في الجامعة الإسلامية , لقد أدخلت عنصرا حديثا في الحياة العامة في حريضة .
دار نقاش طويل حول الوضع السياسي في مصر واليمن والحجاز وجزر الهند الشرقية وحضرموت ذاتها . والموضوع الأخير أكثرها مشقة . طرح بالطبع سؤال بشكل عام حول استعداد هولندا لتعيين قنل في حضرموت , وكانت إجابتي أن هولندا لا ترغب في شيء أفضل من هذا , لكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك , إنها تتمناه , من أجل تقوية الروابط التي نشأت منذ قرون خلت مع العائلات الحضرمية المرموقة , وكذلك من أجل توسيع تجارة جاوا وهولندا مع جنوب الجيرة العربية , لكنها لا تستطيع , لأنه لا توجد وحدة هنا وليست بها سلطة عليا مسئولة . إلى من تتجه ملكتنا ومن سيكون مسئولا عن ممثلها ؟ كانت هذه المناقشة واضحة لهم ومصدر اهتمام عميق من جانبهم .
وحتى أخفف من حدة الوضع الذي برز , عبرت لهم عن تقديري للظروف الملائمة التي وجدتها هنا بعد اسبوعين من الترحال في منطقة متخلفة جدا . ويلاحظ الإنسان هنا نفوذ الأشخاص الذين سافروا في بعض أجزاء العالم . ولم أتمالك مع ذلك من القول إن أولئك الأشخاص لهم إنجازات أكثر في البلدان الأخرى , مثال ذلك جاوا , مما في بلادهم . ونصحناهم بكثير من الحذر بأن يهتموا بخلق تجانس مع أنفسهم و يركزوا اهتمامهم وطاقتهم نحو بلادهم وأدت تلك المناقشات إلى انخفاض مزاج الترحاب الحار إلى حد ما , لكن صلاتنا تمنت مع مجموعة كبيرة من الزوار الذين كانوا يصغون باهتمام .
جاء الوجهاء في العصر ليطوفوا بنا في المدينة . سرت في المقدمة مع حاكم المشهد ويدي في يده , يبدو أنه أكثر شخص له نفوذ هنا , وتبعنا فون فيسمان يصاحبه السيد حسن

ومشينا الهوينى نحو المسجد الكبير الذي هو بحق مدر اعتزاز أهل حريضة .
توجد ثمانية مساجد كبيرة أنيقة في هذه المدينة التي لا يتعدى سكانها ٢٠٠٠ نسمة . اثنان متصلة بمباني مدرسية ممتازة , حيث يتلقى الأولاد تعليما ابتدائيا , ثم يتبعه تحفيظ القرآن وتعليم العقائد . شيدت هذه المساجد والمدارس على نفقة رجال من حريضة , من الذين أثروا ف المهجر ويقدمون أيضا المال اللازم لصيانتها . شيد المسجد الأول الذي زرناه مهندس معماري هندي . ولدهشتنا الكبرى دعونا لخلع أحذيتنا ودخول المسجد : هذه هي المناسبة الأولى في أرض الجزيرة العربية التي سمح لي فيها بدخول مسجد .
وسمعنا نقدا وهمهمات امتعاض من عدد من المتفرجين , لكن مرافقينا كانوا يقدمون لهم إجابات مقتضبة , واصطحبونا بكل بساطة معهم . الساحة الكبيرة في الوسط كلها معبدة , وبالرخام الإيطالي في بعض الأماكن . وخلفها غرفة مغلقة لأداء الصلاة في الشتاء . خلفها مساحة بها قبة الشخص الذي تبرع بتشييد البناء . والمقبرة والأبواب منحوتة بشكل جميل من شجر النبق . هذا على الأقل هو الفن الوطني الأصيل الوحيد في هذا البناء المشيد بفن معماري غير عربي . وتقف المقبرة تحت سقف منفصل على شكل قبة متصلة بالمسجد . فكانت رغبة المانح أن تقام هناك مكتبة وقاعة لدراسة العلوم الدينية فوق قبره لذلك كان تحت القبة وفوق القبر صالة شاسعة باردة , حيث هناك كتب بحق , لكن ليس هنا طلاب . لم نترك في جولتنا . وسمحوا لنا بمشاهدة أداء الوضوء , وعدنا إلى المئذنة , وشاهدنا ساعتي حائط كبيرتين ثمينتين صنعتا في انجلترا , ثم دلفنا من المسجد عبر الباب إلى المدرسة , لم يكن بها طلاب خلال تلك الوقت , فذاك وقت العطلة بمناسبة موسم حصاد التمر .

سار موكبنا إلى المسجد التالي وهو أقدم مسجد في حريضة , شيده مهندس معماري حضرمي على الطراز المحلي الصارم . ثم سرنا حول المدينة إلى مسجد أنيق حديث البناء شيده بلوتقراطي (وهو الشخص الذي بناء نفوذه بالثروة) وهو يريد أن يبني لنفسه منزلا هنا , لكن بدأ بالمسجد وفقا للتقاليد الحميدة .

حريضة بها بعض المنازل الأنيقة التي يعيش أصحابها في سنغافورا و جاوا ويبدوا أن سكان المدينة في غاية الفقر . توجد خارج المدينة بعض بساتين النخيل , وتعطي رغم جملها انطباعا عاما بالانهيار . كل ما هو أنيق ومزدهر يعزى إلى أموال المهجر . فالرابطة بين الحضرمي وموطنه قوية جدا , فعندما تتحسن أحواله يعود إلى من وقت إلى آخر ف , وعندما يشعر أن مغرب شمسه قد أزف يشتاق أن يقضي ما تبقى من عمره في المدينة الصغيرة المبنية من الطين التي ولد فيها , وينظر يوم البعث في تربة حضرمية , وهي بالنسبة له أرض لها قداستها , لذا نجد هنا قصورا ومنتجعات يمتلكها السادة وحصونا سلطانية عاتية , بينما يعيش البدو في كهوف صخرية أو أكواخ مؤقتة , وهم دائما على حافة الجوع , أما سكان المدن فلا يرتفعون كثيرا فوق حافة الفاقة , نحن ما زلنا في بداية المدخل الفعلي لحضرموت الداخل وسرعان ما سنرى مفارقات مؤثرة , تجعلنا أحيانا لا نصدق أننا نعيش في الواقع , وليس في حلم بعد قراءة قصة من ألف ليلة وليلة .

٣) محيط القرية :

نوينا نرى في الحادي والعشرين من مايو بعضا من محيط حريضة . فطلبنا من السيد علي وهو بدوي من عائلة العطاس , أن يرافقنا . لا يميل أغلب السادة للسير في الريف في هذا الوقت من السنة . ذهبنا بناء على رغبة بعض الوجهاء إلى نبع يخرج من حائط صخري على بعد ميل جنوب حريضة , مباشرة عند المكان الذي تستند فيه طبقة الحجر الجيري على الحجر الرملي . يقال إن البدو المعادين قد أوقفوا تدفق هذا النبع الذي كان ينساب غزيرا في الماضي . وبما أنهم يعتبرون الأجانب مهرة في كل المسائل الفنية , فقد سألونا عن الطريقة التي يمكن بها إصلاح النبع . وإذا كانت هناك فرصة للنجاح فيمكن تدبير بعض المال لتحقيقه . تقع بالقرب من هذا النبع على حائط الجبل أنقاض تعود الفترة التي سبقت الإسلام بفترة طويلة , رغم أننا لم نجد نقوشا تبرهن على ذلك . وتوجد أنقاض منازل , بالتحديد أساسات من الحجارة , وبئران ما زالتا عميقتين , وحوض ماء مبلط بنوع من الأسمنت . وما زالت هناك شظايا من قناة ماء تقود إلى النبع .

ينقل الماء من النبع إلى حريضة بالتنكات . فاقترحنا تنظيف النبع والقاعدة الحجرية التي أمامه حتى كتلة الصخر , ثم تثبت بالاسمنت , وتوصل الماء حتى الوادي بأنابيب من الحديد , بهذا يوفروا طاقة وتقل احتمالات التلوث وإهدار الماء . ثم سرنا تحت قيادة السيد علي البدوي عبر بساتين النخيل وفوق قنوات الري الجافة إلى الجانب الآخر من الوادي , حيث توجد في شق من الصخر بحيرة صغيرة بها ماء مستديم . لا يميل السيد علي كثيرا إلى التسلق الشاق , لكننا حافظنا عليه . وبعد تسلق نشط فوق ميادين من الحجارة , ومنحدرات صخرية وصلنا بالفعل إلى " البحر " وهو بركة صخرية عميقة مليئة بالماء , وجدران كهفية يتطاير منها الماء بعد المطر إلى البركة .

إنه مكان رائع للسباحة . حرارة الماء قطعا عالية . لكن الحرارة كانت تغلي في الشق مما يجعل المفارقة منعشة . البركة عميقة جدا حتى لم نتمكن من الغطس إلى قاعها . فقام السيد علي بأداء أحد أعماله البطولية بمناسبة الرحلة , فتسلق إلى أعلى قمة الصخرة وقفز إلى الحوض . الذي يثير الانتباه إن أغلب الرجال في الصحراء ويغطسون بجرأة , مما يؤكد بلا شك موهبتهم الفطرية . وينخرط الحضارم الذين لم يروا البحر في العمل كغطاسين للؤلؤ أو وقادين في الرحلات البحرية الطويلة .

عبرنا في طريق عودتنا عبر الواحة على قرية صغيرة , اسمها " الشرج " وطلبنا ماء عند كوخ بائس . وجيء بقدح الفخار المعتاد واخذ يمر علينا , وأصروا أن نبقى لتناول فنجان القهوة , فجلسنا جميعا في دائرة في غرفة بسيطة , وأخذنا نراقب المضيف وهو يقلي بحزم بعض حبات البن , ويسحق الزنجبيل , ثم يضع المسحوق في إناء نحاسي على نار من الأعشاب الجافة . كانت الحرارة تشوي في الخارج وكذلك في الداخل , لكننا هنا بعيدين من الضوء القوي . ثم بدأت أعيننا تعتاد تدريجيا على الضوء الخافت داخل الغرفة الطينية البنية اللون , التي يجلس فيها رجال سمر في صمت متكئين على الجدار , ويدخل بين الحين والآخر طفل عار ريان الجسم فيعكر صفو المناقشة الهامسة . طلبوا أن نساعد أحد رفاقهم , وكان قد أصيب برصاصة في ساقه قبل أيام والتهب جرحه الآن . إن الحرب بين القبائل تواصل حتى في معقل السادة آل عطاس .

٤) الحياة المنزلية في مدينة حضرموت :

سنحت في العصر فرصة لحديث مطول مع السيد حسن العطاس , الابن الأكبر الممتلئ نشاطا ,ومع عمه زعيم عائلة العطاس في حريضة . لم يكن في صباه في وفاق مع والده , ولهذا السبب حاول أن يشق طريقه الخاص في الحياة منذ سن مبكرة . فدرس في الجامعة الإسلامية في عليقرة , عانى ظروفا معيشية بائسة فكان يعول نفسه واشتغل عاملا .وعندما بدأ الإمام يحيى في اليمن التعاون مع منع جنكرز الألماني خدمات طيران في بلاده , أدخل السيد حسن في خدمته بناء على رغبته . وتعلم تحت قيادة الألمان الطرق السليمة لعمل الأشياء والدخول في مغامرات .وعندما فشلت تجربة الجنكرز , عاد السيد حسين من صنعاء إلى حريضة عبر الطريق البري الخطير .

يبغ سكان حريضة الآن بحسب معلوماتي ٢٠٠٠ نسمة , ويعيش في جاوا ٤٠٠٠ أصلهم من هنا . وخلال العشرين سنة الأخيرة غادر حريضة سنويا ٣٠٠ إلى ٤٠٠ رجلا , ذهبوا ليجربوا حظهم في جاوا . وبعد أن يحققوا نجاحا يعودون بين الحين والآخر لفترات قصيرة ثم يعودون إلى أعمالهم في الهند الشرقية . وإذا تيسرت لهم السبل يبعثون بأبنائهم إلى حضرموت لفترة خمس سنوات أو ست سنوات حتى يبحوا أكثر ارتباطا بأسرهم ولغتهم ودينهم وتقاليدهم . لا تذهب البنات من جاوا إلى حضرموت أبدا تماما كما لا تذهب النسوة في حضرموت إلى جاوا . ونتيجة لذلك فإن الأطفال الذين يولدون هناك دائما من أجناس مختلطة . يتذكر السيد حسن امرأة حضرمية واحدة استطاعت أن تنفذ رغبتها وتحب زوجها إلى بتافيا . وعموما فإن الزوجات لا يرغبن , وليست لهن الشجاعة ليفعلن ذلك . علمت فيما بعد أن النساء الجاويات والصينيات كن يأتين إلى حضرموت . ويقال إنهن مرغوبات بشدة كخادمات وطاهيات . أما الأولاد الجاويين الخالصين , الذين جاءوا لدراسة الدين واللغة , فليس لهم وجود في حريضة وهناك القليلون في المدن

الحضرمية الأخرى . يقدر السيد حسن عدد الحضارم في حيدر أبا بأنهم على الأقل ١٣٠٠٠ يعمل أغلبهم جنودا وضباطا في الفرقة الحضرمية التابعة لجيش نظام حيدر أباد .
يوجد حسب معلوماتي ٦٠٠٠ سيدا في شبام وسيئون و تريم وعينات , و٤٠٠٠ آخرون في وادي دوعن ووادي رخية وجبل حجاز . وثلاثة أقسام من البدو الحموم من السادة . كان زعماؤهم في الأساس سادة , واندمجوا تدريجيا في القبيلة وأصبحوا جزءا منها , وينتمي كل السادة في حضرموت إلى الفرع العلوي . ومؤسس العائلة هو علوي بن عبيد الله بن أحمد " الذي جاء من العراق " بن عيسى بن علي العريضي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن حسين بن علي بن أبي طالب . ومازال السادة في حضرموت الداخل يتمتعون بنفوذ ووضع متميز , لكن يواجه هذا الوضع في الخارج هجوما مستمرا , وبعنف متزايد , لا يفهم الحكومات الاستعمارية الغربية بين السادة الذين ليسوا من سلالة الرسول , لا يفهم السادة مثل هذا النوع من الديمقراطية و لا يحترمونه . وهو من الاعتراض الوحيد سمعته يثار ضد الحكومة الهولندية الاستعمارية .
السادة في بلادهم هم حفظة الدين , لا يوجد في أي بلد إسلامي مثل هذا العد الكبير من المساجد الجميلة . ولم أر الصلاة إلا نادرا تؤدى بمثل هذا الخشوع إلا بين السادة في حضرموت , ونفوذهم على حكومات بلادهم كبير : يعتمد عليهم السلاطين ماليا , ويسطرون على البد بالمال وبالنفوذ المالي . ولو لم يكونوا منقسمين بين أنفسهم بهذا الشكل المحزن , لكانت الأوضاع في بلاد السادة أفضل بكثير مما هي عليه الآن . وسوف يتضح مما سيأتي الحالة الكئيبة التي آلت إليها الأوضاع في الوقت الراهن .
يمنح السيد مكان الشرف في الحياة اليومية , فهو يؤم الناس في الصلاة ويتأكد من القيام بها . ويحيونه بتقبيل يده , وحتى السلاطين لا يمكنهم تجنب ذلك , على الأقل في الظاهر ويعبر

السيد عن تقديره بسحب يده والتظاهر بأنه يريد تقبيل يد السلطان . وتستمر هذه اللعبة من الادعاء الكاذب لفترة , فالناس في حضرموت لهم متسع من الوقت يمكن أن يقضوه في التشبث باحترام زائد إلى أسلوب اللياقة في الحياة . أما بالنسبة للأعيان من غير السادة فيكفي التظاهر بتقبيل اليد .

تخضع كل السلطات الدنيوية في حريضة للسادة . فالحاكم شاب فقير يعتمد ماليا بشكل أساسي على عائلة العطاس .

يتولى السادة أمر المدارس والمساجد والآبار وكل الخدمات الأخرى .

تعاني حريضة مشكلة إمدادها بالماء . فشاهدنا آبار كبيرة محاطة بجدران , عمقها ٥٥ قامة (أي أكثر من ٣٠٠ قدم) . وكانت مجموعة من العبيد الأشداء رجالا ونساء ينشدون جماعيا وهم يرفعون الماء بالبكرات , ويفرغونها في أنبوب يقود إلى حوض الاسمنت , إن العمل اليدوي الرخيص من جانب والثراء في المهجر من الجاني الآخر مكنا مناطق مثل حريضة على البقاء . واعتمدت بساتين النخيل في بقائها على الماء السيل , لكن يبدو أنها في حالة انهيار , فقد أخذت أطرافها تتداعى أمام الكثبان الرملية المتراكمة .

استقبلت رسميا في مساء الحادي والعشرين من مايو , في المنزل البسيط لحاكم حريضة .

قام حاكم المشهد والسيد حسن العطاس بدور المضيف وبتوجيه اللقاء . الحاكم شاب هادئ ودود , فأفضى على كل الجو ألفة ورقة . وألف شاب من عائلة العطاس قصيدة ترحاب . وألقى السيد حسن كلمة قرأ خلالها القصيدة التي قيلت في الترحاب بنا باعتبارنا أول أوربيين يزرون حريضة . وبما أنهم رعايا هولنديين , فقد كانوا في غاية السرور أن يكون أحدنا مبعوث الحكومة الهولندية . وقلت في ردي إنه من الطبيعي والمناسب بالنسبة لي أن يسبق الهولندي البريطاني إلى حريضة , فالهولندي في جاوا موجود بالنسبة لها للمعاشرة الطويلة والعلاقات الوثيقة . ووجدت أيضا في حضرموت بجانب المفاجآت

السارة بعض الأوضاع المخيبة للآمال . فقد كنا نعتبر الحضارم الحيويين , الذين عرفناهم في جاوا , لهم الدرة على تحسين الأوضاع المتردية في بلادهم .
كنت أغتنم أي فرصة تسنح لي وأشير إلى ضرورة النشاط المستقل وبذلك أرد على الأسئلة المتكررة حول العون الهولندي أو أي عون أجنبي آخر من اجل تحسين الأوضاع .
قام رفيقي بصحبة السيد علي العطاس بتسلق جبل غمدان لاستقصاء العجائب التي تحكى عن هذه القمة التاريخية . ولابد من وجود أنقاض , وبئر عميقة في القمة يقال أنها تتصل بمجرى سري مع بئر علي في الساحل . يظهر أن أنقاض الحصون الدفاعية في غمدان حديثة العهد . وعثروا أيضا على البئر , وتجرأ السيد علي البدين بالهبوط إليها , بالرغم من القصص الرهيبة عن الثعابين و الوحوش الأخرى التي قيل إنها تسكن في قاعه . وتبدو الحفرة أنبوبا عمقه ٩٠ قدما , يعترض الجزء الأسفل منها ممر دخل فيه السيد علي بضع ياردات , وفي يده مسدس محشو . ثم أصبح صرير الخفافيش المتطايرة حوله حادا لدرجة لم يعد يحتملها فعاد الأنبوب , حيث كان فون فيسمان قد تبعه . ولم يستبينا بضوء المصابيح الكهربائية التي معهما أي أثر لنشاط آدمي أو كنوز مخفية . وتسلقا عائدين إلى أعلى دون أضرار , لكن بمشقة كبيرة .
أصبح السيد علي منذ ذلك الوقت قريبا من فون فيسمان بحكم الصداقة والإعجاب . كان يريد بالطبع أن يذهب معنا إلى وادي حضرموت إلى السيد الكاف العظيم في تريم ثم يصحبنا حتى قبر هود , ويقوم هناك مع صديقه " حرمل " باستكشاف أسرار بئر برهوت . فالذي تجرأ ونزل إلى بئر غمدان سوف يتجرأ أيضا على الفم الجهني لبرهوت , وسوف تتداول الأجيال اسم السيد علي بالفخر في سجل تاريخ حضرموت . عاد السيد علي مع فون فيسمان إلى حريضة وهو مخمور بالزهو والفرح . وحكى قصته حتى منتصف الليل , وأصبحت أكثر تشوقا عند

تلاوتها . وذاعت شهرة رفيقي وسبقته إلى حضرموت . كان سيد يقدمه بزهو قائلا : حرمل الطيار الألماني (انظروا إلى ركبته التي أطاح بها الرصاص) , الرجل الذي لا يهاب أي شاهق أو عمق .

تلقينا دعوة أخرى في صباح الثاني والعشرين من مايو وكانت هذه المرة لتناول الشاي مع السيد طالب , الذي قدموه لنا باعتباره سندباد حضرموت لقد سافر كثيرا في إرجاء العالم الإسلامي , وكان يقابل لنا باعتباره سندباد حضرموت لقد سافر كثيرا في أرجاء العالم الإسلامي , وكان يقابل بالترحاب في كل مكان لأنه سيد ولأنه من سلالة رهط من علماء الدين , عاد ثريا من تلك الأسفار . كان بيت السندباد جميلا يسمونه مزاحا يلدز الصغيرة , وهو الآن رجل مسن , لكنه يستمع ضاحكا عندما يحكي ضيوفه الصغار أنه يتزوج في كل عام أجمل فتاة في حريضة . وعطرنا أنفسنا بالبخور , أما مضيفنا فيتعطر بطريقة أجود منا جميعا . يبقى دخان المبخر تحت عباءته الفضفاضة . ثم قدموا لنا الشاي مع حلوى الزنجبيل . كان سندباد بوجهه الماكر المحاط بلحية بيضاء أطرافها مصبوغة بالحناء , يحكي عن أسفاره . ويلتهم المستمعون من الشباب الأقاصيص الذكية لهذا الرجل الدهري – شخص منقرض لنموذج مجتمع السادة في حضرموت .

تبادلنا الهدايا التذكارية مع السيد حسن العطاس لتبقى ذكرى مستديمة لزيارتنا لحريضة . إن الاستقبال السخي الودي الذي لقيناه هنا والمشاعر الرقيقة التي أبدوها نحونا , مهدت لنا الطريق في رحلتنا عبر حضرموت .

الفصل السابع
المدخل إلى وادي حضرموت الرائع

وصلت في اليوم التالي أول سيارة إلى حريضة . فقد استطاع بن عوض مرتع من هينن , وهو تاجر جملة من " سرابايا " أن يجد طريقا عاليا عبر روابي الطفال والرمال . غادرنا في العصر بعربته , التي ملأناها . لم يكن الطقس حارا بدرجة لا تحتمل فحسب , بل فوق ذلك يبدو أن الرياح المحرقة تهب عصرا في هذه الوديان الرملية العريضة . وانغرست السيارة عدة مرات في الرمل الرخو , لكن أخرجناها مرة أخرى بجهودنا الجماعية , وواصلنا مسيرنا المترنح عبر الصحراء الموحشة وحرارتها العالية .
لا يوجد أحد في الطريق في مثل هذا الوقت من اليوم , وكانت القرى الطينية الصغيرة التي نشاهدها أحيانا من بعيد تبدو كأنها ميتة . وتلتمع أشجار النخيل الهزيلة بين الحين والآخر عبر ستار الرمل الذي يحلق ساكنا في الهواء .

١) ديار آل البقري , بؤرة اقتتال :

وصلنا بعد حوالي ساعتين مدخل وادي عمد عند وادي الكسر . التربة هنا أصلب , وتتكون في الواقع من تلال من الراسب الطفالي . يشبه الوادي عند هذه النقطة سهلا شاسعا , وكان السائق يقود السيارة , وهو يستهدي بقمم بعيدة عالية فوق الحائط الصخري تلوح بين الحين والآخر خلال الضباب الرملي . كنا نتعرج وننحني باستمرار وسط تلال الراسب الطفالي . وبن مرتع بالتأكيد سائق بارع . ثم لاحت بعد فترة خلال الضباب قلاع آل بقري بلونها البني الأبيض , وهي تقع تقريبا في منتصف الوادي . إنها مركز المنطقة التي تدور فيها الحرب , حيث تحارب

مجموعتان من القرى بعضها البعض مدى أحد عشر عاما . وأبناء آل البقري هم قواد أحد الجانبين , القلاع عالية جدا ومسلحة تحسبا لأي هجوم محتمل . والحدائق محاطة بجدران من الطين بها بوابات من خشب متين ومزينة بزخارف من قطع حديدية . كنا نتلهف للماء ولمكان نختمي به من العواصف الرملية . وأطل الجنود برؤوسهم من فوق درابزين السطح عندما سمعوا صوت عربتنا , وصاحوا علينا أن نلتف إلى الجانب الآخر من القلعة , حيث قد يصيبنا رصاص الأعداء في هذا الجانب . وتقع قرى الأعداء على بعد نصف ميل . ثم فتحوا لنا البوابة واستقبلونا استقبالا وديا , وقادونا وسط جمهرة من الجنود والأطفال إلى مجلس كبير في الطابق الثالث . المنازل التي رأيناها هنا حتى الآن حديثة البناء ومصانة جيدا , ومطلية كلها بالجير الأبيض من الخارج والداخل . والجانب الخارجي مزين بأطراف رمادية داكنة في النوافذ والشرفات مما يعطي انطباعا بذوق رفيع .

الرجل القائد هنا طويل نحيف , عريض المنكبين وعيونه بنية نفاذة وأنفه معقوف : نموذج للجندي . وعندما جلسنا وانتهت عبارات الترحيب , قال القائد : " الحرب مهنة الرجال " كانت تلك إجابته على نظرتنا المتسائلة نحو الجدران التي تتعلق فوقها البنادق وأحزمة الرصاص , بينما يجلس تحتها الجنود في صفوف مكدسة . ثم تبادلنا بعد ذلك الحديث الذي عرفنا من خلاله أن مضيفنا عمل مع البريطانيين في شرق أفريقيا حيث تعلم " مهنة الرجال " وتقبل بروح طيبة المعارضة الواضحة من جانبنا . وبعد مناقشة تابعها الجنود باهتمام , قفز إخوان آل البقري الاثنان إلى النقيض وعبروا عن ضيقهم بالحرب واشتياقهم لانتهاء الأسر داخل منزلهم . وتتوقف الحرب بالتفاوض خلال ثلاثة أشهر كل عام . وهو وقت الأسواق الموسمية والحجاج والسفر . ينتمي الفريقان المتحاربان إلى قبيلة النهدي

ويتطلعون بشوق إلى انتهاء صراعهم . لكن لا توجد سلطة مركزية لتتدخل وتفرض قرارها .
أدركنا خلال الأيام الأخيرة أن انعدام الأمن هنا مسألة أكثر خطورة مما كنا نتصور حيث سار كل شيء في يسر وفي أمان كما يبدو . أدركنا الآن أننا وسط ناس يتطلعون إلى يد قوية تحقق الاستقرار والأمن القانوني . كانت عائلة العطاس ترغب في تقديم أفضل نموذج ممكن فيما يخت بالأوضاع في منطقتهم . لكن كان السيد حسن مجبرا في المقام الأول على فرض سلام لبضعة أيام حتى يجعل رحلتنا من وإلى حريضة ممكنة عبر منطقة قتال .
وصلت رسالة تهديد قبل رحيلنا بيوم , تمنع عبور النصارى . فوضع البد الثلاثة الذين أحضروا الرسالة في السجن وتوعد السيد حسن بأنه سوف يستدعي كل أتباعه البدو ويشن حربا على الذين يهاجمون ضيوفه , عندها فقط منحونا حرية العبور . كنا مع آل البقري في وسط منطقة القتال , فالرجال المسلحون يملأون المنزل , ولم يسمحوا لنا بأخذ الصور والمقاسات من فوق السطح إلا تحت حراسة الجنود شريطة أن نزيل قبعاتنا , وكانت فتحات التصويب في كل الجدران , وحتى في المراحيض , ووقف المراقبون فوق السطح .
أثناء تقديم الشاي والزنجبيل المعلب واصل أخوان البقري المناقشة بلغة الملايو . ولهم معرفة بالعالم . ونشب الخلاف حول الخيانة من جانب الخصوم , ثم أريقت بعد ذلك الدماء باستمرار , لا يمكن الآن التوصل لتسوية الحساب في هذا الثأر الدموي . لكن يمكن أن يأتي الخلاص من الأجانب , بريطانيين أو هولنديين . لماذا لا يقومون بذلك ؟ ويفضل آل البقري التعاون مع هولندا على بريطانيا , بالرغم من أن هولندا تفرض ضرائب باهظة , لأن الأمن أوفر والشرطة أفضل في المستعمرات الهولندية . تكرر نفس السؤال مرة أخرى في المساء , في غرفة الاستقبال في هينن , وعلى الرغم من دلائل الإعجاب هذه بالحكومات الاستعمارية الغربية , إلا أنني واصلت الإجابة

بمراوغات وألحت عليهم أن يأخذوا الأمور في أيديهم بأنفسهم لتحقيق الوحدة , التي تفضها عليهم الضرورة .

٢) مدينة هينن العتيقة المنقرضة :

كلفنا رفض الدعوة الملحة للبقاء فترة أطول ومواصلة الرحلة إلى هينن بعد الظهر مشقة كبيرة . ما زالت الرياح الساخنة تملأ الوادي بضباب كثيف متسارع من الرمال والتراب . رافقنا آل البقري إلى خارج البوابة على الجانب البعيد من الأعداء , وهم محاطون برهط من جنوهم . من الواضح أنهم يشعرون بالأسى لمغادرتنا السريعة وأن يأتي هذا التنويع في حياتهم الرتيبة إلى نهاية مبكرة . ووعدناهم بسرور وإخلاص قبل أن نرحل بأننا إذا عدنا بهذا الطريق , فسوف نقضي ليلة في حصنهم العالي الجميل . ولم يمض وقت طويل حتى اختفت ديار آل البقري , في ضباب الرمال , وواصلنا سيرنا في وحشة تامة بين الراسب الطفالي . كان بن مرتع يقود السيارة في طريق ملتو , باحثا عن الأماكن التي يمكن أن تعتبر فيها سيارته بين صف التلال . فقد كانت الأجزاء المنخفضة مليئة برمال ناعمة راكمتها الرياح فكان علينا أن نسلك طريق المنحدرات عند سفح تلال الراسب الطفالي . ومررنا على بعض القرى المتداعية , أما النبات فبالكاد يوجد له أكثر .

أخذ عدد القرى يزداد كلما اقترينا من ضواحي هينن . وهي تقع جزئيا عند سفح جدار الجبل الذي يشكل الجانب الشمالي لوادي الكسر . والجزء الآخر بالقرب في بطن الوادي . والسدود الصغيرة , التي تتكون منها أقسام مستطيلة , هي برهان هي برهان أكيد على أن الزراعة كانت تمارس هنا في وقت ما . يظهر أن هذا ما عاد ممكنا بأي حال , فقد قضت الرمال الزاحفة على أشجار النخيل وانخفضت زراعة الذرة إلى الحد الأدنى وما شابه ذلك . والقرى الصغيرة شبه مهجورة ومنازل الطين متداعية .

شاركت مدينة هينن القديمة نفسها رأسه من سربايا وهو عازم أن يسعى لإيقاف تداعيها . فقام بترميم منزل الأسرة وبنى فيه

طابقا جديدا . وأحضر معه من جاوا مضخة ماء نصبها عند البئر التي عمقها سبعين قدما . وتضخ ثلاثين جالونا من ماء الري في الدقيقة , بحيث أنها إذا عملت لمدة ثمان ساعات في اليوم فإنها تستطع انتزاع بعض الأفدنة من الصحراء الرملية وأن تحافظ على حياة ٢٠٠ نخلة صغيرة مزروعة بينها .
وتوصل بن مرتع الآن إلى قناعة بأن هذا ليس إلا تعبيرا عن الحب عند فراش الموت وأن مضخته لن تستطيع إنقاذ هينن من التداعي ومن بحر الرمال الذي يبتلعها . وتشبه هينن مدينة صغيرة حطمها إعصار على ساحل صخري عند بحر لا محدود من الرمال ابتلع أولا بساتين نخلها وغمر الآن المكان ذاته . ولم نر أثرا لآل باعطوة , شعراء هينن المتسولين لقد دفع بهم الفقر إلى الأماكن المترفة في وادي حضرموت وإلى جاوا . تقع هينن اسميا تحت حكم القعيطي , ويقوم سلطان شبام والقطن بحماية المكان والقرى المغمورة الصغيرة التي تحيط بالمنطقة التي يحكمها . قابلنا في ذلك المساء في مجلس بن مرتع في منزله الكبير , شيوخا بسطاء من المناطق المجاورة وكذلك شيخ بدو الصيعر الذين يسكنون الجول الوديان شمال هينن . ويشتهر الصيعر بأنهم متخلفون جدا وفراء . وبالرغم من أن الشيخ الذي يسكن ريدة الصيعر كان ودودا , إلا أنه تجنب أن يستجيب لرغبتنا في أننا ربما نزوره في ريدته .
قضينا الليل في هينن في غرفة , حيث أن شرفة السطح التي لم تكتمل قد احتلتها العائلة . وقد جعلت الحرارة والناموس الذي سببته المضخة النوم مستحيلا .

الفصل الثامن
ودخلنا أرض الميعاد

١) القطن و شبام :

لم يسمح لنا مضيفنا أن نغادر يوم ٢٣ مايو إلا إذا تناولنا معه إحدى الوجبتين اللتين يتناولهما أثناء النهار . ولم يكن لنا اعتراض محدد ضد هذه الدعوة إذ أن بن مرتع هو الذي سيأخذنا بعربته إلى القطن . وكانت الحرارة والعاصفة الرملية بغيضة إلى حد بعيد . فهذا هو موسم نضج التمر . فالعناقيد المثقلة بالثمار بألوانها الصفراء الفاقعة والحمراء الداكنة التي يصل عددها إلى عشرة عناقيد في الشجرة , تحتاج إلى تلك الرياح الساخنة حتى يستوي نضجها . والسفر في السهل الرملي ليس كريها في هذا الوقت فحسب , بل هناك مشقة لتبين الاتجاه الصحيح وعلى الرغم من أن بن مرتع سوف يتولى هذا الأمر , إلا أن فون فيسمان سيجد مشقة كبيرة لوضع رسومات الطريق , وفي مسح جدار الجبل الذي يظهر من وقت لآخر , ووفي وضع اسكتشات القرى .

دخلنا بعد هينن إلى حراء الرمل الحقيقية . التربة هنا من الراسب الطفالي , لكن انجرفت فوقها طبقة سميكة من الرمل في الأماكن المنخفضة . وتنمو هنا وهناك بعض شجيرات الأراك فوق تلال الراسب الطفالي . يبلغ اتساع الوادي هنا سبعة أميال , واختفت القرى على جانبه الآخر في العاصفة الرملية . حددنا اتجاهنا نحو جانب الوادي الجنوبي الغربي , إلى الموقع الذي ينسكب فيه وادي " المنوب " . وما إن ظهرت الصخور حتى استبنا أيضا قمم أشجار النخيل تلتمع من خلال ستار الغبار المشحون بالألوان .

" فرط القطن " هي بداية المنطقة المأهولة المزروعة التي تسمى القطن , التي تنتصب الآن واضحة عند حائط الصخر . وتصبح الأرض مسطحة , فتخلص الراسب الطفالي إلى الرمال , وهناك رقع مستطيلة تشير إلى أن الأرض تزرع عرضيا في موسم الأمطار الغزيرة . وفي المزارع نبات بطئ النمو , نوع من العشب يستعمل علفا للأبقار .

فرط القطن عبارة عن قرية صغيرة , لكن بساتين النخيل ومزارع الذرة والسمسم تمتد منها إلى ما بعد حوطة القطن حيث يسكن السلطان . تروى كل الزراعة الفعلي بواسطة الآبار وهناك شريط عريض من الأرض يزرع عندما تكون مياه الأمطار وفيرة وتمتد خارج بساتين النخيل . منسوب الماء تحت التربة هنا قريب من السطح , حيث يهبط الوادي بسرعة أكثر من النهر الجوفي . ثم يبرز بعد تريم فوق السطح بمسافة كبيرة .

تقع الآبار و الممرات التي يسير فوقها الحيوانات والرجال في الغالب تحت ظلال النخيل . وعندما لا يتوفر الظل , ينشرون قطعا من الخيش أو أي قماش . و يستخدمون الحمير والأبقار في رفع الماء لكن في الغالب بمساعد الإنسان . ويسمون الفلاحين الذين يقومون بالأعمال الشاقة " الضعفة – أي المساكين " ووضعهم مثل المنبوذين , عملهم الأساسي مهمة الري هذه التي تستمر في الواقع طوال العام يقوم الضعيف بالتراجع إلى الخلف بجانب الحمار أو البقرة , ويدفع بالحبل الذي يسحب الماء إلى الخلف بفخذيه , وبهذه الطريقة يكون لوزنه أثر فعال . وعندما يصلون إلى نهاية مر سحب الماء , تظهر القربة المليئة بالماء على حافة البئر وترشح الماء عادة من ثقوبها . ويقوم " الساني " بسحب قربة الماء (الغرب) بحبل رفيع , فتفرغ محتوياتها في حوض طيني صغير تخرج منه جداول ينساب منها الماء إلى الأرض المزروعة . وتشارك كل العائلة في العمل في البئر : الأب والأبناء يقودون الحيوانات ويسيرون معها بحبل الحب وتتبادل الأم والبنات معهم هذا العمل . وتجلس في الظل امرأتان

متقدمتان في السن ويقمن بإعداد العلف للحيوانات . الذي يتكون من قصب جاف يربطون حوله نبتات خضراء في شكل حزم , ويدفعونها في فم كلما وصل القمة أو القاع . وشاهدت نسوة يقمن بضفر الحصير , في نفس الوقت الذي يسرن فيه إلى الخلف في ممرات سحب الماء , العمل مرهق : السحب عند الهبوط ثم الصعود مرة . والطريق الذي يبدأ فيه والطريق الذي يبدأ فيه عملهم من طلوع الشمس طويل مثلما البئر عميقة .

٢) قصر السلطان في القطن :

تبرز مباني حوطة القطن حتى من بعيد حيث تظهر من فوق أسوارها ومن فوق قمم أشجار النخيل . المكان ليس كبيرا ويقع , مثل قرى وادي دوعن الصغيرة ممتدا ومنحصرا بين أشجار النخيل والحاجز الصخري . ويحيط سور من الطين مصان صيانة جيدة . وشاهدنا قافلتنا عند بوابة المدينة , إنها في طريقها إلى شام مع أمتعتنا وارتاحت هنا أثناء النهار الحار . وبالرغم من أنهم أخبرنا أن السلطان موجود في شبام , إلا أننا كنا نرغب في تسجيل زيارة مجاملة لنائبة في القصر , فربما سمح لنا بعمل مسح وأخذ صور فوتغرافية من سطح منزله العالي . وقد تم تجديد القصر جزئيا من وقت قريب , لذلك لم يزين بعد بالطلاء الأبيض البهيج . توجد درجات عريضة تقود إلى باب به نحت جميل . هناك سلمنا رسالة التقديم إلى الحارس وبعد فترة دعانا أن نتبعه إلى أعلى . وصلنا إلى غرفة الاستقبال التي جددت حديثا بعد أن عبرنا ممرا عريضا ودرجات لا نهاية لها كلها مبلطة بالطين الجاف , وقد شوهوا الأسلوب العربي القديم الجميل هنا باستيراد الاسلوب الغربي.

واستبدال السجاد الشرقي الأصيل بآخر من المصانع الأوربية وتم طلاء النحت الخشبي . والألوان الاستقراطية القديمة البنية

والبيضاء والحمراء زحمتها أصباغ زاهية أقل انسجاما جلبت من المصانع الغربية . واستعمل الزجاج الملون زينة فوق الأبواب والنوافذ . ورغم أن القديم أكثر جمالا إلا أن الجديد أكثر بهجة ونظافة وإضاءة .

استقبلنا قريب السلطان الخجول بمظهره الهندي . ولم يبلغه سيد علوي بزيارتنا مقدما بوقت كاف , ولذلك أخذناه بغتة . استجاب لبطلبنا بأخذ صورة من السطح . بل عدنا معنا مضيفنا الدرجات العديدة إلى أعلى وأبدى تقديره لإعجابنا الصادق ونحن نحدق حولنا في ريف القطن الرائع . يوجد بستان نخيل كبير خلف القصر .

يوجد بستان نخيل كبير خلف القصر . ويقف مسجد السلطان الأبيض رائعا أمام قمم النخيل الرمادية الخضراء . رأينا ما بعد ذلك بساتين نخيل كبيرة منفصلة و مسورة ومنازل ريفية بيضاء يمتلكها الجنود والضباط اليافعيون الذين أثروا من الخدمة في الحكومة القعيطية . كان الجنود والضباط اليافعيون الذين عملوا مع السلاطين السابقين يكافأون بهبات من الأرض . وأصبح لعضهم إمكانيات , وأسسوا هنا مستعمرة يافعية كاملة , وكانوا ملزمين بتقديم المساعدة للسلطان ضد أعدائه في أوقات الخطر . وتقع المدينة التي بها بعض المنازل الكبيرة ذات المظهر المترف , بالقرب من حائط الصخر . لا يمكننا أن نبقى طويلا فوق السطح , لأن ذلك يعني أن نرغم مضيفنا على البقاء معنا تحت حرارة الشمس المحرقة . بعد وادي عمد والرحلة عبر سهول الراسب الطفالي والرمال , وتوقفنا في ديار آل البقري و هينن , فإن تعرفنا الأول بحضرموت الفعلية الحقيقة هذا , كان بكل تأكيد مفاجأة كبرى بالنسبة لنا . كان وادي دوعن جميلا , لكن هذا أفخم وأكثر اتساعا . إذ يبلغ اتساع وادي حضرموت هنا خمسة أميال .

لاحظنا عند مرورنا بطوابق القصر التحتية , بها مدرسة يتلقى فيها ما بين مائة إلى خمسين تلميذا تعليما أوليا علمانيا

ودينيا , ومندوب للسلطان الذي رافقنا كان صامتا ولكنه لطيف , وأوصلنا حتى العربة وسمح لنا بأخذ صورة له أمام منزله .

٣) عبر عاصفة رملية إلى " مدينة حضرموت " :

مضينا الآن بالسيارة عبر قطعة الأرض المزروعة حتى طرفها الرملي الخارجي . في هذه الأثناء اشتد عنف العاصفة الرملية , وكان بن مرتع يضل الطريق من حين لآخر مما جعل تقدمنا نحو شبام , بطيئا , ومن حسن الحظنا وجدنا طقسا صافيا في رحلة العودة مكننا من رؤية هذا الجزء من الطريق , واستطعنا أن ندون التفاصيل الضرورية في وصفه .

كلما اقتربنا من حوطة القطن أصبح شريط الأرض الزراعية الخصبة ضيقا ثم تلاشى بعد ذلك نهائيا . وأصبحت القرى مثل الجزر الخضراء الصغيرة وسط الأرض الجرداء عند سفح الجبل . يمر عبر تلال رملية ينمو فيها نوع القصب .

عبرنا بالقرب من شبام على مزارع ذرة وبساتين نخيل صغيرة تخص قرى الهيم , والشيخ علي . وتصل الأرض المزروعة عند هذه النقطة جوانب بطن الوادي العتيق . وخلال فصل الأمطار يصبح السيل هنا مصدر تهديد وينحط من نعمة إلى خطر : فيخترق وابل المياه العنيفة طريقه عبر بساتين نخيل شبام القديمة , ويعري جذور الأشجار . وشيدوا في مجرى السيل سدا من أسمنت وحجارة وبه فتحات لتخفيض قوة اندفاع الماء , يبلغ في مجرى السيل سدا من أسمنت وحجارة وبه فتات لتخفيض قوة اندفاع الماء , يبلغ طوله نصف ميل . فقد دمر السيل السدود القديمة الواحد تلو الآخر , وشيد هذا بتكاليف كبيرة , ويبدو أنه قادر على احتجاز الماء والتحكم فيها .

يمر الجزء الأخير من الطريق إلى شبام مرة أخرى فوق سهل خال من النبات , حيث وصلت العاصفة الرملية الساخنة أقصى درجات العبث . وعلى اليمين المزارع وبعض بساتين النخيل التي تعتمد على الأمطار , وهي تخفي نفسها خلف ستار عريض من الغبار , وفجأة رأينا أمامنا شيئا يشبه السراب : كتلة مربعة رمادية ترتفع عالية فوق الصحراء , ويبدو جانبها الأعلى وكأنه مغطى بالجليد . هناك تقع شبام , نيويورك حضرموت , وواحدة من أكبر مدنها الثلاث ومركز لتجارتها لقرون مضت . وربما كانت مدينة هامة حتى في عصور ما قبل الإسلام . وتحمي مزارع النخيل أسوارها العالية من الرمال الزاحفة , فهي مخفية حتى أن المنظر الخلاب للمدينة العظيمة هي تلوح في الصحراء يفاجئ الشخص الغريب بعنف وهو يقترب من شبام للمرة الأولى من اتجاه القطن . ولا توجد مدينة في حضرموت مصممة بمثل هذا الإحكام وبهذه المنازل العالية مثل شبام . كل المنازل تقريبا لها طابق في السطح مطلي بالجير الأبيض , مما يعطي ذلك الإحساس الرائع بأنها تشبه الكيكة البنية اللون المحلاة بالسكر . والمدنية مطوقة بشكل ضيق بجدار عال متين , ومتداخل لحد كبير مع الجانب الخلفي من المنازل . على بعد مسافة قصيرة من الجدار يمر الطريق فوق قنطرة مشيدة من جذوع النخيل , تمتد فوق قناة الري الجافة , ثم تدخل إلى بساتين النخل . كل شيء مغطى بطبقة من الغبار . كان الجفاف حادا هذه السنة , حتى النخيل التي تمتد على الفيضانات , لم تنتج ثمارا . ويمر الطريق متابعا السور حول المدينة الواحد تلو الآخر , وشيد هذا بتكاليف كبيرة , ويبدو أنه قادر على احتجاز الماء والتحكم فيها .

يمر الجزء الأخير من الطريق , إلى شبام مرة أخرى فوق سهل خال من النبات , حيث وصلت العاصفة الرملية الساخنة أقصى درجات العبث . وعلى اليمين المزارع وبعض بساتين النخيل التي تعتمد على الأمطار , وهي تخفي نفسها خلف ستار عريض من

الغبار . وفجأة رأينا أمامنا شيئا يشبه السراب : كتلة مربعة رمادية ترتفع عالية فوق الصحراء , ويبدو جانبها الأعلى وكأنه مغطى بالجليد . هناك تقع شبام , نيويورك حضرموت , وواحدة من أكبر مدنها الثلاث ومركز لتجارتها لقرون مضت . وربما كانت مدينة هامة حتى في عصور ما قبل الإسلام . وتحمي مزارع النخيل أسوارها العالية من الرمال الزاحفة , فهي مخفية حتى أن المنظر الخلاب للمدينة العظيمة وهي تلوح في الصحراء يفاجئ الشخص الغريب بعنف وهو يقترب من شبام للمرة الأولى من اتجاه القطن . لا توجد مدينة في حضرموت مصممة بمثل هذا لإحكام وبهذه المنازل العالية مثل شبام . كل المنازل تقريبا لها طابق في السطح مطلي بالجير الأبيض , مما يعطي ذلك الإحساس الرائع بأنها تشبه الكيكة البنية اللون المحلاة بالسكر . والمدينة مطوقة بشكل ضيق بجدار عال متين , ومتداخل لحد كبير مع الجانب الخلفي من المنازل . وعلى بعد مسافة قصيرة من الجدار يمر الطريق فوق قنطرة مشيدة من جذوع النخيل , تمتد فوق قناة الري الجافة , ثم تدخل إلى بساتين النخل . كل شيء مغطى بطبقة من الغبار . كان الجفاف حادا هذه السنة , حتى النخيل التي تعتمد على الفيضانات , لم ينتج ثمارا . ويمر الطريق متابعا السور حول المدينة المزدوجة . وتجد السيارة صعوبة في صعود الطريق المعبد , ثم عبرنا من البوابة الأولى إلى الأخرى , التي تبعد عنها ٩٠ قدما . ووجدنا أنفسنا في مربع ترتاح فيه الجمال , فارتعبت من سيارتنا , وتراجعت بأرجلها الخلفية وحاولت الفرار , بالرغم من عقالها وحمولتها الثقيلة . والمربع مقفول من الجانب الأيمن بقصر السلطان الضخم العالي , توقفت السيارة عند البوابة وسرنا مع الجنود صاعدين سلالم طويلة تمتد عبر البنيان الأمامي وخلف الجدار الخارجي إلى المدخل الرئيسي . يعطي القصر انطباعا بالإهمال والاتساخ , والسبب لأن السلطان يعيش في حوطة القطن ويأتي إلى هذا القصر من وقت لآخر ويبقى بضعة

أيام ليباشر مهام الدولة . في كل الأوقات الباقية يعهد أمره إلى الجنود المهملين الذين يسكنون فيه .
أخذونا إلى غرفة بسيطة , سجاجيدها , قديمة مغبرة , يجلس فيها على بساط أوربي سفري رجل شباب طويل نحيف جدا , هو سلطان شبام , علي بن صلاح بن محمد بن عمر بن عبدالله بن عوض القعيطي , ابن الأخ الأكبر لسلطان المكلا . واستقبلنا بهدوء ومودة . كان السلطان مستاء جدا لأن حراسنا لم يعطوه إخطارا كافيا بوصولنا , ولو عرف في الوقت المناسب لاستقبلنا في قصره في القطن , فهو مؤثث تأثيثا مناسبا للاستقبالات .
حاول السيد علوي أن يعتذر , لكن دون جدوى . في هذه الأثناء تم استلاف كراسي من المدينة وضعت في عرفة كبيرة . أخيرا أمكننا أن نرتاح ونغسل طبقة الغبار العالق بأجسامنا . لكن لم نترك لوحدنا أثناء هذه العمليات الخصوصية : الجنود اليقظون في حالة حراسة بل سمحوا لوجهاء شبام في ملابسهم النظيفة بالدخول . فقد سمع أولئك بوصول أجانب فكانوا في الحال في الموقع ليعلموا عنهم كل شيء . جاءوا بعرباتهم الفارهة الجديدة ودعونا بالضيافة العربية أن نذهب معهم بالعربات إلى مدينة البستان أمام شبام و نتناول معهم الشاي في مقصورة حديقتهم . وقبلنا بامتنان , على شرط أن يوافق السلطان على مغادرة سطحه المضياف في الوقت الراهن .

٤) استقبال رائع في بستان المدينة سحيل شبام :

كانت عائلتنا (علي التوي) و (آل لجدم) على أحسن علاقات الصداقة مع السلطان ونظموا معه الأمور . وفيما بعد اخترقت العربات الكبيرة الشديدة الحمرة البوابة وعبرت مجرى السيل في اتجاه بساتين النخيل التي تسمى سحيل شبام . دخلت السيارة حضرموت فقط في السنوات القليلة الأخيرة . وقد جعل السيد أبو بكر الكاف هذه ممكنا بتشييد طريق للعربات . وتأتي أجزاء العربة المنفصلة محملة على الجمال لمسافة طويلة من الطريق . لا يرى من الطريق إلا القليل من بساتين النخيل و المقصورات الصيفية التي تتوسطها , إذ تحجب أسوار الطين العالية الحدائق من حملة العابرين . هناك استثناء واحد , حيث شيدت النقطة المركزية ببناء جديد على نسق حديث . هذا هو نادي شباب شبام , ولا تأتي النساء هنا لذلك ليس هناك شيء يخفونه . وبعد مسافة التفت العربات نحو البوابة التي تقود إلى حديقة آل توي وآل لجدم . هذا هو المقر الصيفي لعائلتهما ولم يسكن بعد , لأن وقت الانتقال من المدينة إلى الريف قد حان لتوه . وتوجد خلف المنزل بئر , يسحب منها الثيران والحمير الماء صافيا كالبلور , وإن كان مالح الطعم قليلا . كل ما حولك ذلك المكان أشجار الباباي والموز , وشجيرات الرمان والليمون وكذلك النخيل . وتقع المقصورة الصيفية في عمق الحديقة , وقد كرس مضيفنا وقت فراغه لبنائه , إنها نتاج الخيال الحضرمي متأثرا بسنغافورة وجاوا . وفي الجدران الخارجية استبدل الأبيض البسيط بالأخضر الناعم والوردي والأزرق السماوي . وبروزت الشبابيك الكبيرة بزخارف ملونة . ويتصل مع الفيلا حوض سباحة به شرفة عالية . ولكم يشتاق المرء سعيدة وسط قمم النخيل الرمادية الخضراء مع لون الصخور الأصفر البني الذي لا يعتبر في الخلفية . إن المقابلة بين هذا الجزء من حضرموت وصحراء الراسب الطفالي لكم أسفنا كثيرا إذ لا يمكننا أن نبقى في هذه الأرض الخلابة إلا فترة قصيرة , لأن السلطان

ينتظرنـا للعـشـاء في قـصره . ورجـع بنـا مـضيفونا إلى المدينـة واستأذنوا السلطان أن يسمح لنا بقضاء الليل معهم في فـيلا حديقتهم . ومنحنا الإذن بل السلطان وعد أن مخدعه بعد أن دعانا أن نجلس على مائدة الطعام على الأرض , ورجعنا بعد ذلك إلى الحديقة على ضوء القمر . وقدموا لنا الشاي والرمان في الشرفة . لم يكن الحديث الذي دار بالملاوية مرهقا وأشعرنا مضيفونا بأنهم يرحبون بناء ترحيبا حارا ويقدرون هذا التغيير في حياتهم الرتيبة جدا . وعندما أردنا أن نسبح في الحوض قدموا لنا ملابس السباحة النظيفة جدا وكذلك أمشاطا وعطورا . القمر يشع فوق قمم النخيل الداكنة الهادئة الصامتة , والماء صاف فاتر . وكنا نسأل أنفسنا المرة تلو الأخرى : " هل هذا حقيقة ؟ هل هذه فعلا حضرموت , المنعزلة , المتعصبة الفقيرة ؟ "

جاء السلطان علي بن صلاح في صباح اليوم التالي حسب الاتفاق , وبدأ على الفور استفسارات فاحصة حول خطة سفرنا القادمة . نحن هنا في أقصى حدوده منطقة القعيطي , ومن الطبيعي أن يثأر السؤال : ما الذي ينتظرنا عند الكيري ؟ أخبرنا السلطان أن تجربتنا سوف تحدد طريق عودتنا . علينا أن نذهب أولا لمقابلة سيد أبو بكر الكاف الشهير في تريم , فإذا وافق ويعتقد أن هناك ما يبرر الدخول في المخاطرة , فعندها , سوف أعود أنا على الأقل , بأقصر الطرق , وسيكون ذلك رأسا عبر منطقة الحموم إلى الشحر . وكانت نصيحة سلطان علي ضد هذا بشدة فالطريق خطير وسيد أبو بكر نفوذ مالي فقط وليس له سلطة حكومية . ولا , يجب أن نعود إلى شبام , ونبقى في القطن , وأثناء بقائنا هناك , نقوم معه بزيارة لآثار الحميريين القريبة . سوف يتولى إعداد الجمال والحمير , ويمكننا أن نعود إلى المكلا عبر وادي حوير في ظرف ستة أو سبعة أيام . ما يقوله سلطان علي يتطابق مع النصيحة التي قدمها لنا الوزير في المكلا وهي التي تمثل موقف القعيطي . لا نريد أن نتخذ قرارا في

الحال , فنحن نفضل العودة بطريق مختلف , لكن من الجانب الآخر , نرغب في ترك الإمكانيات مفتوحة لرحلة العودة عبر منطقة القعيطي , حتى لا نحرم أنفسنا من دعم السلطات هنا .

٥) شبام العالية :

شبام بها ٥٠٠ من المنازل الشاهقة وسكانها حوالي ٨٠٠٠ نسمة . ويصل العدد إلى ٩٠٠٠ نسمة إذا ضم إليهم سكان ضاحية البساتين ومساكن العمال خارج أسوار المدينة . وهناك مدرسة بها حوالي ٢٥٠ تلميذا , أسسها ويصرف عليها مضيفنا , وفي المدينة نفسها خمسة مساجد كبيرة أنيقة , وهي المباني الوحيدة المنخفضة والمطلية كلها بالجير الأبيض , يسافر ربع السكان من الرجال باستمرار إلى الخارج لجمع المال , يذهب الجزء الأعظم منهم إلى المكلا وعدن . وحوالي ١٠٠ في جاوا و٥٠ في سنغافورة . ويملك آل التوي على سبيل المثال , عقارات في سنغافورة , بتافيا , وسرابايا , وعندما تكون الظروف حسنة يمارسون أيضا التجارة . وتعيش حوالي ٣٠٠ عائلة على عقارات الأسرة هذه . كل عقارات أخوة لجدم في سنغافورة . والرأسمالي الشهير باسويدان , وهو مالك أراضي كبيرة وله مئات المنازل في سنغافورة وبتافيا , وهو أيضا من شبام . على أن سيئون و تريم , هما المركز الذي يسكن فيه الحضارم الذين أثروا في جاوا , وفي المدينتين يوجد العديد من رعايا هولندا .

لا يدفع السكان في شبام ضريبة الرأس (الدقنية) مثلما هي الحال في سيئون وتريم وتجبى ضريبة ربع ريال (يساوي الريال في وقتنا روبية) على كل حمولة جمل تدخل بوابة شبام ؛ ويأخذ السلطان أيضا ٤٪ على مبيعات المنازل والأراضي . ويخصص ١٪ من إنتاج المزارع التي تروى بالأمطار لخزينة الدولة , أي أنها تذهب إلى جيب السلطان . ولا تفرض الحكومة ضرائب على الأراضي

التي يرويها أصحابها بجودهم الخاص . يملك السلطان القعيطي في المكلا أراضي كثيرة في مملكته : دخله من مزارع التمباك في غيل با وزير بالقرب من الشحر حوالي ٣٠٠٠٠ ريال في السنة , ويمتلك العديد من بساتين النخيل في وادي حضرموت . على أن دخله الأكبر يأتي من بومبي وحيدر أباد , حيث له أراض شاسعة وعقارات , ويتلقى ١٥٠٠ روبية في الشهر من نظام حيدر أباد نظير خدماته كقائد للفرق العسكرية .

إن ثروات عائلة القعيطي الضخمة هي مصدر قوتهم . فوجود السلطة المركزية , بالرغم من المفاسد الكثيرة ظاهر في منطقتهم , تصبح محسوسة في أي وقت تكون ملحة وضرورية ولا تجد مشقة في الوقوف في وجه آل كثير , المنقسمين على أنفسهم ويفتقدون الدعم المالي القوي .

يتلقى سلطان شبام فقط مرتبا شهريا من سلطان المكلا الذي تربطه به علاقات أسرية .

تتكون القوة العسكرية للقعيطي , في زمن السلم , من ٥٠٠٠ جندي منهم ٢٠٠٠ من الجنود الزنوج العبيد ويوجد منهم في شبام وحدها ١٠٠٠ في الخدمة المستديمة , بينما حوالي ٥٠٠ في الاحتياط لساعات الحاجة , وهؤلاء يعيشون عادة في منازل حسنة حول القطن كلها .

ويقدر السلطان عدد الناس في شبام , والقطن والقرى بينهما في حدود ٢٠٠٠٠ نسمة وهؤلاء كل سكان دولة شبام . ليس من بينهم قبائل البدو المتحالفين بمعاهدة مع الحكومة . أطلعنا سلطان علي على الكتب عن حضرموت التي أحضرناها معنا وبعض الصور الجوية الإنجليزية . وعندها بدا جليا أن السلطان وحاشيته يعرفون القليل جدا عن البلاد خارج حدودهم الصغيرة . ولا يعرف السلطان سيئون ولا تريم , ولم يعرف أي من الحاضرين مدينة الهجرين .

رجعنا في نفس اليوم إلى شبام , قبل مواصلة السفر , لنلقي نظرة على هذه المدينة العجيبة . تكون الشوارع أنفاقا ضيقة

داكنة بين المنازل العالية الرمادية المبنية في صفوف . يوجد في وسط الشارع مجرى صناعي تجري فيه مياه الصرف من المنازل التي تتناثر في الشوارع من البالوعات المصنوعة من جذوع النخيل تجد القطط والحمير والدجاج , مرتعا في الروائح الكريهة المتخمرة . وكنا مرغمين على النظر إلى أعلى باستمرار حتى لا تبدأ تمطر علينا رائحة كريهة من إحدى تلك البالوعات . تتكون المنازل من خمسة أو ستة طوابق الطابق الأعلى فقط مطلي بالجير الأبيض و لا مكن رؤيته من الشارع , وتقام المساجد في الساحات وهي بحق مثل التحف المصنوعة من السكر وسط البيوت العديدة الطويلة الكئيبة التي تحيط بها . في شوارع البازار ازدحام كبير من البائعين والمشترين . الباعة إما لهم دكاكين صغيرة أو أكشاك في الشوارع . و الأبواب والشبابيك في منازل الأغنياء من خشب منحوت نحتا رائعا , وثقب المفاتيح حوالي أربعة أقدام ونصف وغالبا ما يغلق بمزلاج صغير مزين بشكل جميل . الظلام المعتم , الحرارة الخانقة والشوارع الشديدة العفونة , تشكل مرتعا خصبا للذباب والناموس والجراثيم الأخرى التي تنتشر الأمراض .

الفصل التاسع
سيئون , قلب حضرموت الداخل

١) التوغل داخل منطقة الكثيري :

تقع حدود منطقة القعيطي مسيرة ربع ساعة شرق شبام . وهناك على البعد فوق حافة الجبل توجد قلعة ونقطة مراقبة , ويوجد أيضا في السهل منازل من مربعات طينية تظهر النقاط العسكرية البيضاء للدولة الكثيرية في مكان ما بعيدا على امتداد حافة الجبل . قطري اتجاه الجانب الشمالي , الذي يصبح فيه النبات شحيحا , والحرب أيضا في حدها بدقة حيثما توقفنا لأخذ صور . القرى مبنية قبالة سفح الجبل , وتجد في النقاط العالية بائسة وفي طريقها إلى الزوال في الرمال التي تحتضنها . ثم سرنا عبر أن نخترق في بطن الوادي مرة أخرى , إذ يقع هذا المكان في الجانب الجنوبي الماء متوفر هنا , أيضا في بطن الوادي , لكنه مر جدا . والتربة بالقرب من هذه البرك الراكدة مغطاه بطبقة من الملح الأبيض .

تقع سيئون داخل حزام عريض من بساتين النخيل الرائعة ومزارع الذرة , يصل منسوب الماء من ثمانية عشر إلى عشرين قدما فقط تحت السطح وطعمه مالح , لكن يبدو أنه مناسب جدا لري البساتين . لم نر من قبل أشجار مزدهرة ويانعة , وذرة نموها بهذا الارتفاع كما رأينا في هذا الجزء من البلاد . وأصبحت عناقيد التمر ناضجة بفعل الرياح الساخنة , وتغطت العناقيد الآن بالسلال الواقية . يقال إن سيئون أرقى وأكبر مدينة في حضرموت . وتستحق لقبها " الطويلة " لكن أن تلقب أيضا " النظيفة " أو " الجميلة " فالمنازل منخفضة وصغيرة ومتباعدة عن بعضها ليس مثل تلك التي في شبام . كما أن

المياه القذرة والأوساخ الأخرى لا تنهمر بشكل عشوائي في الشوارع إنما تمر في بالوعات مغطاة أو مكشوفة على امتداد الجدران الخارجية للمنازل إلى برك تصريف صناعية محكمة الغطاء . صحيح الشوارع ضيقة , حتى أن سيارتنا كانت تنفذ منها أحيانا بصعوبة لكن الضوء كاف ولا توجد روائح كريهة .وعملنا عند بوابة القصر السلطاني الضخم , إن السلطات تنتظرنا في المقر الصيفي المسمى " عز الدين " لكم أصبحت سيئون مدينة البساتين هذه قريبة إلى قلبي , كثير من العائلات الثرية تعيش في قصورها المحاطة بالبساتين طوال العام , وبعد أن عبرنا بوابة في سور من الطين , صعدنا بالعربة ساحة كبيرة محاطة ببناء طويل أبيض من طابق واحد فقط . وتبرز قمم أشجار النخيل من حافة مصطبة السطح الشاسع , وجزء كبير منه مغطى بالسجاد , هناك ينتظرنا سلاطين سيئون وتريم وهم محاطون بمستشاريهم .

٢) سلاطين سيئون وتريم وبلاطهم :

علي بن منصور بن غالب الكثيري , سلطان سيئون , رجل قصير وممتلئ الجسم , وله عين واحد , لكنه ينظر بها إلى ضيوفه بمودة زائدة . وكان أخوه وأبناؤه الصغار ضمن الحشد الكبير الذي تجمع هناك , وكذلك محمد بن منصور الكثيري ابن أخ سلطان تريم , وهو شاب طويل نحيل وبشرته داكنة جدا . وسلطان تريم دائما مع عمه في سيئون , ويقع قصره الصغير الرشيق قبالة قصر عمه تماما , وهو أكثر جمالا من قصر إقامته الرسمي .

في منتصف مصطبة السطح غرفة مفتوحة من كل الجوانب , لكنها ظليلة أثناء اليوم , حيث تقدم وجبات الطعام . لاحظنا أننا نقترب من تريم وصفائها الحضاري من الماء المثلج الذي كان يمر علينا في حافظات ثلج ضخمة . وسيئون هي موطن كثير من الحضارم الذين راكموا ثروات في جاوا ومناطق المضيق . وكان

استقبال السلطان مفعم بالمبالغة الشرقية حيث قال : " أنت في الواقع سلطان هذه البلاد , فأكثر من نصف سكانها تابعون لهولندا " وفي هذا بذرة من حقيقة , لأن سيئون متأثرة باندونوسيا بشكل كبير , ألا يتحدث حاشية السلطان دائما بالملاوية ؟ ألا يسمع المرء هذه اللغة من أفواه الأطفال في شوارع المدينة ؟ وقد دخلت كلمات مختلفة من جاوا إلى اللهجة العامية . والوجبات التي تقدم وجبات جاوية أصلية من الأرز . حتى الخيول القليلة في سيئون مستوردة من غرب جاوا . وحسب ما ذكر السلطان , توجد حوالي ثلاثين امرأة جاوية جاء بهن أزواجهن ولن يعدن أبدا إلى بلادهن . ويمكن ملاحظة اختلاط الأجناس من الوجوه ومن ملامح الأطفال في الشوارع .

تدفقت الماقشات مناسبة ولم تقاطع إلا بالصلاة والوجبات . يواجه السلطان مشاكل كثيرة من أعدائه الذين يعملون من خلف ظهره بمساعدة الأموال المجلوبة من جاوا , فلا غرابة إذا كانت له طلبات كثيرة وكلام كثير يريد أن يقوله لمبعوث هولندا . سوف يكون مسرورا إذا حصل على مساعدة هولندا ليقهر أعدائه في جاوا . فإذا صدر مرسوم من حكومة هولندا يهدد بعقاب كل من يساعد حركة ثورية في بلاده , سوف يعتبر كافيا هنا . دار حديث مطول خلال الأيام التالية حول هذا الموضوع ومواضيع أخرى متصلة به . أثير فيما بعد سؤال آخر في تريم بين دائرة السادة , خاص بالصراع بين السادة الحضارم والحضارم الذين لا ينتمون إلى هذه الطبقة المميزة ,واعتبروا أن حكومة هولندا تتبع خطأ محايدا جدا و ديمقراطيا جدا .وعلى الرغم من المناقشات الحامية والخلافات العميقة في وجهات النظر التي برزت إلى السطح ,فإنها لم تعكر بأي حال حرارة الضيافة ,فوجدونا هنا مرة أخرى تجربة مدهشة . كما طلب منا أيضا بلا استثناء أن ندلى بانطباعاتنا عن حضرموت .كان هذا الطلب بغرض سماع رأينا حول انعدام الأمن القانوني , وفقر الناس المدقع , وتخلف البلاد في مجال التعليم والطرق والري . كانت

محاولاتي بإبعاد نفسي خارج اللعبة بعقد مقارنات بين الأوضاع هنا وفي بلدان عربيين تعرفت عليهما وهما الحجاز واليمن , ورغم أن مقارناتي كانت تتابع باهتمام إلا أنها لم تخدم غرضي . ففي النهاية يقوم السلطان أو أحد مستشاريه بسؤالنا مباشرة عن رأينا في حالة الأوضاع هنا , عندها لا يمكن تحاشي الإجابة , فننفجر بصراحة معبرين عن خيبة أملنا حول انعدام الوحدة وحالة الحرب وهما عار على القادة الحضارم , الذين عرفناهم في جاوا رجالا مقتدرين ونشطين ومواطنين مسالمين . ثم أقول لهم عليهم ألا يبحثوا على مساعدة من الخارج , سواء من انجلترا أو هولندا , أو من أي دولة أخرى يتوقعونها , بل عليهم أن يبحثوا عن الوحدة في أنفسهم و يشمروا أيديهم إلى المحراث بثقة في النفس , وبعون الله , سوف ينجحون في وضع أجزاء كثيرة من منطقة الكثيري ولم نلاحظ أن ذلك أفسد علاقاتنا الممتازة بأقل درجة .

ما أن يلمح السلطان رغبتنا في الراحة , حتى يعطي إشارة بالانسحاب فيتبع كل الحضور مليكهم وسيدهم خارج الغرفة , ما عداء بعض الخدم الذين يجتمعون مبتهجين الليل , ولايخطر ببالهم أننا نحن الأوربيين ربما لا نريد سماع القصص التي تحكي والأغاني التي يترنمون بها . كانت ليالي لا تنسى تلك التي قضاها فوق مصطبة السطح الكبير , في " عز الدين " حيث يلتمع القمر فوق قمم أشجار النخيل حوالينا وتضئ النجوم فوقنا سماء الجزيرة العربية .

دعانا السلطان يوم ٢٥ مايو إلى جولة بالسيارة عبر بساتين سيئون , وتهادت العربتان بين بساتين محاطة بأسوار من الطين , اختلفت المنتجعات الصيفية البيضاء وسط أشجار النخيل بعيدا عن أعين الفضوليين . أخذونا إلى حائط الجبل حتى نتمكن من رؤية سيئون الجميلة جيدا , فتسلقنا التل على منحدرات حطام الصخر . فالتمعت المدينة وهي تقع عند سفح حائط الصخر , فأعطيت بذلك انطباعا مترفا . ويقف

قصر السلطان في أعلى مكان فيها , وهو أفضل نموذج يمر علينا لفن المعمار الحضرمي للقصور . وكل مصاطب السطوح والغرف المبنية فوقها مطلية بالأبيض . وبقية المنازل شريطان أبيضان في خط مع النوافذ , بينما منافذ التهوية محاطة ببرواز أبيض . أركان المبنى الضخم الطويلة خط مع المستطيلة ,محصنة بأبراج زينة مستديرة . تصبح جدران الطين السميكة في الأعلى رفيعة أكثر مما هي في أسفل , لذلك فالجدران الخارجية ليست عمودية , أنما تنحدر نحو الداخل , مما يعيق الانطباع بالقوة والجمال في المبنى . ويقوم القصر فوق مصاطب مشيدة في جدران داخلية , بها منازل حراسة عند البوابات , ومخازن بارود , واسطبلات ومساكن الجنود .وعلى بعد مسافة قصيرة يقع القصر الأنيق , وكله مطلي بالأبيض , لكنه أصغر لحد ما من قصر سلطان تريم .

تقع المقبرة تقريبا في وسط المدينة وبها خمسة قبور لأولياء تعلوها قباب مهيبة تكريما لهم . وتبرز العديد من المآذن في المدينة فوق بحر المنازل , لتذكرنا بأن سيئون كانت في وقت ما قاعدة شهيرة للدين والعلم . وتتصل المدارس بالمساجد وما زالت هي الحالة مع باقاياها القليلة . وتحيط بالمدينة حافة عريضة من بساتين النخيل , تتخللها المنازل الصيفية البيضاء هنا وهناك . ومنازل آل السقاف بارزة نسبة لعددها وحجمها .

أرغمتنا الشمس على مغادرة التل الصغير العاري , لكن وعدنا السلطان بجولة أرى مماثلة في المساء . سنلتقي مرة أخرى على الغداء في قصر سلطان تريم ، الذي يستضيفنا اليوم .كانت الحرارة عالية جدا عندما غادرنا مدينة البستان واتجهنا إلى القصر . واستقبلنا مضيفونا في ممر عريض , وهو المكان الوحيد الذي به نسمة باردة . فرش الممر بسجاد جميل , وفي أحد جوانبه منضدة حولها كراسي , لكن ذلك لم يستمر طويلا . فسرعان ما جلسنا كلنا على الأرض . واتكأنا على المساند كما

هي العادة هنا . وتناولنا الطعام في قاعة بها صفان من الأعمدة , فلا يمكن الحصول هنا على عوارض السقف الطويلة القوية , حيث الخشب نادر وقصير , فلذا كل الغرف الكبيرة بها أعمدة يرتكز عليها السقف . فرشت قطعة قماش طويلة على السجاد في وسط الغرفة . وجلست المجموعة الكبيرة حولها وسيقانهم متعارضة تحتهم , ومع كلمات قليلة وإيقاع سريع , وأخذوا يلتهمون وجبة الأرز الجاوي الجيد الطهي الذي وضع أمامهم .

بدت الغرفة خالية إلا من الزخارف على جدرانها من مرايا ونسخ من لوحات إنجليزية قديمة , وصور فوتغرافية من جاوا وسنغافورة وساعتين على الحائط يهما أجراس موسيقية .

تناولنا الشاي في غرفة استقبال صغيرة بها أثاث حديث . إن الجديد في حضرموت أقل درجة في أدائه من الناحية العملية من القديم الأصلي . والطقس حار جدا هنا , فحمدنا اللّه جميعا عندما انفض اللقاء .

أخذنا السلطان في العصر بسيارته إلى سهل شاسع حيث ينحسر حائط الجبل . يريد أن يستنير برأينا حول مطار يريد إنشاءه هنا . ستكون الطائرة وسيلة مواصلا مثالية بالنسبة لكل الجزيرة العربية , خاصة لحضرموت . فالمسافات ليست بعيدة فحسب , وبعد الاتصالات ليست شاقة ومساحات الأرض شاسعة وماؤها غالبا ليس شحيح بل فوق هذا فإن الحروب الداخلية التي لا حصر لها تجعل الحركة خطرة وترغم المسافرين على سلوك طرق ملتوية جدا . لذا فالحضرمي قل أن يعرف بلاده جيدا . أخبرني حضرمي عالم عرفته من قبل بصدق تام قائلا : " أنا أعرف كل براكين جاوا وكل المحطات في خطوطها الحديدية الرئيسية , لكني لا أستطيع أن أعطيك معلومات عن الوديان والجبال التي تبعد بضع ساعات من موطني " أما سلطان سيئون فاستثناء إيجابي نسبي عن هذه القاعدة فقد زار عدن , ذهب إلى هناك لحضور مؤتمر عقدته السلطات البريطانية

,حيث تمت محاولة للوصول إلى تسوية سليمة للخلافات بين الحكام القعيطيين والكثيريين .وله الرغبة ليرى أكثر عن العالم بما في ذلك جاوا , فثلاثة أرباع رعاياه لهم فيها مصالح . لكن عبور الحاجز القعيطي هو الصعوبة الكبيرة لهذا فالطائرة ضرورية . والموقع لمطار المستقبل الذي شاهدناه مناسب تماما .
تم لقاء مرة أخرى في المساء في مصطبة سطوح " عز الدين " والموضوع الذي طرح للنقاش هو فقر حضرموت وكيف يمكن الخلاص منه . إن منسوب الماء في سيئون وما حولها ليس عميقا , وهو السبب في وجود بساتين نخيل يانعة ومز راع ذرة . لكن لابد من زيارة إمداد الماء إذا كان له أن يدفع الناس حقا إلى الأمام . لن يتحقق هذا بمضخات الماء لأنها مكلفة جدا من الناحية العلمية . فمضخة الماء إذا كان له أن يدفع الناس حقا إلى الأمام . لن يتحقق هذا بمضخات الماء لأنها مكلفة جدا من الناحية العلمية . فالمضخة في هينن تعمل ثمان ساعات في اليوم لتروي بضعة أفدنة من الذرة و٢٠٠٠ شجرة نخيل , وهذا يكلف جازا وزيوتا للتشحيم أكثر مما يعود به محصول الأرض المزروعة . التربة في سيئون أفضل والماء أقرب إلى السطح , وأثبتت التجارب هنا أيضا أن مضخة الماء غير مجزية . هل يمكن تحسين الأوضاع بواسطة آبار ارتوازية ؟ طلب منا السلطان أن نساعد بإرسال خبير ومعه المعدات الضرورية . وقال إنه في وقت من الأوقات في أيام مملكة الحميريين , لابد أن حضرموت كانت مزدهرة . فقد انشئت خزانات ري ضخمة لتجميع وتوزيع الماء . ما عاد هناك جهد موحد . فأصبحت الخزانات حطاما وخرابا , والآن , في كل سنة , هناك كميات من المياه التي تمنح الحياة تنساب إلى البحر وتذهب هدرا . وقد فحصت هذه المسألة مرة أخرى فيما بعد في تريم بشكل شامل .
تحدد يوم ٢٦ مايو لمغادرتنا إلى تريم . وضعوا تحت تصرفنا في الصباح , عربات لتمكننا أن نأخذ جولة في المدينة وما حولها ونأخذ وصورا فوتغرافية .واغتنمنا هذه الفرصة شاكرين , فقد

مكنتنا من وضع سجل بالصور لبعض المنازل الأنيقة والمناظر لمنزل السقاف في المدينة كان من المستحيل أن نتحاشى دعوة السيد هو السقاف بإصرار لتناول معه كوب الشاي , ووعدناه بتلبية دعوته حال ما ننتهي من أخذ الصور . ولا يمكننا أن نمر على المقبرة دون أن نأخذ لقطات لبعض المقابر وقبابها ذات اللون الأخضر وجمالها الذي يخلو من المباهاة . هناك عدد من المساجد الصغيرة في منظر خلاب . هذا قصر وتعطف السلطان وسمح لنا بالتمتع بجمال سيئون من فوق سطح قصره . الملاحظ هنا في هذا القصر النظام والنظافة التي تكاد تومض في وجه الزائر . إن القصور بشكل خاص التي بها مساكن للجنود وللعديد من الزوار , يكون الوضع العكسي فيها هو الغالب , ومضى بعض الوقت قبل أن يخطر النسوة في الممرات والسلالم بقدومنا .وعند ما أنجز هذا بنجاح تهادينا عبر ممرات الطين الخاوية وصعدنا درجات السلم المتساوية المشيدة تشييدا جيدا إلى السطح الأبيض المشمع . هنا شاهدنا أروع منظر في حضرموت بذلت تريم جهدا كبيرا في قصورها الفخمة لتتساوى مع سيئون , لكن هنا الرشاقة , هنا التنوع البهيج للخضرة العميقة , الحدائق المترفة والمنتجعات الصيفية الأنيقة , وهنا التمسك بالأسلوب الحضرمي نقيا ومتجانسا .

كان كوب الشاي ينتظرنا في منزل سمي النبي العظيم هود . استقبلنا سيد هود السقاف بشعره الأشيب بمودة فائقة وقادنا إلى غرفة , في منزله الملوكي المشيد بالطين , واختفت قطعة القماش المفروشة على الأرض تحت صحون الفطائر والحلوى والفواكه المعلبة . بل قدم لنا سيجارا هولنديا مع كوب الشاي الجاوي الممتاز . كان ذلك تعبيرا عن عرفان كبير للمعاملة الممتازة التي قدمتها حكومة غربية مسيحية . كانت زيارتنا إلى سيد هود قصيرة , لكن كل لحظة فيها كانت مفعمة بضيافة حميمة .

ودعنا سلطان سيئون في العصر , وكذلك أبناءه وأخاه ,ومستشاريه وخدمة , وأيضا سلطان تريم وأخاه ومستشاريه وخدمة , وأيضا سلطان تريم وأخاه , ونحن نردد " إن شاء الله نلتقي مرة أخرى " . ووقفنا جميعنا على سلالم مدخل " عز الدين " الأبيض : لقد سار اللقاء الأول مع الحكم الكثيري بشكل ممتاز جدا . فخرجنا به من المناقشة بانطباع هام هو أن الحالة السياسية في بلادهم أبعد من أن تكون مثالية هم يشعرون أيضا بهذا ويرغبون في تحسينه من كل قلوبهم . لقد عرف وجهاؤهم عن كثب بلادا تحكم بشكل جيد مما يجعلهم تواقون لوضع حد لنزاعاتهم وللأمن والقانون , من أجل سلامة الإنسان ,ومن أجل توحيد الجهود لحرث الأرض لتحقيق التقدم في البلاد , ولفتح الطرقات للاتصال بالعالم الخارجي , الذي يسير قدما دون ان يزعج نفسه بحضرموت الراكدة. وحتى الحكام والوجهاء يسمون بلادهم باستمرار أرض النعاس ويضيفون: " النوم مثل الموت " .الشيء الأولى الضروري للتحسين موجود من قبل : إنهم غير مقتنعين بالأوضاع القائمة ، والعناصر النشطة بينهم شاهدت أوضاعا مختلفة في الخارج . ان التعب الذي يغلق بلاده عن العالم الخارجي , الذي يغلق بلاده عن العالم الخارجي , الذي يسير قدما دون أن يزعج نفسه بحضرموت الراكدة , وحتى الحكام والوجهاء يسمون بلادهم باستمرار أرض النعاس ويضيفون : " النوم مثل الموت " .

الشيء الأولي أو ضروري للتحسين موجود من قبل : إنه غير مقتنعين بالأوضاع القائمة , والعناصر النشطة بينهم شاهدت أوضاعا مختلفة في الخارج . إن التعصب الذي يغلق بلاده عن العالم الخارجي , من أجل الحفاظ على دينه وعلى قداسة تربته من الانتهاك , أصبح من الممكن التغلب عليه أكثر فأكثر . إن السادة أنفسهم , حماة العقيدة وأرض الأجداد , هم أكثر العاملين بجد لإزاحة الحواجز التي تحيط ببلادهم .

الفصل العاشر
تريم , أمل حضرموت كلها

كنا قد سمعنا من قبل في منطقة القعيطي باسم السيد أبو بكر الكاف ويذكر اسمه دائما مصحوبا الاحترام , والآن دخلنا منطقة نشاطه . لقد سخر سيد الكاف طاقته وحبه وكل ممتلكاته لخدمة بلاده وشعبه . ونموذجه دعوة قوية للوحدة ولطرح المصالح الشخصية والحساسيات جانبا من أجل الصالح العام , فالمدارس التي تبرع بها وما زال يصرف عليها تنتشر في كل أنحاء البلاد . وقد خصص سلاطين القعيطي والحكام منازلهم لها , وسوف يخترق نفوذ هذه المدارس الصغيرة بالتدريج كل البلاد . ومشروعه الثاني المثير , الذي سيكون له أهمية قصوى بالنسبة لمستقبل البلاد , هو تشييد طريق للسيارات من وادي حضرموت إلى الساحل . رغم أن الطريق لم يكتمل بعد إلا أن أره بدأ يكون محسوسا . وقد تم قهر العقبات الصعبة حتى تتمكن العربات من الوصول إلى وادي حضرموت , بالرغم من أن الترحيل ما زال مكلفا , وعندما تعبر أول سيارة فسرعان ما تتبعها أخريات , وسوف تجد السيارات تقديرا خاصا في هذه البلاد لأن السفر فيها مرهق وبطيء . و الحضارم الذين حققوا نجاحا في الخارج لا ينقصهم المال فعندما تظهر السيارات فلن تختفي مرة أخرى , عندها سوف تتغير الأوضاع داخل حدود حضرموت تغيرا كاملا . وبدأ تشييد الطرق في الوادي نفسه دون إبطاء , ووجد سائقو العربات والميكانيكيون طريقهم إلى هناك . وظهر أثر المضايقات التي تسببها الحروب الداخلية بشكل واضح وفعال , وسوف يدعم السيد أبو بكر

دخول العربات ضمن العمل العظيم الذي يقوم به لتهدئة حضرموت وفتح سلبها .
غادرنا على سيارتين أنيقين يمتلكها سلطان سيئون إلى تريم , المدينة التي سبقنا إليها " ليو هيرش " قبل أربعين سنة وأرغمه تعصب السادة وكراهيتهم للمسيحيين على الهرب منها بعد ساعات من وصوله . وقبل عام كامل من مجيئنا , وصل رجل إنجليزي " مستر بوسكاوين " , لكنه لم ينشر وصفا لرحلته , وذكر حسب ما جاء في التقرير له جاء من أجل السياحة . وفي إحدى المرات حلقت عاليا فوق المدينة طائرات سلاح الطيران الملكي البريطاني , بقيادة المقدم كوشان والمقدم ليك والملازم طيار ركاردز , لكنهم كانوا يقومون باستطلاعات جوية , على الرغم من أن الطيارين أنفسهم كانت لهم رغبة قوية ليضعوا أقدامهم في هذه الأرض الرائعة . يقول الحضارم عنها : " تريم ولا تروم غيرها "
سارت بنا العربات فوق ممرات متعرجة عبر الامتداد الهضبي من الرمال والراسب الطفالي الذي يقع خارج المدينة . تزرع في الرمال أشجار النخيل على مسافات بعيدة من بعضها البعض , وانتهت مزارع الذرة لكن ما زالت السدود الصغيرة تشاهد لمسافة طويلة بعد ذلك في المنطقة التي يمكن أن تزرع عندما تأتي أمطار كافية . وسرعان ما عبرنا على أنقاض مدينة " مريمة " , ولعلها من ماضي بعيد.لقد أصبحت القلعة والمدينة حطاما بعد حرب محليه , ولم يبق من زراعة الأرض إلا السدود الصغيرة التي تقسم المزارع إلى مربعات . يوجد بالقرب من مريمة طريق قديم يتجه جنوبا فوق حائط الجبل . وتسلق رفيقي هذه العقبة التي تسمى " دقة الأسود " ووجد على جدار الصخر الجبل بالقرب من الجول رسومات ونقوش ربما صنعها البدو العابرون بقوافلهم قبل قرن عديدة مضت . اختفت القرى وبساتين النخيل بعد مسافة عند سفح الجدار . الجبل الجنوبي وتلاشي الراسب الطفالي تحت طبقة سميكة الكثافة من الرمال

وكثبان الرمال فوحلت للسيارات عدة مرات . كان السلطان قد نصحنا بأن نتفادى الطريق المألوف إلى تريم وأخذنا بنصيحته , لكن تابعنا طريق الجبل الذي شيده السيد الكاف , عندما دخلت العربات إلى حضرموت قبل سنوات خلت , كانت تريم في حرب مهما كانت وبمجهوه الكبير ونفقات كثيرة شيد طريقا فوق الصخرتين البارزيتن اللتين تفصلان تريم عن سيئون .

كان سلطان سيئون فخورا بهذه القطعة من الهندسة الحضرمية لذلك أصر أن نسلك هذا الطريق . من الصعب على سائقي السيارات عبور الوادي عند هذه النقطة , تحاشي المرتفعات والمطبات , ثم الوصول في النهاية إلى طريق الجبل المتعرج عند قاعدة الصخرة . يظل الطريق الضيق الشديد الانحدار صاعدا إلى أعلى عكس منحدر حطام الصخر , تستطيع السيارات الصغيرة فقط أن تلف بلباقة عند الزوايا الحادة . تتوقف السيارة في منتصف الطريق لتبرد وليأخذ السائق فرصة ليسترد أنفاسه , ونحتاج نحن أيضا لنستجم من التوتر . فالهبوط م الجانب الآخر للحافة بانحدارها الحاد ربما كان أكثر صعوبة من الصعود . كان على سائق أن يعتمد فقط على الفرامل ويبدو أنه غير قادر على تقليل السرعة بان يترك السيارة تنطلق بالترس المنخفض دون زيادة البنزين . كنا قد اقترحنا ذلك , ولكن يبدو أنهم لا يثقون في اقتراحاتنا , فسرعان ما أصبحت الفرامل ساخنة فكان لابد من تبريدها بالماء الذي حملناه معنا في القرب . وتم قهر السلسلة الثانية من الصخور دون حادث مؤسف , على أني أفضل الهبوط على الأقدام .

١) تريم – ولا تروم غيرها :

شاهدنا أول منظر لتريم من حافة الصخرة التالية . فهي في السهل الصخري القاحل جدا وشريط الأرض المزروعة أضيق من مثليه في سيئون , و لا يبدو عليه وفرة النمو والخصوبة , لكن العدد الكبير من الأماكن المربعة الكبيرة كان ظاهرا من الوهلة الأولى . هي ليست رمادية وبيضاء كما في سيئون , بل خليط من كل الألوان الزاهية . أحدها كله أزرق اللون , مما جعله بارزا جدا , في البعض الآخر يغطى الأصفر والوردي . وهناك مئذنة عالية جدا , مربعة وليست مستديرة , مطلية بلون أزرق خفيف , ترتفع عالية فوق أشجار النخيل والمنازل . تريم كمدينة , شيء بذاتها . هي مدينة العديد من الأغنياء : يمكن ملاحظة ذلك حتى من بعد .

يقود الممر الجبلي إلى سهل مغطى بجلاميد صخر صغيرة . يوجد طريق جيد يبدو أنه استعمل كثيرا , يتجه رأسا عبر منطقة السهول إلى بوابة تريم . ويحيط بالمدينة سور طيني يبدو أنه حديث التشييد به ثكنات عند البوابة وحصون عند الأركان في حالة جيدة ويضم في داخله بساتينها ومقبرتها , ويصعد عاليا إلى جدار السور على الجانبين . الحرب ظاهرة عادية حول تريم وتحتاج المدينة إلى حماية قوية . وتولى السيد أبو بكر الكاف تشييد وصيانة الأعمال الدفاعية بالمدينة , وتحمل نصيب الأسد في النفقات .

ما إن عبرنا البوابة حتى قادنا الطريق عبر مقبرة مصانة جيدا بها ثلاث قباب تكريما لرجال صالحين دفنوا فيها , وكذلك مسجد صغير . بعد أن عبرنا شارعنا ضيقا ملتويا , وصلنا إلى منزل السيد أبو بكر الكاف ذي الشهرة الواسعة . المنزل كبير لكن لم يكتمل بناؤه بعد . اجتزنا بوابة طينية إلى الحديقة , التي يقوم فيها العمال بالبناء بأدات تستعمل في الأبنية الطينية , كان الفقراء ينتظرون الصدقة , والزوار في غدو ورواح .

قادونا إلى الجناح الجديد , إلى غرفة استقبال مؤنثة على النسق الغربي , هنا قابلنا مضيفنا وحاشيته المعتدة من الرجال .

٢) قضينا أياما جميلة مع السيد أبو بكر الكاف وعائلته وأصدقائه :

السيد أبو بكر الكاف في منتصف العمر , لبسه أكثر بساطة من زواره وأقاربه . ولا يجب أن يظهر في المقدمة فكان يحدق فينا في البداية بجد وبعين فاحصة , يقول القليل , لكنه يدفع بالآخرين إلى الإمام . والطبيب الهندي الشاب الذي جاء به قبل عام كان أول طبيب تلقى تدريبا غربيا يعمل في حضرموت , وأوكل إليه استقبال الزوار الأوربيين . فكان هو والسيد علوي العطاس رفيق رحلتنا يتناولان الطعام معنا دائما ويجلسان بجانبنا على المائدة , بينما يجلس السيد الكاف والضيوف العرب حول المائدة على الأرض , حسب عادة البلاد .

كانت دهشتي كبيرة أن ألتقي مرة أخرى , في هذا المحيط , مع السيد محمد بن هاشم بن طاهر , وهو عالم حضرمي , لعب لفترة طويلة دورا هاما في مجالي التعليم والصحافة في جاوا .

أما السيد عمر بن شيخ بن عبد الرحمن الكاف , الأخ الأصغر لمضيفنا الذي كان يستجم في تريم من نشاطه التجاري المرهق في سنغافورة , كان يزورنا يوميا في المنزل . وضعت تحت تصرفنا غرفة كبيرة في حجم صالة لننام ونعمل فيها وتركت لنا حرية تامة , فعندما نريد رفقة الناس نذهب إلى المجلس , الذي يتحول بعد الغروب إلى ساحة واسعة تفتح عليها غرفتنا . هناك تقدم وجبة العشاء , وتقرأ الصحف مع العديد من أكواب الشاي المنعشة , وتقال أشياء كثيرة نستمع لها .

كان من عادة الأعضاء العديدين لعائلة الكاف العظيم أن يقوموا بجولة بالسيارة عند المغيب في ضواحي تريم ليستنشقوا هواءها منعشا في هذا العدد الفصل الحار من السنة . ويؤدون فيما بعد صلاة العشاء معا في منزل أو حديقة

أحد أفراد الأسرة . ومن عادة الشباب اللقاء في حديقة السيد عمر , التي بها حوض سباحة كبير يجدد ماؤها .
دائما من مضخة يوتز – منسوب الماء هنا ٤٥ قدما تحت سطح الأرض فكانت مركز جذب فأجنا مع الطبيب الهندي الشاب , أعضاء منتظمين في المجموعة . لا يشجع دفء الماء على الاستحمام , لكن عندما تتعرض أجسامنا المبتلة لهواء المساء الجاف يسبب بكل تأكيد أثرا باردا منعشا . هناك بالطبع خادم مع السامورا , يقدم أكواب الشاي , وهو شيء مفضل دائما في هذه البلاد بحرارتها الجافة . ويقدم من الحدائق أكثر التمور نضجا , وهي حلوة لكنها قابضة جدا . ثم يتعود الأجنبي ببطء على هذا الطعام غير المألوف . وهو غير شهي في البداية . على أننا سرعان ما تعودنا الاستمتاع بالتمر وهو ما يزال قويا وطازجا .
كان الاستحمام في ضوء القمر رفاهية ليست في الحسبان ومتعة جميلة لنا في هذه البلاد . توجد مصلاة في أحد الجوانب قريبا من حوض السباحة , وفي الجدار محراب يوضح القبلة , أي شيء فيه مسحة ضياء , لون ناعم , وخطوط الجدران والسقف محلاة بأشكال وحواشي زخرفية , ويكاد المرء ينسى أن المادة التي صنعت منها طين بني عادي . قضينا وقتا طويلا مع الشباب في مودة أخوية . وانطلقوا على سجيتهم الآن حيث لا يوجد أ فراد الأسرة الكبار . وتجري مباريات السباحة والغطس بحيوية دافقة , حتى يحين وقت صلاة العشاء , فتؤدى بالخشوع المناسب . الأمسيات في المنزل فوق السطوح الواسعة , دائما جذابة , حيث يبقى حتى ذلك الوقت فقط الأصدقاء الحميمون , يطرح مضيفنا أسئلة توضح جليا أن أفكاره دائما منصبة نحو بلاده وشعبه , و البحث عن سبل تطويرها .
تعرض تشييد الطريق إلى الشحر لصعوبات جمة . يمر جزء كبير من الطريق بمنطقة بدو الحموم , الذين اشهروا بحبهم للقتال , فوقع معهم السيد الكاف إتفاقا – بعد أن دفع لهم بسخاء –

وتعهدوا أن لا يعارضوه إذا التزم السيد أبو بكر بأن لا يسمح باستعمال الطريق إلا للمسافرين بالسيارات , ويترك نقل البضائع لجمال البدو . بقي جزء بسيط لم يكتمل عبارة عن مسيرة ثلاثة أيام بالجمال . يتوقع السيد أبو بكر نشوب صراعات كثيرة بين البدو في المستقبل , لذلك يفكر في إمكانية تدشين خدمات الطيران بين تريم والشحر . فمنذ أن رأى الطائرات البريطانية تناور فوق تريم , وسمع بالانطباع العميق الذي تركته هذه الطيور المجهولة الضخمة على البدو , نما لديه اقتناع أن الطائرات هي الوسيلة الحاسمة التي يمكن أن تخضع البدو للنظام وتبقيهم تحت قبضته . فلا يمكن مقارعة الطائرات بالسيف والبندقية , والوديان ليست عقبة أمامها , ولا يوجد موقع في الجول الأجرد يمكن أن يلفت من عين الطيار الفاحصة . يرى السيد أبو أن برهانا علميا واحدا , يوضح الآثار الرهيبة التي تحدث من إلقاء قنبلة واحدة من طائرة , تكفي لوضع حد الحروب البدوية التي استمرت لعدة قرون , وسوف تكون هذه أول خطوة نحو تقدم حقيقي للبلاد ونصحناهم – بالرغم من أنهم يعرفون الطائرات الهولندية الفوكرز في جاوا والأنواع الشبيهة , مثل الجنكرز في اليمن – أن يستشيروا السلطات البريطانية في عدن ليدبروا لهم نفس الأنواع التي يستعملونها .

قما بجولات بالسيارة في عصر الأيام التالية في ضواحي تريم , لنرى المكان الذي يصلح مطارا . واختار رفيقي بخبرته الموقع الموضح في خريطة تريم , على الشرق من " الحاوي " به فقط جزء بسيط يحتاج إلى تسوية , فهو قريب ومتصل بالمدينة وليس قريبا جدا من حائط الجبل بانحداره الحاد , كما أن التضاريس الأخرى قيد البحث . وبناء على طلب السيد أبو بكر قام فون فيسمان بوضع خريطة كروكية للمهبط المقترح وما حوله لتقديمها لحاكم عدن عند التشاور معه حول إمكانية السماح للطيران الملكي البريطاني بالهبوط في مثل هذه الأرض . كان صديقنا الحيوي السيد حسن العطاس من حريضة , قد عمل

بعثة الجنكرز في اليمن , وسوف يوكل إليه عمه السيد أبو بكر في النهاية تنفيذ مشروعات الطيران هذه .
أخذونا في صباح اليوم الأول لوصولنا لمشاهدة ما يسمى (بقرة الوحش) وهي هدية للسيد أبو بكر من بعض البدو الذين قبضوا عليه حدود الربع الخالي . يبدو أن بقرة الوحش انتلوب (نوع من الضباء) أبيض بخطوط سوداء وقرنين طويلين مستقيمين . لقد عاش الحيوان الضخم الجميل في الأسر اثنتي عشرة سنة , ويبدو في حالة جيدة , ما عدا حوافره التي نمت طويلا نتيجة لعدم الاحتكاك .
وجدنا في الإسطبلات في الطبق الأرضي لمنزل السيد أبو بكر , بعض الحجارة بها نقوش أحضرها البدو من أنقاض " سون " ولفت هذا انتباهنا نحو منطقة الأنقاض , ووعد مضيفنا أن ينظم لنا رحلة غلى هناك .

٢) قصور تريم :

قمنا في ما بعد بزيارة للسيد عمر بن شيخ الكاف , الأخ الأصغر لمضيفنا , وقد أشرنا إليه قبل , وقد انتهى لتوه من ترميم منزله يقال إنه أجمل منزل في تريم , ويكثر الحديث عن القصور في هذه المدينة . منزله ملفت نسبة لاتساعه وألوانه . الجزء الخارجي مطلي بأزرق غامق , وزين صف النوافذ الطويلة الفخمة وحواشيها بلون أصفر . استعمل كذلك اللون الوردي والأخضر . أما الأسلوب فهو هندي أكثر مما هو حضرمي كل المنازل الفخمة في تريم لها سمات خاصة بها لا يشاهدها المرء في مدن حضرموت الأخرى . فهي ضخمة , و مربعة الشكل , وبها صفوف طويلة من النوافذ وامتدادات السطوح محدودة والزخرفة قليلة في أعلى الجداران والشرفات . والطابق الأرضي فخم جدا , ويوجد به عادة مدخلان عاليان بالقرب من أبواب التيك , تقود إليهما سلالم من طين . يمكن ملاحظة علامات الاتصال الوثيق مع البلاد الأجنبية خارج وداخل هذه القصور , بالذات مع سنغافورة وأيضا جاوا , مثال ذلك , يبدو أن الممارسة

السائدة هنا هي استيراد الأبواب جاهزة من جاوا وسنغافورة . إن ترحيل هذه الأبواب الثقيلة وبراويز الشبابيك هو بكل تأكيد مكلف وشاق , لا بد من اختيار أقوى وأضخم الجمال لكن كمية الأخشاب في حضرموت قليلة وأنواعها رديئة ولا يمكن أن تكفي للمباني الضخمة الجديدة في تريم في زمن قصير كهذا . مثل هذه النفقات الزائدة محتملة لأن تكلفة بقية المبنى في حضرموت قليلة وأنواعها رديئة ولا يمكن أن تكفي للمباني الضخمة الجديدة في تريم زمن قصير كهذا . مثل هذه النفقات الزائدة محتملة لأن تكلفة بقية المبنى في حضرموت قليلة . فالعمالة رخيصة في هذه البلاد الفقيرة الزائدة محتملة لأن تكلفة بقية المبنى في حضرموت قليلة وأنواعها رديئة ولا يمكن أن تكفي للمباني الضخمة الجديدة في تريم في زمن قصير كهذا . مثل هذه النفقات الزائدة محتملة لأن تكلفة بقية المبنى في حضرموت قليلة . فالعمالة رخيصة في هذه البلاد الفقيرة المكتظة بالسكان . حتى الفنيين من الدرجة الأولى بما في ذلك المهندسون المعماريون لا يحصلون على أكثر من أجر يومي معتدل جدا . والمادة الرئيسية المستعملة في البناء هي الطين , الذي يحصلون عليه في أي مكان قريب من المنزل الذي سيبنى وبما أن كل شيء مبلط بطبقة من الطين فيمكن استعمال أي أغصان ملتوية من النبق والأعشاب الصحراوية لتشييد السطح ولتفاصيل مشابهة . وتستعمل جذوع أشجار النخيل أساسا السقف والأعمدة . رأينا أعمدة وعوارض من خشب في القلاع القديمة المتداعية فقط تتخلل هذا الخشب بلونه البني الغامق المنحوت , أغصان شقت إلى جزئين منسوجة مع بعضها , ومطلية بالأحمر الغامق المنحوت , أغصان شقت إلى جزئين منسوجة مع بعضها , ومطلية بالأحمر الغامق والأبيض والأسود وهي بلا شك جميلة جدا , لكن نسبة لقلة الأخشاب , اظطروا للاستعانة بجذوع النخل . السقوف والأعمدة وعمدان السقف مبلطة بالطين , ثم تطلى مرة أخرى بألوان زاهية ناعمة . لهذا

فالمباني الجديدة تعطي انطباعا مبهجا ومشرقا , لكن اختفى شيء من الجمال القديم . وأصبح البناؤن بارعين بحق في التعامل مع الطين والجير الأبيض . واستطاعوا تحويل الأعمدة المصنوعة من جذوع النخيل , كأنما بلمسة سحر , إلى أعمدة مستديرة قوية المنظر ولها تيجان أنيقة في رؤسها .

النظافة الفائقة ظاهرة جدا في بيوت الأغنياء . يجري التصريف من المراحيض والمطابخ عبر قصبة عمودية إلى أماكن مخصصة لها في الطابق الأرضي , لكن لسوء الحظ يتسرب إليها الضوء مما يجعلها مستنقعا لتكاثر الذباب . والحمامات وكذلك المراحيض موضوعة جزئيا في الخارج مثلما في الهند الشرقية . توجد في العادة صهاريج لماء الحمام , يغرف منها الماء للاستحمام . ويمتلك مضيفنا ثلاجة ضخمة توفر الماء البارد لعدد من الضيوف وسكان المنزل , وأضافت الفاكهة واللحم اللذيذ الطيب صفاء ومتعة رفيعة .

تأثر الطبخ في تريم وسيئون تأثرا كبيرا بسنغافورة و جاوا . يقوم الطباخون الصينيون بإعداد كميات كبيرة من وجبات الأرز التي يستمتع بها يوميا عشرات الزوار . ويستورد الكثير من الطعام المجفف والمعلب من جاوا . وتزرع بعض أنواع الخضروات في بساتين تريم ؛ والفواكه الطازجة التي تقدم في المائدة هي بطيخ بيضاوي وتمر طازج .

وبما أن الأخير قليل نوعا ما , فإن تمر العام الماضي يقدم في المائدة بعد أن يعد في شكل عجينة مثل كعك الرغيف يوضع عليه السكر .

منزل السيد عمر الكاف , مثل منزل مضيفنا ,نصفه مؤثث على النسق الأوربي . فهناك كراسي متأرجحة هندية من الطراز القديم فوق سجاد جميل . ويزين غرفة الاستقبال الكبيرة , سرير معد بالطريقة الجاوية . و فوق السرير مفرش وردي وليس أبيض . وعلى الجدران العديد من المرايا كذلك صور لعقارات الأسرة في الهند الشرقية . يمتلك السيد عمر فندقا أوربيا

ضخما في سنغافورة ؛ وأطلعنا بزهو -- ولا عجب -- على نموذج لفندق جديد يعطي انطباعا بالفخامة الأمريكية . والجدران مزينة فوق ذلك " بميزز " وبنادق أمريكية , وهي مما يصعب الحصول عليها في هذه البلاد , لذلك قيمتها كبيرة جدا . وقد شد انتباهنا من قبل الجنود الكثيرين أفضل في لبسهم من القعيطيين . عدد الجنود المحترفين أقل هنا , وعنصر العبيد السود غائب تماما . والسادة أنفسهم غير مسلحين في حضرموت , لكنهم يشيدون مخازن كبيرة لبعض البنادق الميزر الجيدة وكميات كبيرة من الذخيرة .

٤) أعلى مئذنة في حضرموت :

ذهبنا في العصر بصحبة ابن مضيفنا والطبيب , وصعدنا أعلى مئذنة في حضرموت . لا يعرف أحد طولها الحقيقي ؛ قدرناه بـ : ١٥ قدما (١٠) . من المؤسف أن هذه المئذنة مبنية على النسق الحديث . المآذن الحضرمية الأصلية مستديرة وتضيف قليلا عند القمة , ويزينها طوق وحيد من شيش , وفي قمتها عمدان صغيرة تقف عليها القبة . ويبرز اللون الأصفر الشاحب , واضحا عكس السماء الداكنة الزرقة وفوق أشجار النخيل بألوانها الرمادية الخضراء . لكن هذه المئذنة مربعة وملونة بالأزرق والأبيض , وبها العديد من النوافذ الصغيرة وتزينها حواشي رمادية . وهي تضيق أيضا عند القمة , حيث هناك سلالم لولبية من الطين لا تناسب الأشخاص النحاف . وفي القمة أيضا قبة صغيرة بها أعمدة يقف عليها السقف .

تمتد أمام أعيننا من هنا بانو راما رائعة وسط الواحة الخضراء المنمقة , وقصورها ذات الألوان الزاهية , وحدقنا في الفضاء نحو سهول الوادي الشاسعة الرملية الجرداء , وجدران الجول الداكنة المتداعية , يرى المرء من هنا بوضوح أن تريم مدينة لها بعض الامتداد , كثير من المنازل الضخمة العديدة , جديدة ما زالت في

طـور التـشـييد . وتـشـكـل مقبرتهـا , بقبابهـا الـثلاث فـوق قبـور الرجال الصالحين , فضاء شاسعا . المساجد هنا كـثيرة تم تتميـز بمآذنها ذات الأشكال المختلفة , إما عالية أو قصيرة أو مـستديرة أو مربعة . وتقف القلعة القديمة في وسـط المدينـة القديمـة فـوق رابيـة . كنـا نـشعر أثنـاء قيامنـا بالتـصوير والمـسح وعمـل الاستكشات , في المكـان الـضيق الـذي نقـف فيـه أننـا نتـأرجح برفق إلى الأمام والخلف . لم يكن شيئا مبهجا أن نفكر مـن ذلـك العلـو الـشاهق أننـا نقـف فـوق سـطح الأرض علـى بـرج رفيـع مصنوع فقط من طين جاف .

٥) أنقاض صغيرة خارج تريم :

خـلال الجولـة العائليـة بالـسيارة في الـسماء , حيـث يتجـول آل الكـاف وصـحبهم في موكـب يـسير الهـوينى عـبر بـساتين تـريم وسهول الصخر المحروقـة الـتي تقـع خارجهـا , أشـاروا إلى تـل في وسط وادي " عديد " الذي يقال إن لـه ارتباطـات تعـود عهـد عـاد . يظهر بوضوح من مـسافة معينـة طريـق قـديم معبـد , يقـود إلى قمة التل , حيث يعتقد أنه كان به معبـد . لا يـرى الآن فـوق التـل سوى صخور مهلهلة بينها هاون , وفي قاعدتـه بقايـا أساسـات مبان , يبدو أنها تشير لأهل تريم , هناك بالقرب تل صغير , يـذهب إليه النساء اللائي لم يلدن كمكان للعباد , حيث يقمـن بـبعض الطقوس الليلية التي يأملن بها أن ينجبن .

٦) جولة داخل تريم :

ذهبنا في اليوم التالي , الثامن عشر من مايو , مع الدكتور لنرى منزله وعيادته . مهمة هذا الرائد لعلم الطب الغربي هنا ليست يسيرة , فما زال الناس متمسكين فأفكارهم القديمة حول الطريقة التي يعمل بها جسم الإنسان وأسباب الأمراض . يعتقدون أن المرض له ثلاثة أسباب : هي الريح , البرودة , الحرارة . ويقولون إن الأطعمة هي التي تؤدي إلى برودة الجسم وحرارته أو تسبب أو تزيل النفاخ . حتى الرجال من ذوي الشأن يتحدثون عن علتهم بنفس التعابير , فكان على طبيبنا أن يكيف نفسه مؤقتا معها ويحدد الرغبات بشأن الغذاء , على أمل أن ينمو فهم أفضل وثقة أكبر . لذلك فإن نتيجة باعتباره الطبيب الأول والوحيد في حضرموت ليست كبيرة كما يتوقع الإنسان . حتى السيد أبو بكر نفسه لم يقتنع تماما بقيمة الطب الغربي ليستجيب للمتطلبات التي لا تنتهي من أدوية ومعدات يحتاجها الطبيب لأداء مهمته . وكان أول مرض رجل عربي من إحدى مدن الساحل الأفريقي , الذي افتقد السينما والمقاهي إلى درجة أنه هرب سريعا من مكان العقاب هذا , ليعود إلى المدينة ليستمتع بنعم الحضارة الغربية . فانصب كل العمل على الطبيب وحده .

خصص للطبيب بناء ضخم من الطين ليكون مستشفى . وفيه سكنه , والصيدلية , والعيادة وبداية غرفة للعمليات وهناك شاب من أسرة الكاف كان يعمل مساعدا لطبيب أسنان مصري عمل هنا من قبل لعدة أشهر , خصصت له غرفة وبها معدات حديثة ويمارس فيها طب الأسنان .

حسب رواية الطبيب فإن حضرموت تبدو بدا صحية . لكن ينتشر مرض العيون بين الطبقات الدنيا , وتظهر الملاريا أيضا في فصل الخريف . سوف يعتمد مصير هذه البداية للخدمات الصحية على براعة وإخلاص هذا الطبيب الشاب وقدرته على تحمل البقاء .

سرنا بعد ذلك مع الطبيب في جولة نتفقد فيها معلم مدينة تريم . كان من الطبيعي أن نذهب أولا بزيارة معالم تريم القديمة , وهي على حدود المنطقة السكنية ؛ وتتكون من هضبة منخفضة جرداء على قمتها خرائب قلعة كانت في يوم ما كبيرة وشامخة . توجد في مثل هذه القلاع آبار لماء الشرب . هذه الآبار عميقة جدا لأنها محفورة من قمة الهضبة إلى داخل ساحة القلاع . وشاهدنا من قمة هذه القلعة المحطمة منظرا كاملا لتريم الغنية بمساجدها , وقصورها و ... المقبرة . الحديث الشائع في حضرموت أن المدينة بها ٣٦٠ مسجدا . أخبرنا أحد آل الكاف أن بينها ٢٠٠ صالح للاستعمال و١٦٠ متداعية دون أمل لإصلاحها . أما صديقي السيد هاشم فيقدرها ٦٠ صالحة و٣٠٠ منهارة , وهذا بلا شك أقرب إلى الحقيقة .

سكان تريم بكل تأكيد حوالي ١٢٠٠٠ , لأن مضيفنا لديه قوائم بالأسماء لعلاقتها بحصص الطعام الذي يوزعه على الجماهير . على ذلك لا بد أن يكون سكان سيئون أكثر من ذلك , أي بين ١٢٠٠٠ و ١٥٠٠٠ نسمة .

ذهبنا بعد القلعة لزيارة تريم الجديدة شيدت هناك ضاحية جديدة بأكملها , جزء منها للعاملين مع آل الكاف . لم نجد بين الأماكن التي زرناها حتى الآن مثل هذا المكان الزاخر للحياة والتوسع . ويتشكل في تريم مجهود واعٍ ومدروس جيدا , لتبح المدينة في فترة وجيزة المدينة الأولى في حضرموت . الكاف وتريم هي الأسماء التي نسمعها في كل مكان حيثما تناقش إلتزامات أو مشاريع جديدة .

سرنا عبر الضاحية الجديدة حتى وصلنا سور المدينة الذي يعد منحدر الجبل عند هذه النقطة حتى يصبح صعب التسلق . هناك قلعتان بجنودهما لتقوية نقطة البداية هذه للأعمال الدافعية للمدينة ويشرفان من علوهما على نصف الجدار الصلب المصان جيدا ويحتوي المدينة وبساتين النخيل في خطوط مستقيمة .

إنه يوم الخميس يوم توزيع الطعام على الفقراء . فعندما عدنا إلى المنزل , كان الشارع والساحة أمام منزل مضيفنا مسودة من النساء والأطفال والرجال المسنين كلهم ينتظرون حصة الأرز والدقيق المخصصة لهم . وتستمر عملية التوزيع لساعات . يقوم الخدم بتوزيع الحصص , ويقوم آخرون بمراجعة وإمضاء قوائم طويلة من الأسماء وكان الجنود والبدو من منطقة القعيطي الذين رافقونا يحدقون بدهشة بلهاء إلى هذا التصدق المسرف . وحالما يعودون إلى بلادهم سوف ينشرون على نطاق واسع ويضخمون حكاويهم الحية عن شهرة الرجل نبيل النفس السيد أبو بكر الكاف . لهذا فإن آمال وتطلعات أعداد متزايدة من الناس تتجه نحو تريم . وإذا كان السيد أبو بكر الكاف بسعى إلى سلطة سياسية فلديه الفرصة لتحقيق الوحدة والسلام في مناطق الكثيري التي تمزقها الآن حرب ضروس .

الفصل الحادي عشر
رحلة إلى الأنقاض بالقرب من سيئون

في مناقشات إحدى الأمسيات , طرحنا السؤال حول خطط أسفارنا القادمة . ضحكوا في البداية في ريبة وقالوا إن الطقس الآن حار جدا للسفر أثناء النهار : وهم أنفسهم يخرجون من المنازل نحو المغيب .وعندما قلنا لهم إننا لا نستطيع أن نفهم كيف أن قادة العمل التجاري الكبار في سنغافورة وجاوا أولئك الرجال الذين لعبوا دورا بارزا هناك في التعليم و الحافة يمكنهم أن يحتملوا هذه الحياة الخاملة , أجابوا : "هذه أرض النوم والموت , لقد جئنا هنا لننام ونحن نسير نحو نهاية عمرنا , حتى نموت هنا " إن سهول الصخور الجرداء الرتيبة , وجداران الصخور , وصحاري الرمال , بساتين النخيل المخضرة دائما والحرارة الملتهبة , وطبيعة حضرموت الهادئة تجعل الإنسان يفكر بحق في النوم والموت . لكن ما زال يملؤنا قلق الغرب , وأدركوا رغبتنا الجادة في رؤية المزيد من البلاد , بالرغم من الحر والظمأ وبالرغم من الصعوبات المتوقعة بكل تأكيد من البدو . كان هدفنا الكبير أن نرى قبر هود وبئر برهوت , لأن الأول حرم مقدس كبير في حضرموت يحج إليه الآلاف كل عام , والثاني لأن القصص المثيرة تروج منذ قرون خلت حول برهوت ولا يمكن لأحد أن يقول بالتأكيد ما هي في الواقع " فم الجيم " هذه . وقد وعد السيد أبو بكر بمساعدتنا . فالرحلة إلى قبر هود وبئر برهوت تحتاج إلى أيام للاستعدادات لذلك رأينا من الأفضل أن نقوم أو برحلة مبسطة ونزور الأنقاض في وادي سيئون .

غارنا تريم فجر الجمعة ٢٩ مايو في عربتين . كنا في العربة الأولى مع السيد هاشم والطبيب , الذي يأخذ عطلته يوم الجمعة . والعربة الثانية مشحونة بالبدو المسلحين , وهم من القبيلة التي سنعبر أرضها . تنتهي محافظة تريم بعد حدودها مباشرة .

وأشاروا لنا إلى حصون القلاع الصغيرة في الأركان والتحصينات , حيث كان إطلاق الرصاص مستمرا حتى عام مضى . وضح حالة القرى والحقول المهملة أن الازدهار قد أوقفته الحرب . بعض تلك القرى تحت حكم السيد العيدروس , بعضها الآخر مستقل , أي أنها تخضع للقبائل التي تقع في منطقتها وليست تابعة للدولة و حسب التعبير السائد .

يسير الريق فوق وادي رملي إلى وادي " عدم " العميق , الذي يبدو أنه مروي بالماء بدرجة لا بأس بها , حكمنا على ذلك من النبات الكثيف على ضفتيه ومن بساتين نخيله الجيدة . تقع قرية المسيل , وهي مسقط رأس العالم الحضرمي الجاوي السيد هاشم , وقد تلقى رئيس القرية تعليمات من السيد أبو بكر ليوفر لنا وجبة منتصف النهار , لذلك وجدناه يقف على استعداد بأوانيه وبالشاة التي ستذبح . توقفنا لما يكفي لأخذه مع الشاة وأواني الطبخ , ثم واصلنا السير مرة أخرى عبر منطقة رملية بها تلال وقرى ومزارع متناثرة . وكما ابتعدنا في السير أصبحت القرى أفقر , والبساتين مروية جزئيا والمنازل في حالة خراب . وتقلص عدد الرجال من الحروب القبلية , والفقر والجوع يقتلان الآن البقية .

وجد سائق السيارة صعوبة في العثور على طريق سهل العبور بين تلال الرمل . وصلنا أخيرا " رضيح " قرية السيد العيدروس حيث كانت تنتظرنا الحمير . يعتقد السائق أن العربات يمكن أن تسير إذا ساعدنا بدفعها من وقت لآخر . وأجبرنا أن نخترق مجرى السيل الرملي مرة أخرى . ومن الضروري بذل مجهود كبير لإخراج العربات من الرمال الناعمة , ثم يصبح السير بعد ذلك ممتعا فوق سهول الراسب الطفالي وعبر الوديان . نضطر في بعض الأحيان أن نحفر للعود أو الهبوط , لكننا كنا مستعدين لذلك : كانت معنا معاول ورفش . ونجحنا في الوصول بالسيارات قريبا من موقع الأنقاض عند " هضبة الغصن " , بالقرب من قرية سون . عبرنا قبيل وصولنا , على قطعة ضخمة من جدار

مصنوع من حجارة طبيعية كان موصولا بالتأكيد في الماضي بجدار الصخر . والمفترض أن يكون بقايا سد شيد عبر الوادي ويعود إلى عهود ما قبل ا لإسلام .
هناك أشياء كثيرة مشتركة بين الأنقاض في سون وتلك التي في ريبون . فما زالت أساسات المباني المربعة , المصنوعة من قطع ضخمة من الحجارة غير المتساوية تظهر فوق قمم الجبال . وتتناثر حجارة أصغر فوق الأنقاض وحولها , هي بقايا نوع من المورتر , وكثير من الشظايا الخزفية . لم نجد سوى القليل من النقوش وحتى هذه مجرد كسر صغيرة . استطاع فون فيسمان أن يتسلل بصعوبة إلى داخل كهف في حائط الجبل ووجد هناك خمسة مدافن في الحائط خالية . الحرارة غير محتملة ولم يساعدنا أحد من رفاقنا في أبحاثنا . ثم أرغمتنا الشمس على التراجع بعد أن أخذنا بعض الصور ورسمنا بعض الاستكشات
تمكنا من العودة بعد رحلة مرهقة . كانت العربات توحل في رمال الوادي باستمرار وحديدها ساخن جدا يحرق الأيدي عند دفعها . عندما عدنا إلى رضيح وجدنا في منزل السيد العيدروس ظلا نحتمي به من حرارة الشمس , وحيث كانت تنتظرنا وجبة الغداء من الضروري الدخول في مفاوضات مطولة لتحقيق هذا الترتيب , فحتى وقت قريب كان في حرب مع أتباع السيد أبو بكر . واستغلت مناسبة زيارتنا كأول محاولة حذرة يختبرون بها الصداقة التي تحققت بعد التوصل إلى سلام قبل عام مضى . رضيح قرية في حالة انهيار , في ريف يموت من نقص الماء للعمال وللري . عندما عدنا إلى تريم قدمنا تقريرا مفصلا لمضيفنا الذي كان شديد الاهتمام . وسلمناه قطع النقوش التي وجدناها وطلبنا منه ضمها إلى القطع الأخرى من سون التي في حوزته من قبل , ونصحناه بشدة لتأسيس متحف في تريم حيث يمكن حفظ الآثار ؛ فهذا يحفظها من أن تستعمل في بناء الآبار والمنازل ويصعب التعرف عليها بعد أن تغطيها طبقة الجير أو تنقل إلى خارج البلاد . استكملت في هذه الأثناء الاستعدادات لرحلتنا إلى

قبر هود وبئر برهوت فيمكننا أن نتحرك في اليوم التالي . أصبح من الملح الآن وضع خطط محددة لرحلة عودتنا حيث يتطلب ذلك أيضا وقتا لترتيبها .وطرق تريم – الشحر مفتوح لنا , فلم يتقبل السيد أبو بكر التقارير السيئة المتداولة في منطقة القعيطي حول هذا الطريق , تحمل المسؤلية كاملة بالنسبة لسلامتنا , إذا أردنا أن نسافر بذلك الطريق . كان هذا هو الطريق الطبيعي بالنسبة لي . فأنا كموظف في حكومتي , يجب أن اختار أقصر الطرق وأقلها خطورة لرحلة عودتي بعد أن أنجزت مهمتي . أما رفيق رحلتي فلا يريد أن يضيع الفرصة المناسبة , التي هيأها دعم مضيفنا اللامع , ليرى المزيد من شبه الجزيرة العربية الذي لم يستكشف . فكان لابد أن يفترق طريقنا هنا ... على الأقل سوف يتحمل السيد أبو بكر مسؤلية رحلة فان فيسمان داخل البلاد . ووعد أن يجيب على هذا السؤال بعد أن نفكر فيه بتروي . كانت نتيجة تفكيره أن قال يجب لا أترك صديقي وحده يترنح . فنحن معا يمكننا أن نجازف برحلة عبر منطقة غير معروفة , عندئذ سيكون لنا هيبة وضعي باعتباري مبعوث حكومة هولندا , ونمتلك فيما بيننا معرفة كافية في اللغة . عليه لا بد أن نترك خطة الذهاب إلى صنعاء عن طريق منطقة مأرب , ويمكننا أن نحاول الوصول إلى عدن عن طريق " نصاب " . ويعتقد السيد أبو بكر أن هناك بعض فرص النجاح في هذا . لكن يجب أن نترك كل أمتعتنا خلفنا , وسوف يتولى بنفسه إرسالها إلى عدن بالبحر , عن طريق الشحر , إذ يجب ألا نحمل معنا أكثر ما يمكن وضعه في حقائب سروج جمالنا . وعلينا أن نستعمل جمالا سريعة مع عدد قليل من الأتباع , ونحاول اجتياز منطقة الحرب بسرعة شديدة لا يسمع عنا إلا بعد أن نكون قد تخطيناها . وهكذا تم اتخاذ القرار .

سيقوم مضيفنا أثناء رحلتنا إلى قبر هود وبئر برهوت بعمل كل الترتيبات الضرورية لرحلتنا السريعة برا إلى عدن .

الفصل الثاني عشر

قبر هود وبئر برهوت : هدف أي رحالة يأتي لحضرموت

تحركنا فجر ٣١ مايو على سيارتين في رحلتنا إلى قبر نبي اللّه هود وبئر برهوت . لم يرغب أي فرد من الأسرة أو المقربين إليهم أن يشارك في هذه الرحلة المرهقة في الطقس الحار , ما عدا السيد علي العطاس البدوي , الذي هبط بئر غمدان بالقرب من حريضة , فقد ظل وفيا لنا . كان يريد أن يكون أول حضرمي يهبط إلى أعماق بئر برهوت الغامضة , حتى يصبح اسمه بعد ذلك مخلدا في تاريخ بلاده .

رافقنا طباخنا صالح , وبعض بدو وجنود السيد أبو بكر . وكلما تقدمنا في سيرنا عبر الوادي , مرت علينا قرى كبيرة , وبساتين نخيل ومزارع ذرة . ولاحظنا من المظهر الخارجي للقرى والبساتين أننا نمر بمنطقة في حالة انهيار . اتضح هذا جليا عندما اقتربنا من عينات التي تقع إلى الجانب الأيمن لبطن الوادي .

١) النقرة :

كانت عينات من أكبر وأشهر مدن حضرموت . كانت القبة الضخمة للسيد أبو بكر بن سالم , والقباب الست الأخرى التي بجانبها للرجال الصالحين , تجذب إليها أعدادا كبيرة من الحجاج . وأصبح الاقتراب من المدينة ممتعا عبر غابة كثيفة من النخيل . كانت القباب البيضاء والمساجد العديدة , جواهر حقيقية لنسق المعمار الحضرمي الصافي , الذي اجتذب نظرات الإعجاب من آلاف الحجاج الذين اعتادوا المجيء هنا للتبرك . وموقع عينات مناسب , ولهذا لا بد أن يمر عبرها كل الحجاج الذاهبين إلى قبر نبي اللّه هود . انتهت عظمتها الآن , و أصبح كل شخص في حضرموت يعرف النقرة (النقرة تعني التعرية التدريجية بالماء) , وهي السبب في خرابها التدريجي . فمنذ اختفى الخزانات جرفة تيارات المياه العنيفة الدورية مجرى السيل وعمقته وحرك هذا التآكل ببطء إلى

أعلى النهر . وكان على شبام أن تحمي نخيلها من هذه الحركة التي تجعل جذوع النخل عارية بإقامة سد طوله حوالي ميل . تقع عينات بعيدا في مجرى النهر أكثر من أي مدينة أخرى في حضرموت , لذلك تتعرض لقوة الاندفاع كلها وتبدأ التعرية هنا أولا ويغدو أثرها الخطير محسوسا . ويصبح السيل أحيانا أكثر قوة عندما تصب فيه مياه الأودية الجانبية , وعندما تغطي الوادي طبقة سميكة من الراسب الطفالي ينجرف مجراه أعمق فأعمق .

أصبحت جذوع النخيل عارية , ونتيجة لذلك أصبح محصولها أضعف . وأخيرا تتهاوى الشجرة وتستمر تحمل الثمار . ولكن نهايتها وشيكة . فيموت النخيل تدريجيا في المنطقة العريضة حول عينات بسبب النقرة . النخيل محكوم عليه بالفناء : تخترقه أشعة الشمس عبر العديد من المساحات المفتوحة , تحطمت أعمال الري , وأصبح كل شيء مغطى بطبقة من الرمال البيضاء . زرنا عينات فقط في طريق عودتنا فقد بقينا الآن في الضفة الشمالية , التي سرعان ما ارتفعت عالية فوق بطن الوادي . انحفر الراسب الطفالي بالماء أكثر فأكثر فأصبح من الصعب على عربتنا أن تجد طريقا آمنا عبره . اتضحت حقيقة هذه الخطورة عند العودة , فقد انقلبت إحدى السيارتين وأصابها خراب كبير . تمت محاولة لتحويل مجرى السيل إلى سفح الجبل في الشمال بتشييد خزان . وجمعت أموال ضخمة لهذا الغرض , لكن الماء كان يحطم الخزان باستمرار . لذلك تخلوا في النهاية عن المهمة .كانت الخطة لتشييد السد بمبادرة من أشهر السادة الحضارم , السيد محمد بن عقيل بن يحيى , الذي قام برحلة غرب تريم عام ١٩١٣م . وبعد وفاته عام ١٩٣١م عروا بين أوراقه على تقرير مفصل لتلك الرحلة , الذي نشر في جاوا في المجلة الأسبوعية حضرموت .

٢) قسم وقلعتها القديمة :

عانت الأرض أسفل المجرى من عينات كثيرا من النقرة اختفت حضارة النخيل وهاجر العديد من الناس . وتعتبر مدينة قسم الصغيرة نموذجا ظاهرا لهذا التدهور . تحول نصف المدينة التي ما زال يحيطها سور إلى خراب , وبقي الآن فقط بضع مئات يعيشون هنا بينما كانوا آلافا في الماضي . توجد مقبرة شاسعة خارج السور , محاطة من جانبها الآخر بقلعة بمبانيها الملحقة بها , وهي من طراز العصور الوسطى . وتداعى جانب منها , لكنها ما زالت بخطوطها البسيطة القوية . محتفظة بروعتها . أصبحت الأبراج المخروطة في الأركان على مستوى الطابق الثاني غليظة . وكادت أن تختفي الشرائط البيضاء التي في خطوط مع صفوف النوافذ ؛ سوف يصبح البناء تدريجيا كومة رمادية من الطين وسط أرض هجرها أهلها . استقبلنا المقدم العجوز في غرفة الاستقبال الكبيرة ؛ حاسة سمعه ضعيفة جدا لذلك يقوم جنوده العبيد بالحديث نيابة عنه . كان والده حاكم قويا ومهابا على نطاق واسع , بينما كان يقود معركة فاشلة ضد قوى الطبيعة فجفة أرضه وهاجر اتباعه , وأصبح فقيرا , فقيرا إلى درجة أنه لم يعد قادرا على دفع رواتب جنوده ٠الحرب ليست ندا للجفاف ٠وظلت المجموعات الخمس من جنوده وفية له ،ثم سافروا بدورهم في مجموعات إلى وطنهم الأم في ساحل أفريقيا أو أي مكان آخر ليحصلوا على بعض المال بالتجارة أو العمل الجسماني ثم يعودون إلى سيدهم العجوز ،ليشاركوه وأتباعه المال الذي وفروه ٠

استقبلنا هذا المقدم العجوز بشعره الأشيب بمودة فائقة ٠ودعانا بعد الاستقبال في غرفة الضيوف أن نتبعه إلى أعلى إلى غرفة أصغر تناولنا فيها الطعام وأمكننا أن نكتب ونرتاح دون إزعاج ٠ هنا حكى لنا القصة المحزنة عن ولديه الكبيرين

اللـذين تركـا أرض أجـدادهم الجافـة وذهبـا إلى مـستنقعات بورنيو حيـث فقـدا حياتهمـا الغـضة بـسبب الحمـى الغـدارة المميتـة ٠ وذهـب أيـضا اثنـان مـن أبنائـه الـصغار إلى هنـاك ، لكنهما حققا نجاحـا حـسنا ويتمنيـان أن يرسـلا إلى أهلـهما قريبـا بعـضا مـن دخلـهما ٠ وسـوف تـستغل هـذه النقـود لتغطيـة مـصاريف سـفر الأبنـاء الـصغار ، الـذين مـا زالـوا في البلاد ، لكنهم يجب أن يهاجروا ليبحثوا عن سبيل للعـيش ٠ سألنا مضيفنا عن الطقس وطبيعة الحياة في بورنيـو ، وأبـدى ابنه الأصغر الرغبة في أن يـذهب معـي إلى الهنـد الـشرقية ٠ وكنت مرغما لأخيب أمله حيث أني لـن أذهـب إلى هنـاك رأسـا من حضرموت ٠

الطقـس حـار جـدا في قـسم ،حـتى داخـل الغـرف الكـبيرة في القلعة القديمة ٠ وأخذنا صورا للمنطقة مـن فـوق الـسطح ، لكـن الخـدم لم يـستطيعوا تحمـل الحـرارة وهـم يقفـون حفـاة الأقـدام فاسـتعانوا بـبعض المخـدات القديمـة وبعـض الخـرق ليقفوا عليها٠

٣) أنقاض قلعة العر :

كان حمل القافلة على مواصـلة الـسير مـرة أخـرى بعـد الظهـر مسألة صعبة ٠ فهم يؤخرون الرحيل لأطـول فـترة ممكنـة حـتى يتفادوا حرارة الشمس العنيفة ٠ لكـن لابد أن نسافر أثناء النهار حتى نتمكن من مسح المكان ٠ لـذلك كانـت هنـاك دائمـا حالـة توتر بيننا وبين حراسنا في ما يخص هذه النقطـة . وقـد اختـارهم هذه المرة السيد أبو بكر وهو الذي يدفع أجـرهم ؛ لـذلك لم تكـن لنا سيطرة كافيـة علـيهم كمـا كنـا نرغـب . وزيـادة علـى ذلـك , أرسل أحد طباخيـه قائـدا للقافلـة ،رجـل ضـخم سمـين داكـن البـشرة ، كـان يكـرس كـل اهتمامـه وطاقتـه للواجبـات , الـتي توفرت مؤنها الضرورية بسخاء من مخازن سيده الوفيرة خاطرنا وتقدمنا القافلـة علـى حميرنـا حـتى نـسهل الأمـر . ورأينـا أثنـاء

سيرنا على مسافة بعيدة بعض القرى كانت كلها تقريبا خرائب , رأينا كذلك قلاعا مثل تلك التي في قسم . يوجد هنا ماء وهناك مجرى عميق للسيل لكنه ليس بأي حال واسعا . وقد ظهر بمجرد ما غادرنا عينات وأخذ يزداد أكثر نحو الشرق . هذا الماء مالح جدا , لكنه في بعض الأماكن حلو لدرجة تسمح بشربه . ويفضل أهل المنطقة ماء البئر المالح , بينما تشرب الحيوانات ماء النهر , الذي يجري ويختفي بين مرة وأخرى ليواصل مجراه تحت الأرض . ما زال الوادي واسعا بعد قسم وتتكون التربة من طبقة سميكة من الراسب الطفالي . ويتسع الممر العريض بين شجيرات الأراك المخضر اليانع بثماره التي تجمع بين الزرقة والإحمرار , التي يجمعها الأطفال هنا وهناك . عندما سمعنا أنها تأكل ذقناها لها طعم الـ cress , حالية لكنها حارة مثل الفلفل . ولها تأثير مسهل قوي وكذلك أوراقها التي تحبها الجمال والحمير . حيث ينمو الأراك لا تعطي الحيوانات أي علف آخر , على الرغم من أنها تصاب منه بالإسهال . وعند السفر عبر مناطق الأراك يرى المرء مؤخرة الجمال ملوثة بفضلات مخضرة اللون , وعندما تحرك ذيولها فإن الذين يركبونها أو يقودونها يرشهم الرزاز المتطاير . وتصاحب القافلة في هذه الأوقات رائحة كريهة ليلا ونهارا .

كلما توغلنا في السير , تصبح بطن الوادي التي ما زالت عريضة قاحلة أكثر . ويغطي الرمل طبقة الراسب الطفالي ؛ تبرز منه جلاميد صخر بعضها مغطى بالنبات . دخلنا قبيل المغيب منطقة بها العديد من الأنقاض الرائعة . كان الوقت متأخرا لفحصها عن قرب , وتجاوزنا الجلاميد الصغيرة حتى نواصل السير إلى الآثار الأساسية في العر . كانت واضحة حتى ونحن ما زلنا بعيدين عنها . بقايا جدران ضخمة . ترتفع عالية في وجه سماء المغيب , تقف وحيدة فوق كتلة من الصخر . في منتصف مستوى الوادي تماما . ويمتد التل الصخري لمسافة وهو شديد الانحدار , من الصعب التسلق بجهد فوق المبنى المتداعي , الذي

تهاوى إلى الأرض . يبرز الموقع استنتاجا بأنه كانت هنا قلعة سيطرت في يوم ما على المنطقة المحيطة . في القاع بئر مبنية , نصفها الآن ملئ بالحطام . و شيدت جدران قوية عالية من صخر نحت جيدا , وما زالت بقاياه تنتصب إلى ارتفاع ٤٥ إلى ٥٠ قدما . في وسط الجزء الجنوبي الشرقي من الصخرة هناك ممر منحدر ضيق حيث آثار السلالم ما زالت ظاهرة : لابد أن هذا كان المدخل الرئيسي للقلعة . فشلنا في الحصول على أي نقوش ذات أهمية , لكننا اكتشفنا بعض رؤوس الأعمدة المنقوشة . ودفناها في الرمال بهدف أخذها عند عودتنا حيث نأمل أن نجد فترة أطول لفحص متأن لأنقاض هذه القلعة المهيبة .

٤) ليلة في السوم :

أرغمنا مغيب الشمس في هذه اللحظة على مواصلة السير إلى السوم , فقررنا قضاء الليل . أصبحت الساعات الأخيرة المرهقة من الرحلة أكثر مشقة بسبب العاصفة الرملية الساخنة مما أدى إلى تأخيرنا طويلا حتى حل الظلام قبل ساعات من وصولنا إلى مجرى السيل الذي يوجد به عند النقطة شريط ماء واسع ضحل . وجدت الحمير والجمال طريقها في الظلام واجتازت الماء الفاتر دون صعوبة , لكن حماري رفض أن يتزحزح حتى مقدار بوصة . تلاشت القافلة في ظلام الليل , كنت أسمعها في البعيد وهي تتسلق جانب الوادي , ثم أصبح كل شيء ساكنا . فجلست مرهقا من ضرب حماري العنيد وأنا أنتظر لأرى إذا كان الآخرون سيفتقدوني ويبعثون لي بنجدة . ولم يمض وقت طويل حتى رجع ثلاثة رجال بمصابيح كهربائية . فتعاونا على دفع الحمار إلى الماء , وما إن دخلها حتى مد رجله إلى الأمام ليصل إلى الجانب الآخر . ثم سرنا حفاة الأقدام إلى حيث تنتظرنا القافلة . لكن لم يهتم أي واحد بنا , فقد كانوا يقفون كلهم جمهرة حول طباخي صالح الذي لدغته عقرب . كان يئن من

الألم . ولا يمكن أن نفعل به أي شيء هنا , ما علينا إلا أن نجتهد لنصل إلى السوم بأسرع ما يمكن .
يعطي هذا المكان المحتضر انطباعا بالفقر المدقع والكآبة , سرنا نتعثر عبر الأزقة الملتوية ونحن مرهقون وهمتنا مثبطة , الصوت الوحيد المسموع أنين صالح . هل هم على استعداد في هذه القرية البائسة لاستضافتنا فورا في منتصف الليل ؟ وهل يمكنهم أن يفعلوا أي شيء لمريضنا ؟ وقفنا مثل الشحاذين أمام المنزل الذي خصص لنا ننتظر استجابة لطرقنا وصياحنا , لم تستمر عدم اليقين المؤلم طويلا , ففتح صاحب المنزل الباب وأصدر تعليماته فورا لتجهيز جانب من السطوح لنا , أمر باستدعاء طبيبة القرية . وبينما نحن ننتظر وصولها , فتحنا البقعة الزرقاء الداكنة التي بها التي بها سم العقرب , مستعملين سكينا صغيرة حتى يمكن امتصاص جزء من السم . ثم وصلت المرأة العجوز و كنا سعداء بترك العلاج لمعرفتها المتمرسة , فقامت بحك الجرح بالثوم ولم يمض وقت طويل حتى أصبح الألم أقل حدة . في هذه الأثناء أحضر مضيفنا والرجال من أسرته كل ما نحتاج إليه , ووضعنا رؤوسنا المرهقة ذلك المساء يغمرنا إحساس عميق بالعرفان ونسينا متاعبنا . وعملنا مرة أخرى , من رعاية مضيفنا الحضرمي , أن تقدم الضيافة للمسافر الذي يطرق الباب ليلا , واجب مقدس فرضه الدين . وربضت كل القافلة في نسق أخوي عند شرفة السطح . وأعد " مقدم القافلة " كميات كبيرة من الأكل , فهو الواجب المجانية . استمعنا العديد من أكواب الشاي الخفيف بالليمون , وأكلنا معها بعض التمر والبسكويت . وبعد منتصف الليل بوقت طويل , هجع رفاق رحلتنا السمر , بعد أن أتخموا من الأكل وبعد الكثير من الحديث والشجار .

٥) فغمة ثم منية القلب لك حضرمي :

تحركنا مبكرا في اليوم الأول من يونيو , ففي الساعة الخامسة غادرة القافلة السوم , التي كانت تستيقظ لتوها من النوم ,

وأرغمنا على النهوض مبكرا في هذه البلاد التي ينام الناس فيها في الهواء الطلق . كنا نشاهدهم من سطحنا عندما بدأوا يتحركون في السطوح القريبة منا ثم يهبطون إلى المطبخ لإشعال النار وإعداد قهوة الزنجبيل . يوجد بستان نخيل صغير حول السوم على جانبي مجرى السيل , ملئ بالماء . فاغتسلنا وشربنا كفايتنا عند إحدى الآبار قبل أن نستأنف رحلتنا في الحر .

بعد حوالي ثلاث ساعات وصلنا قرية فغمة , التي تكون من قليل من المنازل تحيط بها أكواخ . كانت الحرارة محرقة على الرغم من أن الوقت ما زال مبكرا . ثم أعلن حراسنا أنه علينا أن نرتاح هنا ونتناول الطعام ، إذ لا توجد قرية أخرى ولن نجد ماء خلال الأربع أو الخمس ساعات القادمة . لم نصدق هذا الزعم وأصررنا على مواصلة السير لكنهم رفضوا مثل رجل واحد ، وأنذرونا م عواقب مثل هذه الحماقة ، ووعدوا باستئناف السير بعد ساعة من الراحة . استسلمنا ضد رغبتنا يتابنا شعور كريه بأننا أرغمنا وأننا ربما نغامر بالمسير أبعد من ذلك . أعدت وليمة رائعة بعناية بالحمل الذي اشتريناه من مضيفنا . فغمة آخر توقف قبل قبر هود , وتنتظرنا مسيرة أربع ساعات في أرض جرداء . حملنا القافلة بعد مشقة على استئناف السير عند الثانية . وواصلنا متابعة بطن الوادي فحصلنا على الماء في كل مكان تقريبا . الوقت الآن منتصف فصل الجفاف ؛ بعد الأمطار الشحيحة أو عندما يندفع السيل من الجبال الغربية ، تأخذ " مسيلة " وادي حضرموت في هذه البقعة شكل النهر الحقيقي . لذلك فإن الطيارين البريطانيين من عدن كانوا صادقين عندما قالوا إنهم شاهدوا نهرا يجري عبر الوادي بعد قبر هود . لكن يختفي النهر تحت سطح التربة ، قبل أن يصل إلى المحيط الهندي .

عبرنا بالقرب من فغمة على بساتين نخيل صغيرة ومجموعات من الأكواخ البائسة . هذه هي البقعة التي يلتقي فيها البدو

مـن المنـاطق المجـاورة مـرة في العـام ، ليحتفلـوا بالـذكرى المقدسـة لرجـل صـالح . وهـذه أيـام هدنـة مكرسـة لله وللتجـارة . كنـا نـسمعهم في فغمـة يطلقـون الرصـاص ويغنـون ابتـهاجا ، ثم أصبح الاحتفال الآن ميتا نتيجـة الحـرارة , واضـطجع المهرجـون المرحون ليرتاحوا بعد اللغـط تحـت ظـلال منحـدرات الـصخر ، في كهوف تحـت الكتـل ، أو تحـت مـأوى مـن عيـدان فوقهـا قطـع مـن قماش . يبدو أن عدد المشاركين ليس كبيرا ، وهذه أيـضا حقيقـة تـشير إلى تـدهور المنطقـة . جـاءت إلينـا مجموعـة وأمطرتنـا بالأسئلة . وأجبنا بأننا بالفعل في طريقنا إلى قبر النبي هود وأننا ننوي أن نصلي هناك وعندما أجبت عن سؤالهم عن الجهة التي جئنـا منـها بأنهـا " الأراضـي المقدسـة مـن جـدة " اتـضح لي أن معلوماتهم قاصرة عن مؤسـس دينـهم وبلاده . لكـن بعـضهم كان في شرق إفريقيا ، وحكى هـؤلاء أن المـسلمين هنـاك يـذهبون عادة إلى مكة مثل ما يـذهب الحـضارم إلى قـبر هـود . م دعونـا أن نبقى معهم لفترة قصيرة ، ليستأنفوا الاحتفـال . لكـن بمـا أننـا مقتنعون أن الصداقة مع هؤلاء المتعصبين القساة المتـشككين مـسألة هـشة ، فـضلنا أن نواصـل مـسيرنا . فلـن نرتـاح حـتى نصل هدفنا ، قبر هود .

كـان أحـد أفـراد المجموعـة والمتحـدث بـاسمهم في زنجبـار لفـترة ، وهناك خلق علاقات مـع الأوربـيين . ووعـد بـأن يتبعنـا في المـؤخرة ويصاحبنا غدا إلى قبر هود , وبفضل الله وسـاطته سـمح لنـا أن نواصل السفر دون عراقيل .

سـرنا بأسـرع مـا أمكننـا عـبر الـوادي ، الـذي أصبح أضـيق . ، تكـسرت الـضفة العاليـة علـى الـيمين علـى مـسافة بعيـدة ، بالتحديـد حيـث " سـبعة وديـان " تـصب في الـوادي الرئيـسي ، ويخيم علـى الوادي سـكون المـوت ، فلا يرى أي كـائن حـي . الممـر في عمومه جيد وذلك بفضل الحجاج الذين يمرون عـبره غـدوا ورواحـا كل عام في شـهر شـعبان . ويمـر أحيانـا عـبر تـلال رمليـة جـرداء ، وأحيانا بين شجيرات الأراك وبعض شجر الأثل المحني .

٦) قبر النبي هود ومدينة الحجاج الصامتة :

رأينا أخيرا القبة البيضاء لقبر هود والمباني الملحقة بها ، تقف في واجهة جدار الصخر الداكن . وينحني الوادي في زاوية حادة نحو الشمال ؛ ويبدو من البعد كأن لا منفذ له وأنه ينتهي في هوة سحيقة بين الصخور السوداء . جئنا قبل نصف ساعة من قبر هود على بناء مربع من الطين فوق قمة تل مسطحة ، يقف عليها حارس . وادعي المقدم أنه يمكننا أن ندخل المدينة فقط تحت حماية هذا الحارس . وتمكننا من ترتيب الأمر مع حامينا لينتظر القافلة ويصاحبها إلى المنزل في شعب (بكسر الشين) هود حيث سنقضي الليل .

نشق الآن طريقنا إلى الهدف الذي كنا نخشى إلا نصل إليه دون أن يصحبنا أحد زلكن بفضل السيد أبو بكر ، فقد سمح لأول زوار مسيحيين بدخول هذا المكان المقدس الذائع الصيت في حضرموت . وحتى نقترب منه ، قمت أنا ورفيقي بمفارقة الطريق واخترقنا المنطقة الريفية ، سار كل واحد منا حسب ما يعتقد أنه أفضل وأقصر الطريق . يقود وادي برهوت هنا إلى وادي حضرموت . وانحفرت الطبقة السمكية من الراسب الطفالي عميقا ، في كثير من الأماكن غير المتوقعة ، بفعل المياه المنجرفة بعد الأمطار . وضفاف مجاري السيول هذه شديدة الانحدار مما يستوجب وقتا وجهدا لاختراقها . التلال بينها مغطاة بطبقة من التراب الناعم يبلغ سمكها ثمان بوصات . وتتحول الأرض المنبسطة بفضل العدد الكبير من شجيرات العشر والأراك والإثل إلى صورة خلابة من الخضرة اليانعة .

لكن اتجهت أنظارنا نحو المباني البيضاء الرائعة التي تقع أمامنا ، وهي تقف واجهة جرف صخري رمادي – أسود ، في اتجاه المدينة الميتة في الأسفل في المسيل الضيق – المدينة التي تكون مأهولة ثلاثة أيام فقط في العام . كان المنظر عظيما لحد بعيد وأكثر

جمالا مما تجرأنا على تصوره في أفكارنا . المباني الصافية البياض ، المخصصة لطائفة الولي ،جديدة ، وتم الحفاظ عليها والاهتمام بها بحب شديد . والمدينة التي شيدت منازلها الكبيرة بصلابة تبدو جذابة ، وحافظوا عليها أيضا بشكل جيد . كنا نتوقع أن نرى معسكرا ضخما بأكواخ متداعية وليس بالتأكيد مدينة بقباب ومساجد ومنازل عالية من عدة طوابق وسطوح مطلية بالجير الأبيض ونوافذ عالية . يختلف هذا بلا شك عما كان عليه في الأزمنة الخوالي . كانت رئاسة قبر نبي اللّه هود مسندة إلى طائفة دينية من البدو خصصت لهم ، تعود للفترة التي سبقت النبي محمد . واستعملت جزئيا الثروات التي تراكمت في الخارج ، لإظهار العرفان نحو اللّه الذي منحها . فقبل عشر سنوات خلت ، ترك أحد آل الكاف الأثرياء مبلغا كبيرا من المال لصيانة هذا المكان المقدس . قبة المقبرة فقط هي القديمة ، أما بقية المباني الدينية الأخرى جديدة . والقبة أعلى من بقية المباني في واجهة جدار الصخر المنحدر . سوف أعيد هنا القصة الذائعة عن النبي هو ، نبي اللّه على أيام الوثنية ، الذي دعا قومه للتوبة والهداية ، لكنه ، مثل العديد من الأنبياء الآخرين ، لم يكرم في موطنه . فانتهى في وقت مبكر من حياته إلى هذا المكان ، مطاردا من أعدائه . وفتح اللّه له الصخرة ولم يره مطاردوه بعد ذلك . والناقة الوفية التي ركبها هود وشرب من لبنها ماتت بالقرب من قبر سيدها . وعندما دخل الإسلام إلى حضرموت ، انبعثت عقيدة هود والحج إلى مقبرته بعد أن تم دمجها في العقيدة الجديدة .

لابد أن هودا كان رجلا ضخما جدا ، إذ يبلغ طول قبره حوالي ١٢٠ قدما . وشيدت القبة في الموقع الذي يقال إن رأسه يرقد فيه ، المكان الذي انصدعت فيه الصخرة . البناء نسق حضرمي خالص ، بسيط وفاتن . وفي المسيل الضيق المحاط والمهدد بكتل داكنة وغليظة من حجارة بنية سوداء ، فإن هذا الصرح الأبيض الزاهي ببساطته الجميلة وزخرفته الرزينة يشبه الصوت الذي

يعبر عما هو أجمل وأرقى في الإنسان في عالم من الخشونة والفاقة . هذا الصوت ، الذي ينطق في الصمت الأبدي في هذا الركن المعزول الساكن من العالم ، نسمعه ونفهمه حتى نحن ، أول حجاج مسيحيين من الغرب . وفهمنا الآن من البدوي الذي يسمي نفسه مسلما ، ولكنه ما زال وثنيا ، حيث يقترب من هذه البقعة برهبة مقدسة . هنا ، لمدى ثلاثة أيام ينعم بالسلام وبالخطاب الأخوي مع رفاقه ، هنا يزول الخوف ، وهنا يقف بكل الصدق ، على أعتاب الأرض المقدسة . وتقترب رغبة حياته الكبرى ، إلى قبة نبيه التي تصنع المعجزات ، مثل الطفل المفعم بالأمل والثقة . وهو أو في الغالب هي ، يحمل في يده وتدا خشبيا وخيطا ملونا من الصوف مربوط في نهايته حجر صغير . ويدفع الوتد داخل الحائط الخارجي للقبة أو داخل حدود الصخر المستديرة المطلية بالأبيض ، التي تحدد المكان الذي يرقد فيه الجسد . ويبدو أنه غير مسموح بدفع الأوتاد داخل قمة القبة . أما خيوط الصوف فتمضغ في شكل كتل وتخلط باللعاب وتغرز في الجدران والسقف . فتصبح الجدران مزينة بشكل مسرف حتى لتبدو أنها مغطاة بورق حائط ملون أو أثرتها رسومات بألوان زاهية .

اقتربنا من الحرم المقدس في حذر وهدوء . لم يأت أحد ليمنعنا من الدخول ، فتشجعنا ودخلنا . ومن حسن الحظ كذلك لم يكن هناك أحد في الداخل . هناك بعض الحجاج تحتنا في مسجد الناقة ، ولو كان معهم حراس المباني لكانوا لقنوهم كيف يتلون الصلوات الخاصة . ثم ارتفعت إلينا أصوات التراتيل التي كانت تتلى جماعيا ، وكانت تكرر بإصرار رتيب ، وبتعجل متزايد . شاهدنا في منتصف قبة النبي هود ، قطعة مستديرة من البناء تشبه قاعدة عمود ضخم جدا . وهي مبنية فوق الصخرة الناتئة ، بها في هذا المكان بالتحديد صدع واسع عميق . هذا هو المكان الذي انفتحت فيه الصخرة بأمر الله ولم تنغلق مرة أخرى تماما . والصخرة ، وعلى الأخص حافة الشق ، صقيلة

ملساء من أثر آلاف الأيدي التي كانت تتمسح بها في الصلاة ، ومن أثر الشفاة التي كانت تقبل هذه البقعة المقدسة . كتبت على الجدران هنا وهناك آيات قرآنية ذكر فيها النبي هود ، أو أحاديث نبوية . تمجد مزايا الحج إلى قبر هود . كانت الشمس تميل إلى المغيب عندما انتقلنا من القلعة التي تقف عليها القبة المشرفة المبنية حولها المطلة على الوادي الطويل الذي جئنا عبره . يشع الماء في مجرى السيل مثل الذهب من ضياء شمس المغيب . واتخذت الأعشاب والأشجار على ضفتيه لونا بنفسجيا . وأصبحت جدران الصخر الصارمة غير واضحة وفقدت نظرتها الصارمة الخطرة . هذه هي اللحظة المهيبة ، حيث الصحراء والجول والوادي تغدو جميلة بشكل مؤثر .

نزلنا بالسلام إلى المدينة الصامتة في المسيل الضيق . ورأينا في مسجد الناقة بين العمدان البيضاء ، الحجاج يؤدون الصلاة في صفوف ، يسجدون ثم يقفون مرة أخرى . كان لدعواتهم في الصلاة صوت مؤثر في ذلك الصمت العميق الذي يخيم على السماء . المسجد جديد جدا ؛ وتبرز من جانب الجبل فوق المبنى كتلة كبيرة من الصخر يقال إنها الجمل المتحجر . هناك شرفة كبيرة بيضاء ، فوقها صفوف مستقيمة من أعمدة بسيطة مستديرة يقف عليها سطح منبسط ، وسلالم بيضاء عريضة تقود إلى المدينة ، شيء شامل مكتمل رزين وجميل .

اسطتعنا أن ندخل أحد منازل آل الكاف الكبيرة عن طريق باب خلفي صغير . كانت جدران الصخر والمنزل تشع بالحرارة التي امتصتها أثناء النهار ؛ وتمر من وقت لآخر دفعات من الهواء الساخن عبر المسيل الضيق . تسلقنا إلى شرفة السطح . وصلت القافلة قبلنا بوقت قصير واستلقى رفاقنا في بقية السطح . لم يكن لأي منهم طاقة ليهتم بنا ، ولا أحد يقدم لنا الطعام والشراب ، رغم أننا نموت من الظمأ ولا بد أن نشرب . فقام أحد البدو المرافقين للقافلة يبحث عن الماء ، بعد إغرائه بوليمة موعودة . فالآبار في المدينة لا توفر ماء جيدا للشرب ، الماء

في الوادي مالح ولا يشربه إلا الحجاج ، ويستحمون فيه أيضا ، ويعزون إليه قوة مطهرة . لكن توجد بئر بها ماء حلو في وادي برهوت ، على مسيرة نصف ساعة على الأقل من المدينة . واستلقينا كلنا ونحن في حالة إغماء وضيق صدر من الحرارة العنيفة ، وعندما لم يرجع البدوي بعد مضي ساعة ، بدأنا نشعر بالقلق على الماء . هل يمكن أن يكون قد ظل الطريق ؟ وهل جفت البئر ؟ وعذبتنا هذه الفكرة ، وشعرنا بضرورة الحصول على الماء ، إذ بدونها قد يصعب علينا أن نبقى أحياء بعد انقضى الليل . كنت أحدق من سريري السفري عاليا نحو الصخور الداكنة ، التي تبرز من الجرف الحاد ، وهي معلقة فوقنا بشكل خطير : يظهر أننا سنتحطم إلى أشلاء إذا انهارت منها كتلة . وأمسك الظمأ بخناقنا وبدأت تنتاب عقولنا رؤى مرعبة . من الأفضل أن نغمض أعيننا من الصخور المعلقة . لكن هذا جعل أكثر سوءا . عندها بدأت جلاميد الصخر تكبر بشكل هائل ، وأصبحت الحافة خطرا واحدا أسود . إنها ستنهد فوقنا ، وتلاشينا فيها ، واحتوانا الصمت المميت في الليل الحالك السواد في بئر برهوت ، بوابة الجحيم . حاولت أن أصرخ طالبا النجدة ، لكن لا صوت يخرج من حنجرتي الجافة . وشعرت بجسمي ثقيلا مثل الرصاص ، فبذلت كل ما أملك من قوة وحاولت أن أهرب من هذا المكان المرعب . ثم أفقت ورأيت ضوء القمر فوق القمم السوداء عاليا فوقي . ورقدنا في صمت ، ننتظر ونأمل ونلهث في طلب الماء .

أخيرا سمعنا حركة البدوي في طريق عودته فقفزنا على أرجلنا . وضع القربة المليئة بالماء في وسطنا ، وبدأ رجالنا واحدا واحدا يجثون أمامها ويشربون من فمها في جرعات كبيرة حتى يفقد الآخرون الصبر فينحوه برفق جانبا . وتركنا الآخرين يشربون أولا ، لكن أكدنا بشكل واضح على صالح ، طباخنا ، أن يملأ براد الشاي حتى النهاية بعد أن يفرغ من الشراب . ثم شربنا أيضا بعض الماء الفاتر العكر ، برائحته القوية من أثر القربة التي

حمل فيها . اعتدنا أثناء السفر أن نشرب في المساء أقل ما يمكن من الماء الفاتر النتن . لأننا سنستمتع بعدها بأنغام الساموروا الكبير فوق نار المعسكر . ونشرب الشاي الخفيف الساخن . وهو أفضل للظمأ ويعطي إحساسا بالانتعاش . فنشرب أكثر ما نستطيع . ولعلي في هذا قلت الكثير .
بدأ رفاقنا البدو الآن في طهي الطعام . كان الوقت متأخرا عندما أكلوا ملء بطونهم واستعدوا للنوم . وارتفع القمر فوق الجبال وأضاء الوادي الذي جئنا عبره . أصبح مجرى السيل صقيلا مثل المرآة . وغدا مثل شريط فضي . وأصبحت الأعشاب والأشجار على الضفاف مثل شريط أبيض . وجدران الصخر المتداعية مثل شيء بدائي . دليل صامت على خراب قوم عاد . الذين أصبحوا جامدين من الصمت والخمول .

٧) بئر برهوت . المدخل إلى مأوى أرواح الكفرة :

قررنا أن نبدأ رحلتنا إلى بئر برهوت في اليوم التالي قبل الفجر . حتى نلقي نظرة قريبة على بركان الأساطير هذا وعلى فوهته . خصص لنا اثنان من البدو ليدلونا على الطريق لكن قلة أخرى من جماعتنا كانت لهم الشجاعة ليرافقونا . صالح طباخنا . الذي سافر عبر كل المنطقة القاسية من اليمن مساعدا لتاجر يوناني يسافر على حمار . لا يخشى شيئا وألقى بثقله معنا . وقال إنه سيمضي معنا حيثما نمضي . ثم هناك السيد علي العطاس الذي يسعى ليخلد اسمه في حضرموت . والذي هبط بئر غمدان مع فون فيسمان . ويسير معنا هذه المرة ليضيف بهبوطه بئر برهوت مجدا إلى أمجاده . وسوف يأتي قائد قافلتنا أيضا . فقد برهن على أنه متسلق صخور جسور وأنه يفحص أي شيء يثير اهتماما . ثم هناك أيضا بعض البدو الذين سيتركون لأحلام تلك الليلة لتقرر لهم إن كانوا سيصاحبوننا أم لا . كانت المهمة شاقة في نظر رفاقنا أكثر مما في نظرنا . لأنهم مقتنعون عن يقين بأن الثعابين والكائنات المفترسة

تعيش في اللجج السوداء في بئر برهوت ، وهم يعرفون ويتقبلون بسذاجة الحكاوي التي تقال عن الأبخرة الخانقة التي تخرج منها . ومع ذلك يثقون في مقدرة فون فيسمان الأبيض وقوة معداته التي تقلل من ثقل تلك العوامل المرعبة . فإذا سرنا أمامهم بهدوء ونحن مسلحون بمسدساتنا الأوتوماتيكية وبطارياتنا الكهربائية فيمكن أن يمتلكوا شجاعة كافية ويتبعونا .

جاء ذكر بئر برهوت في عدد من الأعمال الجغرافية العربية القديمة . فالهمداني الذي ألف عام ٩٠٠ م " كتاب صفة جزيرة العرب " ذكر بئر برهوت ضمن آبار أخرى شهيرة وأورد اللعنة القائلة : " عسى اللّه أن يرسل روحه لتنظم إلى أرواح الكفرة في بئر برهوت " .

ويقول المسعودي الذي كتب " مروج الذهب " حوالي ٩٥٠ م : " أطعمة وادي برهوت وهي نحو بلاد أسفار وحضرموت من بلاد الشحر وذلك بين بلاد اليمن وبلاد عمان وصوتها يسمع كالرعد من أميال كثيرة تقذف من قعرها بجمر كالجبال وقطع من الصخور سود حتى يرتفع ذلك في الهواء ويدرك حسا من أميال كثيرة ثم ينعكس سفلا فيهوي إلى قعرها وحولها ، والجمر الذي يظهر منها حجارة قد احمرت مما أحالها من مواد حرارة النار " .

وكتب القزويني في " عجائب المخلوقات " حوالي عام ١٢٥٠م : " بئر برهوت بالقرب من حضرموت . وهي التي قال صلى اللّه عليه وسلم فيها أرواح الكفار والمنافقين . وهي بئر عادية في فلاة ووادي عظيم . وعن علي – رضي اللّه عنه – أنه قال : " أبغض البقاع إلى اللّه تعالى وادي برهوت فيه بئر ماؤها أسود منتن تأوي إليها أرواح الكفار . وحكى الأصمعي عن رجل من أهل حضرموت أنه قال نجد من ناحية برهوت في بعض الأوقات رائحة فظيعة منتنة جدا فيأتينا خبر بموت عظيم من عظماء الكفار .

ذكر أيضا الكتاب الآخرون الذين تحدثوا عن حضرموت بئر برهوت وأشاروا إلى أنهم سمعوا عنها . وما ذكروه لا يختلف في الأشياء الأساسية عما ذكره الكتاب القدامى .

أول معلومات دقيقة جاءت من عالم حضرمي سبق ذكره ، وهو المرحوم السيد بن عقيل ، وهو أول كاتب يرى بئر برهوت بنفسه بل كانت لديه الشجاعة ودخلها من مسافة وقدم رواية مفصلة لما اعتقد أنه شاهده ولاحظه في داخلها . صحيح إنه ما زال يتحدث عن دبيب الثعابين ، ورائحة السلفا التي تلقى فيها بأرواح الكفرة .

هذا الوصف لرحلاته نشر فقط بعد عودتنا من حضرموت . ولكن سعدنا أنا ورفيقي بمقابلة السيد العالم وسمعنا من فمه الكثير الذي يستحق المعرفة . وقد قضى سنواته الأخيرة في الحديدة ، لأن حكومة القعيطي نفته . وقابلنا أخا له في منزل الكاف في تريم . غادرنا قبر هود إلى بئر برهوت في الساعة الخامسة من صباح الثالث من يونيو . وسرنا على الأقدام ، لكن معنا جمل محمل بقرب الماء . أخذنا من العفش فقط آلات التصوير والبطاريات الكهربائية والبوصلات وحبلا . يدخل وادي في الوادي الرئيسي بالقرب من قبر هود . كان في البداية متسع اتساعا لا بأس به ، وفوق التربة طبقة سميكة من الراسب الطفالي . ما زالت هناك بقايا زراعة وبعض بساتين النخيل الصغيرة . هناك أيضا البئر التي حصلنا منها على ماء الشرب في الليلة الماضية ، لم يبق أثر لأخشاب أشجار النخيل والقرى التي تتحدث عنها الروايات الشائعة ، لم نر ابدا آثارا لمنازل أو قلاع . واخفر مجرى السيل عميقا وبقيت آخر عشر شجرات نخيل أو ما تقاربها مهددة بالاقتلاع بهذه النقرة الصغيرة . كلما تقدمنا تتغلب الجلاميد والرمال على الراسب الطفالي ، ويضيق الوادي وتتلوى الممرات بين شظايا صخر مزعج . أسرعنا السير ، تدفع بنا الرغبة لرؤية هذا السر في حضرموت . الهضاب هنا متداخلة لحد كبير ، وترتفع الجروف الهائجة في كل الجوانب . ولا توجد آثار بركانية . توجد هنا طبقة سميكة من الصخر الجيري فوق حجر رملي كما في أي مكان آخر في حضرموت . وتظهر هنا وهناك المداخل المظلمة للكهوف في منحدرات الجبال .

سـرنا لـساعتين أو ثـلاث عـبر وادي برهـوت ، الـذي يـصبح أكـثـر ضيقا كلما تعرج صاعدا ، لم نـر أي كـائن حـي ، في هـذا العـالم مـن الـصخر المتـوحش الـصامت . ,إذا قـدر لأحـد أن يـسافر فيـه وحيـدا فـسوف يغمـره إحـساس بوحـدة شـديدة . وفـوق ذلـك ، ، يـصبح الحـر غـير محتمـل في صـخرة الـوادي الـضيق هـذا كـلمـا ارتفعت الشمس ، إنه منطقة رعب ، لكن في الواقع كل المنـاطق غير المأهولة في حضرموت كذلك . إنه أكثر قسوة هنا مـن غـيره . لكن هذا لا يفسر لماذا ابتدع الخيال الشعبي مثل هذه القـصص المرعبة عن بئر برهوت وهي قـصص يـصدق بهـا النـاس في الـبلاد حتى الوقت الحاضر .

وقفنا أخيرا عنـد جانـب مـن سـفح جبـل برهـوت . ورأينـا فتحـة الكهـف العريضة المظلمـة فوقنـا بحـوالي ٣٠٠ قـدما ، في جـدار جبل شـديد الانحدار ، كان المنظر له تأثير لا يخلو من تحـد . وأسـرع حارسنا يرمي أي شـيء زائد في كومة بجانب الجمل مع قـرب المـاء ، ثم تـسلق بجهـد إلى مـدخل الكهـف . ارتوينـا جيـدا ثم تبعنـاهم . الحفر في الصخر ممر متعرج يمكن أن تمر به الجمـال ؛ حطـت الميـاه أجزاء منه و لا يعطي الانطباع بأنه مستعمل . يقول الـسيد بـن عقيـل في بحثـه إن الجمـال كانـت تـسير في هـذا الممـر لتحمـل السماد من بئر برهوت . ولا بد أن هذا الـسماد كان روث الخفافيش .

عندما وصلنا إلى القمـة ، وجـدنا رفاقنـا يجلـسون علـى جلاميـد مبعثرة على رواق عريض عال عند مدخل بئر برهـوت ، الـذي يبلـغ اتساعه حوالي ١٢٠ قدما ، وارتفاعـه ٤٥ قـدما وعمقـه ٦٠ قـدما . يوجد العديد مـن الجلاميـد مبعثـرة قبـل المـدخل إلى الكهـف في الحـائط الأبعـد ويبلـغ ارتفاعهـا بـضعة أقـدام ، ويبلـغ اتـساع الكهف تـسعة أقـدام وارتفاعـه أربعـة أقـدام . بعـد أن سـجلنا هذه الحقيقة أخذنا راحة قـصيرة . يـشتم الـسيد علـي المغـامرة فبدأت أفكاره ترى الشهرة تومئ إليه ، وأخذ يقود الطريق زاحفـا نحو الكهف ، وهو عار إلا من قطعة قمـاش تغطـي عورتـه وعلـق

على كتفه بندقية أحد البدو الذين تخلفوا . وتبعناه بالبطاريات والحبل . كانت البوصلة ومذكرة الطريق مع فون فيسمان . وبما انه خبير في فحص الكهوف ، سوف يضع إستكشا لطريقنا داخل بئر برهوت ، ولذلك توقعنا ، إذا عملت البطاريات بشكل تام . أن نجد طريقنا للعودة مرة أخرى إلى المدخل . ومعنا بجانب البطاريات الثلاث فانوس ، لنتأكد به أن كمية الأكسجين في الكهف كافية . سار السيد علي في المقدمة بالمصباح ، وتبعه فون فيسمان وبيده شريط المقاسات ، وكنت أتبعهم عندما يصبح الشريط مشدودا ويتم تسجيل الاتجاه .

تسلقنا بحذر الواحد خلف الآخر إلى داخل الظلام الكثيف ، ويقود الكهف أفقيا إلى جبل الحجر الجيري . وعبرنا فوق جلاميد حادة وخشنة ، فوصلنا إلى نقطة أصبح الكهف منخفضا جدا حتى زحفنا على أيدينا وأقدامنا لنتمكن من العبور . يصبح الممر بعد هذا واسعا وعاليا مرة أخرى . كان علينا أن نعبر شقوقا عميقة ، لم يتمكن حتى شعاع مصابيحنا أن يسبر قاعها . والصخرة التي كنا نسير فوقها مغطاة بطبقة سمكية من تراب ناعم غاصت فيه أقدامنا بلا صوت . لا يصل ضوء النهار إلى هنا . وأحدث الظلام انطباعا عميقا على العرب الذين كانوا معنا ، لأنهم على قناعة أن هذا الليل الأسود يخبئ وحوشا وأرواحا ، وسوف تستاء من المتطفلين على مملكتها . فكان الأمر فوق الاحتمال بالنسبة لبعضهم ؛ وما زال في إمكانهم أن يجدوا طريقهم إلى الخارج وخرجوا بالفعل والذين بقوا لم ينبس أي واحد منهم بكلمة استهزاء أو تأنيب . لن نترك قادتنا ، فون فيسمان والسيد علي ، لوحدهما ، وبقلوب مرتجفة واصلنا السير . الكهف دافئ جدا في الداخل ، نشعر بالخفافيش تتطاير حولنا فتنبعث رائحة كريهة مصدرها هذه الحيوانات ، وكنا نسمع حنينها الرقيق . تقدمنا ونحن نسير بحذر فوق سجادة التراب . ثم يدلف الممر إلى فراغ عال واسع . أخبرنا رفاقنا العرب ، الذين كانوا يحدقون ببلاهة حول أبعاد هذه

الصالة غير المتوقعة : " هذه كاتدرائية الكفرة " . وكنا نسمع دعواتهم الهامسة : " اللّه أكبر ، اللّه العليم " . يضيق الفراغ في الجانب البعيد ويصبح مرة أخرى ممرا ، وينتهي بأن يصبح ضيقا بحيث يصعب عبوره . يبدو لنا أن " الكاتدرائية " ليست لها نهاية ، ما عدا جانب آخر عريض عال في الجدار على الأيمن . يقود هذا الممر الأخير أولا إلى أعلى ، فوق جلاميد ؛ وكلما زاد توغلنا في الكهف ، أصبح أكثر حرارة . ويضيق الصدر بسبب الظلام والحرارة ، وينطبق عليه الرائحة الكريهة التي ما زالت متزايدة ، فتهيج دمي ، وأعتقد أن أغلبنا كان يتمنى أن يصل إلى نهاية مقفولة حتى نعود أدراجنا . واصلنا في هذه الأثناء تقدمنا بحذر وعبرنا دهاليز جانبية تقود مباشرة إلى اليمين واليسار . ووجدنا في بداية الممر الذي سلكناه آثارا لوجود آدمي ؛ كوة صغيرة نحتت في جدار الحجر الجيري بآلة ما زالت علاماتها ظاهرة جدا ، وبجانبها بعض الفحم وعلى جدران الكوة سخم . وتوجد بقعة أخرى مشابهة أبعد ، حيث بعض الأغصان مرمية أيضا بين الفحم والرماد . ويفترض البدو أن هذا كان ملجأ لبعض الفارين من أعدائهم .

هذا الدهليز طويل يضيق في النهاية حتى يصل إلى طريق مقفول . والملاحظ في هذه الممرات الضيقة التي ليس بها منفذ ، أنها أكثر حرارة من الدهليز الرئيسي العريض . ولو لم يكن اهتمامنا منصبا على فحص الكهف لكان من الصعب علينا احتمال الحرارة . لكن لا نفكر فيها الآن على أننا ما إن خرجنا إلى و ضوء النهار حتى كنا نشبه الوقادين ، يتصبب العرق من كل مسامنا وأجسامنا كلها مكسوة بالغبار . وأحيانا تهبط الدهليز هبوطا حادا ؛ ولا يمكن دخول أحدها إلا عن طريق حفرة صغيرة . ودخل السيد علي أولا . وما إن دخل حتى رأيناه ينزلق باستمرار فوق طبقة ناعمة من الحجارة الصقيلة ثم تبعه فون فيسمان ، أما نحن فلم نتجرأ على الدخول . وتلاشى ضوؤهم بعيدا في الأعماق وتبعتهم ضوضاء حجارة ضخمة ؛ ثم جاء

السكون . وأمرت بإطفاء الأنوار حتى أوفر البطاريات ؛ وبعث الظلام الدامس والسكون الرعب في رفاقي ، الذين كانوا يتمنون في كل لحظة أن تضاء الأنوار مرة أخرى . وتعلقت أفكارنا بقلق حول احتمال إصابة الشياطين الجريئين بحادث ، إذ ربما أصبح المنحدر أكثر حدة في الأسفل . كان معهما الحبل الوحيد الذي طوله ٧٠ قدما . ووقفنا ننتظر هناك بقلق متزايد مدى عشرين دقيقة ؛ ثم رأينا لراحتنا الكبرى وميضا خافتا بعيدا في الأعماق ، وبعد فترة كنا نساعد الرجلين المرهقين ليتسلقا مرة أخرى حائط الدهليز .

تبرز على الجدران في المكان الذي تضيق فيه الممرات ، كل أنواع الأشياء الحادة تظهر مثل المحار وكانت في الغالب سليمة جدا . التقطنا بعضها وأخذناه معنا . وتتلألق الجدران أيضا كأنما تغطيها طبقة من الملح أو بودرة أخرى بيضاء ، لكن بالحكم عليها من طعمها ، لم تكن من نوع الملح العادي .

تم أخيرا تفتيش كل الممرات التي وصلناها وبدأنا العودة إلى الدهليز الرئيسي . وكلما اقتربنا من المخرج يصبح الطقس مقبول البرودة ؛ ومن سوء الحظ نسينا أن نحضر معنا مقياس الحرارة لنقيس الحرارة العالية داخل الكهف . وعندما خرجنا إلى المدخل المسقوف لبئر برهوت وجدنا حراسنا يتمددون في الخارج على الجلاميد ، ويغطون في النوم . وعندما أيقظناهم ، كانوا في حالة ذهول من الدهشة لرؤيتنا مرة أخرى . لقد انتظرونا ربما نصف ساعة ، آملين عودتنا ، لكن عندما لم نرجع وقتها ، أصبحوا متأكدين بأن الثعابين والأرواح الجهنمية قد سحقتنا أو اختنقنا بأبخرة السلفا .

لكن ها نحن نقف أمامهم بعد ساعتين ، كنا بالتأكيد متسخين ومشبعين بالعرق ، لكننا أحياء تماما . لقد أثبتنا الحقيقة أن بئر برهوت كهف حجر جيري نموذجي ، وليس به أي شيء بركاني . والرائحة الغريبة غير الضارة بداخله لا تأتي من أبخرة سلفا ؛ بل لعلها بسبب الغبار من الصخور المتآكلة ، أو ربما من الخفافيش

. والحرارة العالية ، بالذات عند نهايات الدهليز ، وليس نتيجة لشيء بركاني ، بل مرتبطة بالحرارة العالية التي يصل إليها الهواء الخارجي في وادي برهوت . ويتوغل الهواء الحار إلى أقصى وأعلى أجزاء الكهف ولا يبرد هناك كثيرا . لم نر في كل منطقة حضرموت أي أثر بركاني ، ما عدا طبقات الصخور المحطمة في الساحل .

عندما اعتادت أعيننا على الضوء مرة أخرى وشربنا ، هبطنا ثانية إلى الوادي . كانت الشمس تشع داخلة مباشرة والحر خانق ، ولن نتخلص من الحر حتى نصل قبر هود ، لذلك سرنا بأقصى ما استطعنا من سرعة وبعد ساعتين وصلنا البئر عند بداية الوادي . أما حراسنا فلم يستطيعوا مجاراتنا ، إلا أن شابين من بدو المناهيل ، لهما رشاقة ومرونة وقوة الوعل ، رافقانا فكانا رفقة مسلية . كنا في غاية الإرهاق عندما وصلنا إلى البئر ، بينما كانا هما في منتهى النشاط . وجلبنا الماء بعد ذلك ، ولم يشربا إلا مرة واحدة . وشربنا الماء مرة أخرى – دافئا لكن كان نظيفا – وسكبناه فوق ظهورنا وصدورنا ، فحصلنا على حمام احتجنا له طويلا . كان أحدهما يتحدث السواحيلي ؛ قضى عامين في نيروبي حيث كان له دكان ووفر ٦٠٠ ريال . والآن هو المالك السعيد لعشرة جمال وزوجة صغيرة . ولم يستطع الآخر أن يتزوج ، حيث مهر الزواج هنا من ١٥٠ إلى ٢٠٠ ريال وليس لديه في الوقت الحاضر هذا المبلغ . يريدنا أن نأخذه إلى الخارج ، ليجرب حظه هناك مثلما فعل رفيقه . يلبس المنهايل قلادة من شريط جلدي مضفور ومرجان أحمر وأبيض ، ورأيت حول وسطهم ، تحت حزام الذخيرة ، شرائط فنية قريبة التشابه من بعضها البعض . ورؤوسهم عارية ، يعصبونها بشريط حول شعرهم المدهون ، وهو متموج وينسدل طويلا ، ويلبسون قماشا صغيرا حول وسطهم وفوقه حزام الرصاص مثبت بإبزيم . وما زال لدى كثير منهم البنادق التي تعبأ من فوهتها . ويتضح من

مظهرهم البدائي أن الأرض التي يجوبونها تقع على الحدود الجنوبية للربع الخالي ، أقصى الحدود الشمالية لحضرموت .
الحرارة في مسيل قبر هود غير محتملة أيضا . تصل درجة الحرارة في الظل بين ٤٠ إلى ٤٢ درجة مئوية . وكان الواجب الذي فرضه كل واحد على نفسه أن يرقد ساكنا ، ويحاول أن يبدو هادئا بقدر المستطاع وينتظر بصبر حتى تنتهي الحرارة الأعنف . وعندما هبطت الشمس في المساء إلى حد معقول أعطينا الإشارة بتحرك الركب ، وواجهونا باحتجاج كبير ، لأنهم يجب أن يذهبوا للصلاة في قبة المقبرة وفي مسجد الناقة . والسيد علي بجانب أنه رجل مغامرات جسور ، كان أيضا مسلما ورعا ، يؤم الناس في الصلاة ويتلو آيات من القرآن تناسب مقتضى الحال . زيادة على ذلك ، كان كل واحد مكلف بدعوات يؤديها للأهل والأصدقاء ، لذلك تبدو تلك الصلوات عند قبر هود وكأنها بلا نهاية . كنا نرى صفوفهم من منزلنا بين الأعمدة على جانب التل الداكن الحجري ، وأصوات صلواتهم وابتهالاتهم تعلو وتنخفض في أمواج من الصوت فتحدث أصداء في الوادي الصامت الذي يشبه الموات .
رجعوا أخيرا من الصلاة وهبطوا السلالم البيضاء ، وساروا نحو المدينة وهم في غاية الرضا من أنفسهم . وأخذنا نستعد للرحيل ، أما هم فلم يكونوا على استعداد . كانوا يريدون المزيد من الوقت ، ليستمتعوا بأثر رجعي بصلواتهم ، ولا يتحركون إلا بعد الغروب . لكن صبرنا كان قد نفد عند تلك اللحظة فتحركنا ، فون فيسمان وأنا ، وسط احتجاج كبير ، وتبعنا الحماران بالحمير تحمل معداتنا وماء الشرب . وعندما رأى الآخرون أن قرارنا لا رجعة عنه ، أرسلوا حارسنا مسلحا ليتبعنا .

٨) أنقاض المكينون ، حصن ثوب وحصن العر :

سرنا بخطى واسعة فوق الممر الناعم من الراسب الطفالي . وسرعان ما ملأ ظل جدار الوادي الذي كنا نسير عبره بطن الوادي . واختفى النهار العنيف الذي يعمي البصر ، واتخذت سماء المساء ألوانا ناعمة مرحة انعكست فوق الريف الهادئ . بجانب الممر شجيرات آوت إليها بعض الطيور ، عصافير ونوع من الحمام ، قليل الحياء فمزق سكون المكان وجموده . ينمو الأراك و الطرفاء هنا بكثرة ، حيث يوجد دائما ماء في مجرى السيل . وسرعان ما عبرنا الدلتا الواسعة لـ " سبعة وديان " التي تصب في الوادي الرئيسي .

وصلنا بعد ساعتين ونصف من السير المتواصل إلى فغمة في ظلام حالك وطرقنا باب المنزل ، الذي قضينا فيه بضع ساعات أثناء النهار الحار في رحلة رواحنا . وبالرغم من أن رب الدار قد أوى إلى مضجعه مع عائلته فوق السطح ، وغطاه من شعر الماعز ومخدرات ملطخة بالدهن . وعندما استقر كل واحد منا ليرتاح تبدت قافلتنا من الظلام ، واستقبل الرجال بدورهم بحفاوة بالغة وخصص لهم مكان في سطح آخر .

غادرنا فغمة في فجر اليوم التالي ، الثالث من يونيو ، قبل أن تشتد الحرارة ، ووصلنا السوم ، فزرنا مرة أخرى مضيفنا السابق . استقبلنا بحفاوة زائدة وأدخلونا المجلس الكبير . كنا نريد أن نكتب ونرتاح ، فأرسلنا من يتحسس إمكانية وجود غرفة صغيرة لنا ؛ وفي الحال أخلوا الغرفة العامة ووضعوها تحت تصرفنا . وكنا نرغب أن نتحرك مبكرا عند الظهر لنشاهد مجموعة الأنقاض عند مكينون وثوب والعر قبل مغيب الشمس .

تقع مجموعة الأنقاض المعروفة باسم المكينون بالقرب من السوم في اتجاه الحائط الشمالي مجموعة الأنقاض المعروفة باسم المكينون بالقرب من السوم في اتجاه الحائط الشمالي للوادي . وتقف بقايا المباني القديمة بارزة فوق السهل مثل كومة

من الركام ، و بئرها الآن مليئة إلى نصفها بالحجارة . فشلنا في العثور على حجارة بها نقوش . يتصل مع هذه الأكوام فضاء شاسع يتخذ منه أهل المنطقة مقبرة ؛ ووضعت حجارة في دوائر وقطع ناقصة يقال إنها توضح القبر . وقوم عاد حسب التقليد السائد قبيلة من العمالقة ، و تنسجم أبعاد هذه الدوائر والقطع مع هذا الفهم . ليس لدينا وقت للقيام بأعمال الحفريات ؛ هناك مجموعات أخرى من الأنقاض تحتاج إلى تنقيب . وتبعنا دليلنا ضد إداراتنا وأدرنا ظهرنا للمكينون وتبعناه إلى وادي سيخور . أمكننا أن نرى في البعيد تلا عاليا يرتفع فوق أنقاض ، لا بد أنها كانت في يوم من الأيام قلعة . فموقعها يدل على هذا فهناك أشياء كثيرة مشتركة مع أنقاض القلعة في العر ، فهي تقف فوق تل مشابه يبرز من الوادي الرئيسي ، على مسيرة نصف ساعة فقط غربا .

تسمى أنقاض القلعة عند مدخل وادي سيخور حصن ثوب . يبلغ ارتفاع المنحدرات الحادة في الصخرة الضخمة ما يقارب ٣٠٠ قدما ،مغطاة بالحطام . وفي سفحها بئر ،وعلى قمتها بقايا حائط طويل إلى حد ما ، لكن النقوش .

يمكن تفسير قلة النقوش المجودة هنا ، بالمقارنة مع وفرتها في أرض اليمن الجبلية ، إذا نظرنا إلى حضرموت باعتبارها تقع على حدود مملكتي السبئيين والمعينيين . ومن رأي البرفسور موردمان من برلين ، الذي درس وفك الرموز التي أحصرناها معنا ، أن أهل حضرموت اشتهروا بقدراتهم القتالية منذ زمن بعيد . وحسب قوله . فقد ورد اسم البلاد وملوكها في أكثر النقوش السبئية قدما ، ومرة أخرى في النصوص اللاحقة . وقد قيل الكثير عن الحروب مع حضرموت . ولا توجد أدلة توحي بأن الحضارم قد قهروا في أي وقت بواسطة جيرانهم السبئيين والمعينيين . وفي زمن علماء الإسكندرية كانت لهم مملكة منفصلة ؛ وتم تسجيل هذا بإجماع موثوق به . وكان لهم إلههم القومي سين ، مثلما كان للمعينيين عشتار ، وللسبئيين إلمقة ،

ولشعب قتبان آم وأنباي . و حافظوا أيضا على لهجتهم حتى القرن السادس من عصرنا .

على أي حال ، يبدو أنه كانت هناك حروب كثيرة ، وأن قلعتي ثوب والعر كانتا بلا شك ، تحصينات عسكرية ؛ يشير هذا إلى أن البلاد كانت منطقة بين حدود مملكتين ، ومن الطبيعي ألا تكون أنسب مكان لوضع نقوش . وما كانت التخوم الدفاعية أبدا مراكز للثقافة . إضافة إلى ذلك فالحجارة هنا لا تساعد على الحفر : إنها هشة جدا . كل النصوص التي فك رموزها مورتمان نقوش عبادات لإلههم سين .

رجعنا من حصن ثوب سيرا إلى الوادي الرئيسي ؛ الذي ما زالت تقف في وسطه فوق صخرة ضخمة وحيدة ، بقايا جدران حصن العر بجدرانه الشاهقة . هنا قابلنا القافلة ، ووحدنا جهودنا ، وحاولنا أن ننتزع قطعة من الصخر المنحوت ملتصقة بالجدار بالأسمنت فوق الجزء الأعلى من بقايا الجدران . ونجحنا بعد جهد كبير . فاتضح أننا انتزعنا تاج عمود مبيض من حجر رملي ، منحوت نحتا جيدا خاصة في جوانبه الأربعة . كان تاج العمود ثقيلا جدا ولا يمكن حمله على جمالنا ، لذلك وضع فون فيسمان الرسم الذي أبرزناه هنا . وتتضح جليا من أجزاء رأس العمود التي لم تتحطم ، مقدرة الفنان الذي نحته في الأزمنة القديمة . يبدو أن النحات رسم مناظر صيد . إذ يظهر في أحد جوانبه رجال فوق خيولهم يقاتلون أسودا ، وفي جانب آخر نسخة طبق الأصل للوعل بالغة الجودة ،وهو حيوان يلعب دورا كبيرا في الفلكور الشعبي في حضرموت . وما زال صيد الوعل الرياضة المفضلة عند الحضارم ، بالرغم من أنه يجد معارضة شديدة من زعمائهم الدينيين على أساس أن الاحتفالات التي تصحبه ذات جذور وثنية . وقرون الوعل الثقيلة المتشبعة والمنحنية بجلال إلى الخلف ، ما زالت توضع اليوم نصبا تذكارية تزين واجهات كثير من المنازل في حضرموت .

استخرجنا مرة أخرى الحجر الصغير المنحوت الذي وجدناه في الأنقاض ودفناه عند ذهابنا . هذا الحجر مسطح ومن نفس رأس عمود الحجر الرملي الأبيض ، ويظهر أن به في الأمام والخلف نحتا طبق الأصل يمثل عنقود عنب مع بعض الأوراق ،وهو حافز يظهر أيضا هنا وهناك في الجوانب المزخرفة لرأس العمود . كنا نرغب في أخذ هذا الحجر معنا إلى تريم لنضمه إلى المجموعة الصغيرة التي في حوزة مضيفنا . وبعد إصرار شديد وافق قائد القافلة على هذا ، لكن عندما أرغمنا حلول الظلام على مغادرة العر ، لاحظنا أن صاحب الجمال ، الذي كان معنا بشخصه ، كان يحمل الحجر على كتفه . فهو يعتقد أنه سوف يؤذي جمله ، رغم أن الجملين كانت حمولتهما خفيفة جدا ، وكان هو يجري سريعا ، ويقفز ، وما إلى ذلك ، ولم يكن الحجر عائقا له .

٩) ليلة فريدة :

كان الظلام حالكا عندما اقتربنا من باحفار ، التي تقع عند مدخل وادي الخون ، الآتي من الشمال . كان علينا أن نتابع مجرى السيل المليء بالماء ، وذلك بعد أن ركبنا لبعض الوقت عبر بستان نخيل بجانب الضفة . وقد سبب حماري ذعرا كبيرا ، عندما شرب كثيرا ، ثم استلقى مرتاحا في وسط البركة الراكدة . وهب الكل استجابة لصرخة ذعرنا لينقذوا الآلات والمادة الفوتوغرافية من أكياس السرج ؛ على أن استحمام الحمار انتهى دون أن يحدث أضرارا .

باحفار قرية بائسة وسكانها في منتهى الفقر ويسكنون في أكواخ . فقد تحطمت منازلهم الطينية من جراء الحروب القبلية ؛ والذين تبقوا من السكان كانوا ضعفاء في عددهم وقوتهم فلم يتمكنوا من إعادة بنائها . بقي منزل طيني واحد مصانا ، ونصبنا فوق سطحه معسكرنا لقضاء الليل في رفقة أخوية . وفي الحال جاء بعض الرجال الفضوليين ليستمتعوا بالمنظر غير

المألوف . وحدث هنا شيء لم يمر علينا أبدا من قبل : جاءت فيما بعد مجموعة من النسوة ، ليشبعن فضولهن . وجلسن يتكدسن على بعضهن ، في ركن السطح المواجه للمكان الذي اخترناه لنومنا ، ولا يفصل بيننا سوى مساحة السلالم زوبما أنهن لا يفكرن في الذهاب مرة أخرى وكن يستمعن بشغف بغرابة الأشياء التي كن يشاهدنها ، فكنا مرغمين على مواصلة عملنا دون أن نجعل وجودهن يزعجنا . وعندما نصبنا الأسرة السفرية ،وتحولت من حزمة صغيرة ،إلى أشياء طويلة وكبيرة ، صحن باندهاش .

وعندما خلعنا ملابسنا ، تحولت الدهشة باستمرار إلى مرح طاغ . وكنا نأمل أن نضع حدا لهذه الزيارة بإضاءة المصباح الكهربائي فجأة . فأخذن يقهقهن ويتزاحمن خلف بعضهن البعض وزحفن بعيدا ، وقلقنا خوفا من أن يعتري إحداهن رعب في لحظة فزع وتقفز من فوق السطح . ولم يمض وقت طويل حتى كانت الفتيات والنساء الصغيرات يجلسن مختبئات خلف ظهور الكبار منهن حتى يواصلن تحديقهن وهدير الضحكات من الرجال والصبية . وعندما أخلدت إلى النوم ما زالت النسوة يلبسهن الأسود جالسات في مكانهن .

أيقظتنا الشمس في الرابع من يونيو . كل ما حولنا يغفله الهجوع واختفت النسوة . وحدقت عبر الوادي الصغير بزرائبه البائسة . ورأيت على الرمال حول منزلنا ، أشكالا سوداء بشعة راقدة . وبدأت إحدها تتحرك ، فإذا بإمرأة تنتصب جالسة وهي سكرى من النعاس . ثم وقفت وهي تترنح ، ونفضت بعض التراب والرمال من الخرق السوداء التي تلفها حولها . وسارت مبتعدة في صمت إلى كوخها لتواصل حياتها الرتيبة الفقيرة . وسرعان ما تبعتها واحدة ثانية ثم اختفين الواحدة تلو الأخرى . ورأينا هنا في لحظة لمحات خاطفة من الفقر المدقع ورتابة الحياة والجوع في قرية من هذا الجزء من حضرموت ، حيث هلك السكان وامتصت الحرب قواهم ، والرجال الذين عاشوا هربوا من مآسيها إلى بلاد

أجنبية ، أما النساء الحضرميات اللائي يقاسين طويلا ، فقد بقين وحدهن ، لأنهن لا يغادرن بلادهن . إن عالم المرأة وحياة الأسرة يبقى دائما كتابا مغلقا بالنسبة لنا .

١٠) زيارة إلى عينات :

المسافة من باحفار إلى قسم كبيرة ، فوصلنا تلك المدينة الصغيرة الميتة في وقت مبكر من اليوم ، لنجد العربة التي وعدنا بها الكاف ، في انتظارنا . وسرنا عبر المدينة التي نصفها أنقاض ؛ لكن أحد السادة الذي أثرى في المهجر شيد لنفسه هنا قصرا أميريا . ولم ينس بالطبع في نفس الوقت أن يقدم شكره للّه ببناء مسجد ، قطعة بيضاء رائعة ملتمعة من فن المعمار الحضرمي . ويبدو أن التباين بين الثراء الكبير لكثير من السادة وفقر السواد الأعظم من الناس لا يخلق شعورا حادا هنا . وتقف قصور الأغنياء وسط المدن المتداعية ؛ يلعب أطفالهم بملابسهم الأنيقة مع أطفال العبيد السود نصف العراة . ويعود الأغنياء بمحض إرادتهم من بلاد الثقافة والازدهار إلى موطنهم حيث الفقر المروع ، ليستمتعوا داخل حدوده بالثروة التي جمعوها . وقد شاء اللّه أن يكون في العالم رجال أثرياء ورجال فقراء يمنحهم الأغنياء صدقات . إنه من المناسب والملائم أن يكون في كل مجتمع مسلم قوم فقراء ، وأن يكون عددهم كبيرا بالذات في أماكن الحجاج ، حتى يجد التقاة فرصة كافية للممارسة الإنفاق الذي أمرهم به اللّه . ولاحظنا القليل من الحسد والصراع الطبقي في حضرموت . ويرجع هذا جزئيا بالتأكيد إلى أسلوب الحياة الديمقراطي . إن امتازت طبقة السادة لها أسس دينية وليست مالية . الجنود وخدم المنزل والمواطنون العاديون في القرية يجتمعون في مجلس الأغنياء ويأكلون معا ، ويشربون من نفس الإناء ويشاركون في نفس الحديث .

ذهبنا من قسم بالسيارة على طول الضفة الطينية العالية للمسيلة (بطن الوادي) ، التي عرتها النقرة . وعندما وصلنا إلى نقطة قبالة عينات حاولنا أن نعبر بطن وادي المسيلة

الرملية لنصل إلى المدينة . كانت بساتين النخيل تزداد ضمورا والتربة هنا مغطاة كليا بطبقة من الرمال انغرست سيارتنا باستمرار في رمال المسيلة في رمال المسيلة هذه ووجدنا صعوبة في الوصول إلى عينات ، التي يتحدث فيها كل شيء عن عظمة زالت . المدينة مشتتة فوق مساحة شاسعة ؛ والفضاء الكبير المفتوح يعطي الانطباع بأن السكان كانوا كثيرين جدا في الماضي مما هم عليه الآن . كان الحجاج في وقت ما يأتون هنا مشدودين بالقباب السبع التي تحتضن قبور رجال صالحين . وآل العيدروس ، إحدى العائلات العلوية التي كونت ثرواتها في جاوا ، جاؤوا من عينات ، وهم فوق ذلك العائلة الحاكمة في هذه المدينة الدينية ، ويعزى إليهم وإلى آل الحامد الفضل في بناء المنازل القليلة المصانة ، والمسجد الأبيض الجميل ، ومدرسة الأولاد الأنيقة . قابلنا في سبع قبات السيد علي العيدروس ، الذي يشعر أنه منفي من شعبة فهو يعيش في سرابايا ، لكن سيحتل فرد آخر من العائلة مكانة هنا بعد سنوات قليلة . كان سعيدا بلقاء شخص يعرف جاوا ودعانا لتناول الشاي معه . أخبرنا أن عينات تفتخر بوجود ثلاثة عشر مسجدا ، بينما سكانها في الوقت الراهن ٥٠٠٠ نسمة . ويجلب ماء الشرب من مسافة بعيدة ، حيث أن الماء المحلي غير صالح للشرب . والسيد عبد اللّه الحامد ، الذي قضى عشر سنوات في دار السلام ، كان أيضا سعيدا بالفرصة التي سنحت له بالتحدث مرة أخرى مع الأوربيين فجاء إلى مجلس السيد علي . وله بعض المعرفة بتاريخ بلاده القديم فأخبرنا عن السد الكبير الذي كان قائما في فترة ما قبل الإسلام بين قبر هود والبحر . وكان تحطيم ذلك السد بداية تدهور حضرموت . وللسيد عبد اللّه نظريته الخاصة حول الوسائل التي تراكمت بها الحجارة الضخمة فوق بعضها البعض في المباني التي شيدت في الفترة التي سبقت الإسلام ؛ أكد أنه رأى صورا لأفيال في الأنقاض ويفترض أنه بواسطتها حملت تلك الأحجار الثقيلة إلى مواقعها . وأشك إذا كان هذا

الافتراض صحيحا ، على الرغم من أن الأفيال لعبت حقا دورا في التراث التاريخي للجزيرة العربية . لقد بنيت القلاع الضخمة فوق تلال صخرية عالية ، ومنحدراتها تكاد لا تكون عملية للتسلق حتى بالنسبة للإنسان .

لنعبر عن عرفاننا للسيد أبو بكر ، وقدمنا له بعض الهدايا ولأبنائه وزوجاته وخدمه وذهبنا في جولة أخيرة بسيارته عبر بساتين النخيل حتى بوابة المدينة ، ثم عبرنا السهل الصخري الأجرد ، إلى الجروف الصخرية الجرداء أيضا . ثم سرنا مرة أخرى مع أولئك الرجال الذين يبدو أنهم تغلبوا على تحيزهم ضدنا ، نحن الكفرة ، فنحونا صداقتهم بل وحتى ثقتهم . ما زال الطقس حارا جدا بعد المغيب في سهل تريم الصخري ؛ فالحرارة التي امتصها أثناء اليوم أخذ يشعها مرة أخرى . من الملاحظ أن الطقس داخل أسوار المدينة . بعض هذه البرودة سببها التبخر من الحرارة . والتقينا مرة أخرى وللمرة الأخيرة مع الشباب من عائلة الكاف عند حوض السباحة في حدائق السيد عمر بن شيخ الكاف . هناك أدوا الصلاة وبدأت بعدها مسابقات تحت الماء من أول الحوض إلى آخره . ثم شربنا الشاي ، وأكلنا تمرا طازجا من الحديقة .

لعله من الملفت كيف حافظ أولئك الشباب على الروح الحيوية البسيطة وهم يستمتعون بعطلة طويلة في أجواء الترف . كانت زيارتنا و الحديث معنا لها تقديرها بكل تأكيد لكن يبدو أنهم قانعين بحياتهم الهادئة .

الفصل الرابع عشر
محاولة للوصول إلى عدن برا

١) العودة عبر حضرموت الداخل إلى مدخل وادي عمد :

كانت تنتظرنا سيارتان في صباح اليوم التالي لتأخذنا إلى سيئون . ومن هناك يتولى السلطان توصيلنا إلى السلطان في القطن ، وهكذا حتى نصل إلى قعوضة . سرنا الآن عبر السهل ، ملتفين حول الصخرتين الناتئين . وأحيانا تتغرس السيارة بسرعة في الرمل ، لكن وصلنا سيئون على الأقل عند الساعة العاشرة . استقبلنا السلطان وهو محاط بأتباعه ، كما يستقبل أصدقاءه قدامى وكان من المستحيل مواصلة السير في الحال : علينا أن نبقي لتناول الطعام . وسوف يعد السلطان في هذه الأثناء خطابات تعريف إلى الزعماء المؤثرين في المنطقة التي يجب أن نمر عبرها . وأعطوا فون فيسمان خريطة تخطيطية لحضرموت والحدود المحيطة رسمت في جاوا ، بينما قدم لنا سويا هدية تذكارية عبارة عن سيف مقوس بغمده المطهم بالفضة . ثم سألونا باهتمام كبير ، حول انطباعاتنا عن تريم والمناقشات التي دارت هناك بخصوص احتياجات حضرموت . كان لدي انطباع أن البلاد بدأت تستيقظ ، بتأثير مجموعة الرجال في تريم ، وبدأت تدرك اهتماماتها المشتركة وتصبو للوحدة ، ولسلطة مركزية قوية . وأخبرونا في كل من تريم وسيئون أن ضفة الوادي الجنوبية بين سيئون وشبام أصبحت مغلقة بسبب الصراعات العدوانية . وأكد السلطان ، أنه لا توجد أي خطوة الآن . يمكننا أن نسلك ذلك الطريق ، وهو أيضا رائع جدا . وتبعنا بالطبع نصيحته . مضى الطريق تقريبا بلا عوائق عبر بساتين النخيل الرائعة والقرى بحصونها الغريبة الرمادية المبنية من الطين ،

تحيطها منازل ناصعة البياض بفن معماري رفيع . إنها أغنى وأروع منطقة في حضرموت الداخل . ومركزها الرئيسي الغرفة ، مدينة مشهورة ومهمة في العصور القديمة ، لكنها انحطت الآن إلى الدرجة الثانية بسبب الحروب المستمرة . ودخلنا منطقة في حضرموت الداخل . ومركزها الرئيسي الغرفة ، مدينة مشهورة ومهمة في العصور القديمة ، لكنها انحطت الآن إلى الدرجة الثانية بسبب الحروب المستمرة . ودخلنا منطقة القتال بعيدا من سيئون لكن لا خطر يتهددنا ، إذ أن السلطان محايد في الصراع بين مجموعات العوائل الذين يعتبرون أنفسهم مستقلين والذين يتقاتلون فيما بينهم للسيطرة على هذه الأرض الحدودية بين القعيطي والكثيري . ويخيم صمت ميت على القرى الجميلة الواقعة بالقرب من بعضها البعض وسط بساتين النخيل . يبدو أننا الوحيدون على الطريق في أرض خلابة ، التي إما تلاشى سكانها أو هم نيام . ولا يتوقع سائقو سياراتنا أن يطلق علينا الرصاص ، لكنهم ساروا على كل حال بعيدا من القرى التي يختبئ فيها بالتأكيد مراقبون يتابعون أي حركة . ولم يمض وقت طويل حتى اعترضنا خنادق محفورة في عرض الطريق ، أرغمتنا على اتخاذ التفافات طويلة . وأشار جنود السلطان الذين يرافقونا إلى قرى لثلاث مجموعات في حرب مع بعضها البعض . وسرعان ما اختلطت حتى لم نستطع أن نميز بينها . والخنادق عميقة ومتعددة ، ويمكن عبرها فقط أن يدخل الناس أو يخرجوا من قراهم ومنازلهم ليصلوا إلى بساتينهم . وبما أن المجموعات الثلاث تعتمد كلها على البساتين الرائعة فقد اتفقوا في ما بينهم على أن يحافظوا على استمرار العمل الضروري .

اقتربنا من مدينة الغرفة ؛ وهي محاطة تماما بسور وبوابات مغلقة ، ومطوقة بخنادق عريضة عميقة . وتمتد بساتين النخيل حتى سور المدينة . والصمت مرعب . وحتى نتفادى خندقنا كان علينا أن نفارق طريقنا بالقرب من إحدى البوابات الركنية .

ويظهر أن الحراس كانوا نياما ، لأنه ما إن أصبح صوت سيارتنا يسمع مباشرة ، حتى وصلتنا أصوات الإنذار من خلف البوابة . وكنا قد ابتعدنا فقط قليلا عندما انفتحت البوابة سريعا واندفع منها مجموعة من الجنود وبنادقهم مشرعة . وصعق جماعتنا من الفزع وصاحوا بأننا نتبع للدولة . عندها أنزلت البنادق وسمعنا صوت الترحاب ، لكن سائقينا اندفعوا بأقصى ما أمكنهم من سرعة ليهربوا من هذا المكان العدواني .

دخلنا الآن المنطقة التي تخص المجموعة الثالثة ، رئاستها في العقدة ، حيث يعيش الثري الشيخ سالم بن جعفر بن طالب . وكان علينا أن نسجل له زيارة . فقد قدم لنا دعوة حارة لزيارته في رحلتنا نحو الداخل ، لكن سلطان شبام ، الذي تولى ترتيبات توصيلنا في ذلك الوقت ، أصدر أمرا بتجنب منطقة القتال . الشيخ سالم مواليا لهولندا ؛ وله ثروات طائلة متكدسة في سرابايا ، وكان أحد الحضارم المشهورين في تلك المدينة .

المنطقة حول العقدة فردوس من جمال . تنتشر وسط مزارع النخيل الصغير القصور البيضاء والرمادية ، بصفوف نوافذها الكبيرة ، وأطراف أبراجها الحادة البديعة الممتدة على حافة السطوح . وخلف هذا التلوين البهيج الأخضر والرمادي والأبيض تقف الصخرة المصفرة البنية . توجد في الحدائق أيضا الكثير من شجيرات الليمون والرمان و الباباي . والمباني التي يسكن فيها الشيخ سالم محاطة بسور عال ، به بوابة خشبية ضخمة مغطاة بألواح حديدية ، تقود إلى ساحة . لقد أدت النقاط الخارجية واجبها وأعطت الإشارة بوصولنا ، فانفتحت البوابة واسعة ووقف الشيخ سالم بنفسه ليستقبلنا وهو محاط بجنوده وأبنائه . إن عواطف الشيخ الأشيب الموالية لهولندا معروفة جدا ، ولم يخالجنا الشك في أي لحظة أن استقبالنا يأتي من الأعماق . ودارت المناقشة باللغة الملاوية ، وذلك تحية لوجود المسؤول الرسمي لحكومة هولندا في الهند الشرقية . وخلف هذا جوا من الألفة وكان أيضا ميزة لأن

الجنود والأطفال لا يمكنهم متابعة الحديث . وامتلأ سريعا المجلس الكبير لهذا البناء المهيب بجمهور من الناس المهتمين ، الذين لا يمكن إبعادهم حسب تقاليد البلاد . كان هذا مصدر استياء كبيار بالنسبة لمضيفنا ، إذ يبدو أن في ذهنه الكثير ، ورفضنا بتصميم دعوته للبقاء بضعة أيام فقد كان علينا أن نصل إلى شبام قبل حلول الظلام . وبما أن الوقت أصبح ضيقا ، فقد دخل في الموضوع رأسا . فدار حديث صريح حول البؤس هنا تبعة سؤالي لماذا لا يفضل أن يعيش في أمان في منزله الجميل في سرابايا بدلا من أيعيش شبه أسير في قصره في العقدة . إنه يفضل حقا أن يباشر الإشراف على أعماله في جاوا ، ولكن يجب أن يكون الآن هنا باعتباره رب الأسرة والمدافع عن مصالحها . لقد استمرت الحرب طوال السنوات الست الماضية ، وسالت الدماء أكثر وأكثر ، وصيحات الثأر التي تتكرر باستمرار تبعد أي احتمالات للسلام المرغوب بشدة . ولا يبدو أن الحرب يمكن أن تنتهي بدون تدخل قوة من الخارج . وأكد بجدية كبيرة ضرورة تدخل حكومتنا لتتوسط بين الأطراف المتصارعة . لقد فشلت إنجلترا : فبعد انفجار الصراع مباشرة اقترح الوالي في عدن أربعة أشهر على أمل الوصول لحل . وانتظروا بلا جدوى . الوالي لا يفهم المسألة ، ومساعدة المختص ذهب قبل فترة وجيزة في عطلة ، وأصبحوا في الحال تحت رحمة مترجم هندي مرتشي وفاسد . وعاد زعماء القبائل المتحاربة إلى حضرموت دون الوصول إلى أي نتيجة . إذا قامت حكومة هولندا في الهند الشرقية بهذا الدور ، يمكنها أن تأمر بوقف العداءات بدون تدخل مباشر ، والسبب هو أن البلاد مليئة برعايا هولندا الذين لهم مصالح مالية كبيرة في جاوا . فإذا قامت حكومة الهند الشرقية بمجرد التهديد بالإبعاد وبمصادرة ممتلكات أولئك الذين لا يفرضون فورا على عوائلهم في حضرموت وقف العداءات ، عندها يمكن أن يتحقق السلام . ويبدو هذا منطقيا جدا . وقام المترجمون بإعطاء نبذة قصيرة عن اقتراح مضيفنا لأعضاء

الحامية المتكدسين ، الذين استمعوا باهتمام شديد وبتعابير تدل على الموافقة العامة . بل ذهب الشيخ سالم أبعد . فاقترح أن أبقى ليوم واحد و أتحدث مع زعماء المجموعات الثلاث فسيكون تحقيق السلام مسألة سهلة بالنسبة لي ، لأن كل واحد يشتاق له من أعماق قلبه .

كثير من أفكارهم ليست جديدة عليّ : سمعتها من قبل فب ديار آل البقري ، وفي سيئون ، وفي تريم . لكنها لم تطرح أبدا بمثل هذا الإلحاح وبهذا الشكل المحدد . وكنت مرغما أن أوضح أنه من المستحيل أن أقوم بدور الوسيط . فطالما أن الهولنديين لا يمكنهم دخول أبواب حضرموت إلا بإذن بريطانيا ، فإن الاتصال المباشر بين حكومتنا والقوى المصطرعة في تلك البلاد يبقى صعبا . مضاف إلى ذلك أنه طالما لا توجد سلطة مركزية في البلاد يصبح مثل هذا الاتصال خارج الموضوع . يمكنني فقط أن أنصح بالنضال من أجل الوحدة وتكوين سلطة مركزية . وإذا لم يستطيعوا تحقيق هذا بأنفسهم فإن التعاون مع السلطات البريطانية في عدن ، التي لجأوا إليها في أوقات سابقة ، يبدو أنه السبيل الوحيد .

كان الصراع حربا بين علاقات ، وأصبحت الحكومة القعيطية متورطة أيضا فيها الآن . واستطاع شخص هو صالح بن عبيد بن عبدات أن يضم الغرفة إلى نفوذه بالخديعة . كان هذا المكان في الماضي مدينة حرة ، بلا دولة وبلا ضرائب . وكان الإحساس بأن الاحتلال لا يطاق ليس ، فقط من الفروع الأخرى من عائلة صالح ، الذين كان يملؤهم الحسد . لكن أيضا من الحكومة القعيطية . فقد كانت هناك من قبل ترتيبات بمعاهدة مع بريطانيا ، قسمت السلطة في حضرموت الداخل بين مجموعتين : القعيطي والكثيري . ولا يمكن للقعيطي التعامل مع سلطة ثالثة . وشارك الاثنا عشر فرعا الأخرى من آل عمر ـ عائلة صالح بن عبيد ـ في الصراع ، ومنذ ذلك الوقت لم يجدوا له حلا .

استأذنا عند المغيب في الرحيل من هذه المجموعة من ثلاثة منازل ريفية التي تنتصب بألوانها البيضاء والرمادية بشكل مؤثر ، في واجهة النخيل الداكن الخضرة . وتجمّع الجنود والأطفال ليستمعوا باللحظات الأخيرة لهذا التنوع القصير في حياتهم الرتيبة وهم محاصرون . ثم سرنا عبر بساتين نخل صغير ، وبعدها فوق قطع من الرمال بلا زرع ، فقادنا الطريق إلى آخر مركز حدودي للقعيطي في حضرموت، شبام . وحسب ما هو مرتب فقد أعلنا وصولنا مباشرة لأصدقائنا " آل التوي " و " آل لجدم " في بستان منزلهم وبقينا مرة أخرى في هذا القصر من ألف ليلة وليلة ، سبحنا في الحوض الصافي واستمتعنا بالرفاهية التي قدمها لنا هنا أصدقاؤنا الكرماء .

نذهب في اليوم التالي إلى شبام لنلتقط صورا للنقوش والتماثيل الحميرية ، الموجودة في دكان تاجر آثار محلي . أصبح الحر منذ الآن بين صفوف المنازل العالية لا يطاق ، وفوق ذلك يجتمع السوق . كنا سعداء بأن ندير ظهورنا عن نيويورك حضرموت الرائعة غير الصحية ونذهب بالسيارة إلى قصر السلطان في القطن .

استقبلنا السلطان علي بن صالح بن محمد بن عمر بن عوض بن عبدالله القعيطي استقبالا حارا . ووضع تحت تصرف فون فيسمان حارسا ليدله على بعض النقوش الصخرية والأنقاض في الضفة الجنوبية للوادي . الحرارة مرتفعة جدا والصخور الشديدة الانحدار وعالية ؛ كان الدليل قليل الاهتمام بهواية المسيحيين هذه التي لا يجد لها تفسيرا ، فعاد فون فيسمان محبطا نوعا ما من نتائج سياحته القصيرة . ثم ذهبنا سويا بسيارة السلطان إلى عقران ، وهي قرية في منتصف الطريق إلى شبام ، في مدخل واد جانبي قصير في الجدار الجنوبي للوادي الرئيسي . كان هيرش وبنيت وزوجته هنا . وأعطى هيرش وصفا مفصلا يتضح منه أنه كان بها الكثير الذي يمكن مشاهدته في ذلك الوقت أكثر من ما هو الآن . وأخبرنا الناس أن السلطان

الأخير كان يمتلك حجرا به نقوش ، أخذه من المسجد الذي كان مبنيا فيه وأهداه إلى أحد الإفرنج . وما زالت بعض الجلاميد من الحطام موجودة في عقران ، وبعدها منازل طينية بسيطة مبنية على أساسات يرجع تاريخها إلى الأزمان التي سبقت الإسلام . وضعت الجدران والسلالم المتساوية التي تقود إلى الطوابق المسكونة من المنازل مع بعضها من الحجارة ، وألصقت بشكل رائع بنوع من مادة الموتر غير المعروف في الوقت الحاضر .
بعد أن تناولنا الطعام مع سلطان القطن ذ هبنا بالسيارتين إلى هينن . اختفى النبات عند الفرط ، ثم سرنا لفترة قصيرة فوق طبقة الراسب الطفالي ، لكن أصبحت كتل الرمال بعد ذلك هي السائدة . وتهب العواصف الرملية في هذه المنطقة دائما بعد ا الظهر ؛ سببها أن الرمل يصبح ساخنا جدا نتيجة لارتفاع أعمدة الهواء الساخن . لم يمض وقت طويل حتى امتصنا حجاب من الرمال المحرقة وكنا نصارع طريقنا الوحيد إلى الأمام . ويظهر من وقت لآخر جزء من حائط الصخر من بين الضباب ،كان ذلك كافيا للسائقين لتحديد اتجاههما . بعد أن عانينا قليلا وسرنا بلا هدى وصلنا بالفعل إلى هينن . وتعطلت إحدى السيارتين ، وبعد محاولات فاشلة لإصلاحها تركناها خلفنا . ولسوء الحظ كان صديقنا بن مرتع بعيدا ومعه سيارته . من هنا يبدأ وادي حضرموت وعرضه ستة أميال ، رغم ذلك خاطرنا بالعبور من هينن في الضفة الشرقية إلى قعوضة في الجانب الجنوبي بسيارة واحدة محملة فوق طاقتها . كان ذلك في النقطة التي يتحد فيها وادي رخية ووادي لكسر ووادي عمد ويكونون وادي حضرموت الكبير . ثم واصلنا السفر فوق الطبقة الطينية ثم مرة أخرى فوق كتل الرمل ، سائرين بأقصى ما يمكن حتى نتفادى الوحل في الرمال . وكانت قمة الصخر العالية خلف قعوضة معلما جيدا .
تخلصنا قبيل المغيب عند بوابات القلعة المغلقة مباشرة من ضباب الرمل ، أمام الدهشة الخرساء لحراسها . كانت الأبواب

الخشبية الصلبة في البوابة مغلقة ؛ ولا يظهر أي كائن حي وسط المنازل الطينية الأخرى ؛ ولا توجد شجرة أو شجيرة بها ظل وسط كل هذا المحيط من الرمال والراسب الطفالي والصخر . وقعوضة محاطة بالأعداء ومن المتوقع أن يسقط الرصاص بعد المغيب من مكامن الرمادة الحاذقين ، في القلاع على حائط الصخر . لكن انفتحت الأبواب بعد سماع بوق سيارتنا ، وحملقنا في وجوه الجنود البلهاء المتعجبة والصبية الذين خفوا لملاقاتنا .

الشيخ مبارك بن محمد العجوز يخشاه البدو ويسيطر على القوافل المسافرة من قعوضة عن طريق الحدود الجنوبية للربع الخالي إلى اليمن وإلى منطقة عدن . وإذا تحمل المسؤلية وأمدنا بالجمال والحراس المسلحين فسوف نخاطر بمسيرة اظطرارية إلى نصاب . ومن سوء الحظ كان الشيخ البدوي الجبار مريضا . واستقبلنا جنوده بطريقة أخوية جدا وأخذونا إلى المجلس الواسع ، الذي سرعان ما امتلأ حتى الخناق بأشخاص مهتمين بوصولنا ؛ وتقدموا كلهم لتحيتنا بقبضة قوية من اليد ثم بدأوا يشبعون فضولهم بإلقاء الأسئلة علينا . يظهر أن الاتصال مع جاوا وثيق هنا : يتحدث كثير منهم الملاوية وكذلك كل الصبية الذين كانوا يتقدمون إلى الأمام بشغف . وقد ساهمت الأموال من جاوا على استمرار الحرب حتى الآن ، بالرغم من أن آخر شجرة نخل في البساتين الجافة قد ذوت منذ وقت طويل .

سرعان ما أدى الحديث بالملاوية إلى كسر حاجز التحفظ الأولي لدى مضيفينا ، ولم يمض وقت طويل حتى كنا نتحدث بمرح مع أولئك الشباب الصريحين الأذكياء عن جاوا ، أرض الوعد . الآن أصبح الجنود على ا ستعداد للحديث مع الشيخ الكبير ، ليطلعوه على رسائلنا ويقدموا له طلبنا . جاءوا فيما بعد وأخذوني لرجل مريض : مبارك بن محمد . كان الزعيم الأشيب يرقد في غرفة صغيرة . وقال إن المنطقة التي نرغب أن نعبرها أصبحت غير آمنة بمجموعات كبيرة من البدو ، وأن حرسا من

عشر راكبي جمال لن تحمينا منهم . الاحتمال الوحيد بالنسبة لنا أن نوحد قوتنا مع قافلة . وهذه تتحرك فقط كل أسبوعين أو ثلاثة ، فإذا كان لنا الصبر لننتظر فسوف نسافر عندها مع ٢٠٠ إلى ٣٠٠ جملا ومجموعة قوية من الحراس . لكن ليس لدينا وقت ولا يمكننا أن ننتظر ويجب أن نحاول الطريق الدائري عن طريق وادي عمد . كما أننا لا نحبذ فكرة البقاء في هذه القلعة المزدحمة وزعيمها المريض وشعرنا أيضا أنهم لا يرحبون بنا كثيرا هنا ، فطلبنا الإذن بالذهاب لقضاء الليل في ديار آل البقري التي كانت لنا فيها تجربة حلوة في رحلتنا إلى الداخل . وكان رفاق سفرنا ، السيدين علوي وعلي العطاس ، يعرفان أن ديار آل البقري أكثر ثراء من قعوضة وسوف يعدون لنا بالتأكيد وليمة ، وكانا يؤيدان هذا الاحتمال مدفوعين بصيحات الجوع . وبعثنا رسولا أمامنا ليعلن قدومنا ، لأننا قدرنا المسافة من السطح بين خمس عشرة إلى عشرين دقيقة .

٢) عبر الخنادق من قلعة محاصرة إلى أخرى :

تحركنا بعد المغيب مباشرة ، وسار أمامنا دليل ، وخلفه جمل عليه أمتعتنا ثم سرنا نحن بعد ذلك . رافقنا كل الحامية حتى البوابة . واحتمينا بغطاء القلعة الواقي حتى الخندق العريض العميق ، الذي سيقودنا بطريق ملتف إلى ديار آل البقري . يظهر أن نقاط استطلاع العدو قد لمحتنا ، فانهال الرصاص نحونا من أعلى الهضبة الصخرية فحثنا حراسنا على السير . بالخندق منعرجات عديدة وكذلك فروع جانبية ومواقع مقواة بجذوع النخيل . وهي من الكبر بحيث يمكن أن تعبر عليها قافلة جمال بكل أمان . وتقدمنا بصعوبة مدى ساعة ونصف عبر رمال مهلهة في خندق متعرج حتى وصلنا منطقة كثبان رملية فضل قائدنا الطريق في الظلام الحالك ؛ وانتظرنا كثيرا بينما كان يتقدمنا بالسير . من الخطير جدا أن يواجه الشخص نقطة

حراسته ليلا ويعتبرها للعدو . فعندما سمعنا صيحات التعارف تأتي من جنود البقري ، شعرنا جميعا بالراحة ؛ كانوا قلقين ، فعندما سمعوا أصوات الرصاص بعد أن وصلهم خبر قدومنا ، واعتقدوا أننا قابلنا العدو على حين غرة ، لذلك تحركوا ليقابلونا . ليس لنا الآن ما نخشاه من الكلاب المرعبة التي أطلقت لحراسة ديار آل البقري ليلا .

قادونا إلى أحد المعاقل الصحراوية القوية وهم سعداء بوصولنا ، وصعدنا إلى شرفة السطح التي أعدوها لاستقبالنا . وبقي أحد الأخوين في المطبخ ليشرف على استعدادات المأدبة ، بينما بقي الآخر مع الجنود في رفقتنا . وعلقوا البنادق وأحزمة الرصاص على أوتاد قوية على الحائط . وفي الركن علقوا قربة ضخمة مليئة بماء الشرب على أعمدة متعارضة . لعل هذه كانت هي الحالة في العصور الوسطى في قلاع أوربا . وفي الأسفل في الساحة الداخلية توجد حمامات ومسجد . وتصب ماء الحمام في خزان صغير وهو عادة إناء خزفي يوضع في الركن ، على ارتفاع ستة أقدام من الأرض . ثم تنساب الماء ضعيفة إلى الحمام عند جذب وتد خشبي من قاعدة الحوض . بهذه الطريقة يحصل الإنسان على حمام منعش بماء قليل .

أحضرت الوليمة في وقت متأخر من الليل . وبذل فيها مجهودة كبير : الطعام مليء بالبهارات الحارة ، بالطريقة الجاوية ، إلى درجة أننا عانينا لنقوم بواجبات اللياقة نحو مضيفنا بأكمل كمية كافية من الطعام . وبدأت قبل العشاء مناقشة حيوية حول الوضع السياسي في البلاد واستؤنفت بعده . أصبح الناس في ديار البقري مرهقين بالحرب ، بالرغم من مظهرهم الميال للقتال ، ؛ وهم كما هي الحالة في الأماكن الأخرى ، يتلهفون لتدخل قوة خارجية لتضع لها ولمآسيها نهاية . والحجة التي استخلصوها مني كانت تقول بشكل محدد إن الناس عادة يحصلون على الحكومة التي يستحقونها .

بدأ الهدوء يخيم على السطح بعد منتصف الليل بوقت طويل ، ، واغتنم السيد علي الفرصة وقدم إلى مجموعة من المستمعين المصغين ، شرحا علميا تاريخيا عن مغامرته في بئر غمدان وبئر برهوت .

١) وداعا لحضرموت :

تبدأ الرحلة من ديار البقري بالجمال . لم نتوقع أن نغادر في صباح التاسع من يونيو ، لأن ضيوفنا قضوا الجزء الأكبر من الليل في الحديث . لكننا أخطأنا تقدير شجاعة مضيفنا : فقد أرسل خدمه أثناء الليل لإحضار الجمال من قرية مجاورة . وعند شروق الشمس في الصباح كانت الجمال ترقد في الساحة مع الحرس . كنا نأمل ، ونحن نجلس فوق السرج وأرجلنا اليمنى عالية فوق المخلوفة الخشبية ، أن الرحلة بالجمال التي تبدأ الآن لن تنتهي قبل أن ننتقل إلى العربات في شقرة على الساحل الجنوبي أو في لحج بالقرب من عدن . هكذا كانت تملؤنا الشجاعة المبهجة ونحن نودع معاقل الصحراء المضيافة الشامخة ، وهي مضايفة بالرغم من أنها محاصرة بالأعداء كما جفت آخر شجرة نخيل في بساتينهم قبل سنوات مضت . ورافقنا إخوان البقري مع جنودهم حتى البوابة ، لكنهم كانوا يتخذون طوال الوقت ساترا خلف الجدران الواقية في معقلهم . تقع ديار البقري في وادي الكسر قريبا من النقطة التي يصيب فيها وادي عمد ، في منتصف امتداد هضبي عريض من الرمال والراسب الطفالي . وأخذت جمالنا تطأ الأرض على مهل ، ثم استدارت في صمت نحو وادي عمد . ولم يتجرأ الأطفال في قرى الأعداء القريبة على الخروج ليشاهدونا ويعرضون أنفسهم للرصاص من ديار البقري . لقد التزموا السكون وأخذوا يرقبوننا من خلف جدار طيني .

ركبنا صامتين في الضوء العنيف والحرارة الحافة ونحن نتأرجح فوق ظهور جمالنا العالية ، في السهل البلقع المتموج . ومن الأفضل أن يركب المرء جملا في حضرموت بدلا من أن يغفوا في سيارة مزعجة كريهة الرائحة .

وصلنا حريضة في منتصف النهار ، ولسوء الحظ كان علينا أن نغير الجمال . وهذا يستغرق عادة أكثر من يوم ، لكن أصدقاء العطاس يعرفون كيف يقضون لنا أمرونا بسرعة فائقة ، ففي نفس اليوم التاسع من يونيو ما بعد ظهر كنا في طريقنا مرة أخرى في وادي عمد .

تخلف هنا السيد علوي العطاس الذي كان رفيق رحلتنا من المكلا . يتعرف الإنسان عن قرب في الرحلات الطويلة المرهقة بنقاط الضعف في شخصية الآخرين ، لذلك يعلو أكثر تقدير الصفات الحميدة . كان السيد علوي رفيقنا صبورا مرحا بالنسبة لنا نحن الاثنين الأوربيين القلقين . بأسئلتنا التي لا تنتهي ورغبتنا في البحث والتقصي . ونتيجة لتعريفه بنا انفتحت لنا منازل وقلوب حريضة فكانت حريضة بالنسبة لنا المفتاح إلى حضرموت .

إن ذكرياتنا المصحوبة بالعرفان عن تلك البلاد يمكن تلخيصها في اسمين : العطاس والكاف .

٢) فقيرة وجافة - - ولكنها غنية بالآثار :

تنزهنا عبر حريضة ، تصحبنا حاشية لا بأس بها ، لكن لم نودع الناس ونمتطي جمالنا إلا بعد أن أصبحنا خارج المدينة " فريده " هو الرحالة الأوربي الوحيد الذي ادعى أنه سافر عبر وادي عمد ، لكنه ادعاء يجب علينا فحصه . والشخص الذي يجهد نفسه ليقارن وصف " فريده " الجغرافي لوادي عمد مع خريطة فون فيسمان التي في ملحق هذا الكتاب ربما خامرته نفس مشاعر الشك حول ذلك الجزء من وصف " فريده " لرحلاته .

عبرنا بعد مغادرة حريضة مباشرة على أكبر منطقة أثرية نشاهدها في حضرموت . تمتد الجلاميد إلى مسافة تقرب من ميلين ونصف . وتتوفر كمية كبيرة من الصخور الصغيرة من مجرى السيل معدة في الحال لأغراض البناء ، هذا بلا شك هو سبب انعدام أي نقوش وفي وجود مثل هذه البقايا القليلة من الجدران التي ما زالت واقفة . وكنا نقابل باستمرار ونحن نمضي صاعدين الوادي مجموعات من الأنقاض تتوج أغلبها التلال التي تقع أمام جدار الجبل .

ولم نتلق تقارير مرضية عن وادي عمد . لكن رغم ذلك ترعى عائلة العطاس البلاد ، فهو واديهم وقبائل الجعيدي البدوية الذين يسكنونه متحالفين معهم ، ولهم سيطرة عليهم ، لكن من الصعب اكتشاف مدى تلك السيطرة . وشعرنا أن الوادي مدجج بالسلاح ويستعد للحرب . فالأرض جرداء ، ومملة في البداية ؛ مجرى الوادي عريض وممتلئ بجلاميد صغيرة ذات لون مزرق أبيض ، لا بد أن الأوضاع كانت أفضل في الأيام الخوالي ، لأن الأنقاض العديدة توحي بكثافة سكانية .

وصلنا " نخر " بعد وقت طويل من مغيب الشمس ، ويمتلك آل العطاس منزلا فيها . يتكون المكان من بعض الأكواخ ومنزل طيني نصف متداعي ، أعدت لنا فيه غرفة . والطقس حار جدا داخل الغرفة ، لكن السلالم التي تقود إلى السطح قد انهارت . وفي وسط الكوخ مخزن للعلف ، نصفه تحت الأرض ونصفه

فوقها . وارتفاع سقفه حوالي ثلاثة أقدام من الأرض وله متراس ارتفاعه حوالي قدم ونصف . والحوض مبلط بالطين بشكل أملس ، حيث تدرس فيه الحبوب بعد حصادها . إنه مكان شاق للنوم لكنه آمن .

تحركنا في اليوم التالي . العاشر من يوليو ، واتجهنا مرة أخرى نحو الجنوب الغربي . كان الوادي في البداية مملا واجردا واتسع مجرى السيل بشكل ملحوظ . وبعد مسيرة ساعتين ينعطف وادي عمد نحو الشمال سرعان ما يأتي الإنسان عبر بساتين النخيل . توجد أعداد متزايدة من الأنقاض ، لعلها مباني دفاعية وضعت فوق قمم التلال . وعانت بساتين النخيل كثيرا من الجفاف في السنوات القريبة ، فلم تأت أمطار ولا سيول بأي كمية كافية خلال عامين . الماء في التربة تحت الأرض مباشرة بعيدة من السطح وعمق الآبار بين ٣٠٠ إلى ٤٥٠ قدما حتى أنها لا تستعمل لأغراض الري لكن لتوفر ماء الشرب فقط . يرفع مجموعات من الرجال الماء وهم يمضون اللحظات في عناء رتيب .

كلما ابتعدنا جنوبا ازدادت النباتات وأصبحت تشكل حزاما متصلا بين مجرى السيل العريض والضفة الغربية للوادي . المزارع جافة كالعظم ومحروثة بشكل أنيق ، لأن المطر متوقع في هذا الشهر . ومطر غزير واحد أو إغراق بأمطار هطلت في مكان آخر يكفي ، حسب قولهم . لهذه التربة من الراسب الطفالي ، فهي تحتفظ بالماء لفترة طويلة .

لقد قضت السهول الشاسعة على نظام الري ؛ تضررت الخزانات المصنوعة من أكوام من الحجارة ومبلطة بطبقة داخلية من الطين ، من السيول كثيرا . وجاءت مجموعات من الفضوليين يهرعون من القرى نحونا ويسألون كل أنواع الأسئلة . التفت نحونا أحد شيوخ القرى بشعره الأبيض مستفسرا عن الطريقة التي تضع حدا لتحطيم سدود الصخر بواسطة السيل . وأجبنا أنه ربما كان كافيا إذا استعملوا الجير أو

الأسمنت للجلاميد : وستكون التكلفة الأولية عالية ، لكنها اقتصادية في المدى البعيد .
كل النساء في المنطقة محجبات ، حتى النساء الفقيرات العاملات في الحقول . وعندما يعملن في الشمس يرتدين قبعات من السعف لها أطراف عريضة . لم يفزعن منا مثل النساء في الأماكن الأخرى وكن على استعداد للحديث بل حتى لأخذ صور لهن . وقامت الصغيرات ، بطلب من الرجال ، بالتسلق مثل القطط إلى قمة أشجار النخيل ، لالتقاط الثمر الناضج من عناقيد التمر . كانت جلابيبهن السوداء العريضة تتدلى منهن بشكل مهمل ، الشيء الوحيد الجميل في لبسهن هو الحزام العريض المزين بزرائر فضية كبيرة وصغيرة ، ويلتف حول وسطهن . وفشلت محاولاتنا لابتياع واحد منها ، لأن النسوة كن من شدة تواضعهن لا يفكرن في بيع جزء من ملابسهن . وكان العديد من الأطفال يركضون في المكان ومعهم أقواس مصنوعة من أغصان النخيل ، وسهام حادة الأطراف من نفس المادة ، يحاولون اصطياد الطيور القليلة التي حطت على الثمار الناضجة .
وأثناء عبورنا كان بعض أقرباء حراسنا يقدمون لنا من وقت لآخر ملء أيديهم باكورة التمر الناضج تماما .

٢) استقبال كريم من شيخ حضرمي – جاوي :

وصلنا السيلة قرب الساعة الحادية عشرة ، وبها قليل من المنازل الطينية الطويلة لكن لم تعد هناك بساتين نخيل . أصبح كل شيء رمادي بني مرة أخرى تربة الوادي ، المنازل ، حائط الجبل . ويعتبر الشيخ حامد بن علي الجعيدي وأخوه زعماء أغنى وأبرز العائلات في القرية . كنا تعرفنا من قبل في حريضة ، بهذين الشابين بروحهم العالية ، ويدل مظهرهما الخارجي أنهما جاويين أكثر منهما عربا فقد ولدا في جاوا من أم جاوية وتربيا في المرتفعات الجميلة في مقاطعة برينقر . وحضرا

إلى حريضة خصيصا للترحاب بنا فالتقينا بهما هناك . إن اختلاط الدم العربي مع الجاوي أنتج في هذه الحالة رجالا لهم البنيان الجسماني العربي الجميل المترفع ، وسلوك الجاويين الرقيق المهذب المتواضع . نحن هنا مع رعايا هولنديين ، نشعر نحوهم بتعاطف خاص . وتم استدعاء الرجال المسلحين من مكان قريب إلى منزل زعمائهم بإطلاق بعض الرصاصات من البندقية ، فجاءوا إلى المجلس سراعا الواحد تلو الآخر ، وكلهم مسلح ، وأخذوا يستفسرون عن الأمر . ثم هدأ روعهم حالما أخبروهم أن الأمر ليس سوى تقديم تشريف لاثنين من الضيوف . ومن بين الجنود بعض الصبية عمرهم اثنتي عشرة سنة ، ويعتبروا جنودا ناضجين عندما يحملوا السلاح . وعندما جلسوا متكدسين في دائرة ، كادت " جنبياتهم " المعقوفة أن تنغرس في وجوههم الصبيانية . أعطانا الاستعداد للحرب انطباعا جعلنا نشعر أن القتال أمر متكرر هنا ، وهو ما يحدث بالفعل . وأخبرنا مضيفنا إنه لا يستطيع أن يخرج من منزله لمدة خمس دقائق بدون بندقية وحرس مسلح . قتل قبل وقت قصير فقط أخوه من أبيه بالرصاص وهو يقف بجانبه عندما كانوا يتفقدون بساتين نخيلهم ؛ وتمكن هو من قتل ثلاثة من المهاجمين ، لكن القاتل الفعلي هرب بعد أن أصابه جرح طفيف رجله . صحيح إنهم حققوا السلام ، لكن لا بد أن يكون الفرد في حالة انتباه دائم ضد الخيانة . وفي إجابته عن سؤالي إذا كان يحب أن يبقى هنا ، أجاب بالنفي . فهو هنا منفصل عن زوجته وأطفاله في جاوا ، إنه هنا فقط ليحمي شرف ومكانة عائلته ، وحالما يستغنوا عنه سوف يعود إلى وطنه الأم .

قادنا صاحب المنزل بنفسه إلى مكان به رسومات حميرية على صخرة ، حيث توجد أيضا بجانب الممر خمسة أحواض طويلة وإن كانت لحد ما ضيقة ، كانت بالطبع جافة في الوقت الحاضر . لكن يبدو أنها صالحة للاستعمال . ومبلطة من الداخل بنوع من المورتر .

٣) مدينة عمد ، مناقشات مرهقة وخداع قاس :

يستمر الطريق في جزئه الأكبر فوق جلاميد الصخر في مجرى السيل ،مما جعل جمالنا تئن كثيرا . فقد أرهقت الحيوانات من السير الطويل في الوادي الحار . لكننا على استعداد لنخاطر بأي شيء لنصل إلى عمد قبل أن ينتهي اليوم ، حتى نبدأ المفاوضات لرحلتنا القادمة ، وربما يحالفنا بعد ذلك الحظ ونواصل رحلتنا مرة أخرى على أمل أن لا نتأخر أكثر من يوم واحد . ولدهشتنا السارة ، لحق بنا في الطريق رجل وادي عمد العظيم الشيخ عوض بن سعود بن شملان الجعيدي ، وهو رجل أشيب قوي ، مازال من الرشاقة بحيث يستطيع أن يمتطي البعير وهو مازال واقفا . كان لقاؤه حارا وأصر أن أمتطي بعيره . وجلس خلفي سالم بن سلوم الجعيدي ، اليد اليمنى للشيخ ، وهو رجل ثرثار . وسرنا خببا .

وأصبحت بساتين النخيل بالقرب من عمد أكثر كثافة . وعندما اقتربنا من قرية حبب كان الظلام قد حل . وانفصلت لحد ما عن قافلتي نتيجة لإصرار رفاقي الراكبين معي على أن نستمر بالسير بجمال السباق بسرعة الخبب . واصلت السير وأنا في حالة عجز ، إذ يحتاج الركوب في الليل إلى براعة حتى أستطيع أن أحافظ على مكاني فوق السرج ، لأن الجمل يرى حواجز فوق الأرض ، تخطئها عيني الفاحصة ، وتكون النتيجة الخرافات مفاجئة . كان الركوب مدهشا ومرهقا للحد البعيد ، ووصل إلى نهايته عند اقترابنا من مدينة عمد الصغيرة ، وصلنا المنزل الذي سوف نسكن فيه . ووصلت بعدنا القافلة وهي تتصبب عرقا ، لم يمض وقت طويل حتى كنا نجلس فوق السطح الشاسع في منزل الضيافة ، الذي أخذت تتكدس فيه مجموعات من الفضوليين .

لم نجد في أي مكان حتى الآن هذا العدد الكبير الذي يتحدث الملاوية ، ولا كان الحديث في أي مكان صريحا ومنفتحا مثلما كان

هنـا . يبـدو أن عمـد مدينـة في حالـة انهيـار وفقـيرة جـدا وعانـت كثيرا من الحرب التي طال أمدها . هـذه الأوضـاع دفعـت الـشباب للبحث عن فرصهم خارج البلاد ، واجتـذبت جاوا العـدد الأكـبر منهم . والنتيجة أن أعداد كبيرة من الزوجات والأطفال بقـوا هنـا في حالة فقر . عدد الصبية الذين أرسلوا من جاوا لينـشأوا هنـا كبير نسبيا . يمكن تمييزهم في الحال من بين أقرانهم الـصغار الـرثين بلبـسهم الأنيـق ونظافتـهم الفائقـة . كـانوا مـن ضـمن المجموعة الـتي زارتنـا ذلـك المـساء وأخـذوا يتحـدثون بجـرأة كـبيرة باللغة الملاوية ، ليستعرضوا معلوماتهم . يعتبر أولئـك الفتيـة أن فتـرة إقامتـهم في عمـد منفـى حقيقـي ويتحرقـون شـوقا إلى جاوا .

كانت المناقشات حول رحلتنا المقبلة مخيبة للآمال . فذهبنا إلى نـصاب أصـبح خـارج الموضـوع . لكـن يمكنـهم بكـل تأكيـد أن يوصلونا إلى المدينتين في الساحل وهما بلحاف وبئر علي . تخلـى عنـا الجميـع عنـد هـذه النقطـة ، حـتى صـديقنا الـسيد علـي العطاس ، لكننا تشبثتا بـ " نصاب " وعندما صـعدنا إلى شـرفة السطح ، قرأنا عليهم خطابات التعريـف مـن الـسيد أبـو بكـر الكاف وسلطان سيئون وسلطان شبام . وأحدثت تأثيرا واضـحا . ثم أضفت أننا مصممين على الذهاب إلى نصاب ونود أن نتحرك في الـصباح . هكـذا ودعنـا تلـك المجموعـة ، الـتي سـوف تواصـل تفكيرها في الأمر حتى منتصف الليل .

الطقس أبرد في عمد منه في حضرموت الـداخل ، بالـذات في تـريم التي تعتبر أكثر المناطق حرا . أما عمد فتقـع في منطقـة عاليـة ، وهي أيضا قريبة من المرتفعات لذلك تهب عليها الرياح البـاردة عندما يأتي المساء .

أيقضتنا الشمس مبكرا ، وبدأت المناقشات بعد ذلك فورا . وبـدا كأن الرحلة إلى نصاب أصبحت إيجابيـة لكنـهم حـاولوا تأجيـل الأمر . كانت حدود منطقة نفوذ الجعيـدي قريبـة مـن عمـد وتبـدأ بعـدها مباشـرة منطقـة الحـرب . هنـاك ثـلاث مجموعـات تحـارب

بعضها البعض وشيدوا حصون مراقبة محصنة على امتداد الحدود . وأخبرونا أن أي سيد من العلويين غير مسلح يمكنه أن يقودنا عبر المنطقة الخطرة ، كنا سعداء لتصديق هذا وما علينا إلا أن نثق فقط في مثل هذه الشخصية ذات المكانة الرفيعة ، كنا على استعداد أيضا لنكافئه بسخاء على خدماته واستدعوا سيدا كان قادرا وراغبا على القيام بالمهمة . هذا الرجل المعدم ومن سلالة الرسول متغطرس ومعتد بنفسه وكان واضحا أن قبوله العمل مع اثنين من النصارى أمر شاق بالنسبة له ، فقط أغراه الذهب الذي يملكونه . ثم بعد المزيد من التفكير ، توصل إلى النتيجة أنه لا يجرؤ على المجازفة . وبدأت مناقشات جديدة مع سيد آخر ، وتراجع بدوره . في هذه الأثناء كانت الترتيبات تمضي قدما في أمر الجمال التي وعد بها الشيخ عوض لهذا اليوم . كان كل واحد يسعى لمنفذ ليتهرب ويخدعنا بالوعود . وأصبحت لغتنا أعنف أكثر فأكثر وتظاهرنا فعلا بالسخط ، مع أننا في الواقع كنا نخشى أن نتعثر هنا . فكان لا بد أن ندفع بالأمور دفعا ، لأننا إذا سمحنا بالتعطيل فسوف نفقد أي أمل في الوصول إلى نصاب .

كان أبناء الشيخ عوض وتابعه سالم بن سلوم ، يبحثون عن الثراء في جاوا ، وهما يرغبان في زيارتهم . وطلبا مساعدتي في هذا ودونت أسماء الأبناء وعناوينهم . فكانا بالتأكيد سعداء لمساعدتنا ، لكنهما لا يتجاسران ، هكذا أصبحنا مركزا لمناقشة محتدمة تصاعدت فجأة إلى شتائم استمرت طوال اليوم . ثم قمنا بزيارة السيدين ؛ لكن بدون نتائج تذكر ، وتجنبنا تقبيل أيديهما كما فعلنا دائما في مناسبات مشابهة . لكنهما فهما هذا بطريقة خاطئة ، فلم يضعونا في مكان الشرف ولم تقدم لنا القهوة عندما مرت على الضيوف .

أخيرا جاءت النقطة الهامة وهي أن الجمال جاهزة تنتظرنا ، وبينما كان الحاضرون في شجار محتدم تسللنا يحيط بنا كل صبية المدينة . فأشار إلينا الشيخ عوض وسالم خلسة

لنتبعهما إلى بساتين النخيل وعندما وصلنا إلى هناك تسلقا واحدة من نخلهم وقطعا عنقودا جيدا من التمر هدية لنا . ثم طلبوا منا بإلحاح أن نهتم بمصالح أسرهم في جاوا وأعطيناهما كروتنا الشخصية ووعدناهما في ذلك المكان وداعا أخويا ، حيث لا أحد يشاهد هذه الإلفة مع النصارى . وغادرنا بمفردنا ، فلم يعد في استطاعتنا تحمل المناقشات الصاخبة التي كانت مستمرة حول القافلة . واقتربنا معا من منطقة الحدود المهجورة ؛ حيث يتعرج الممر فوق جدار الصخر صاعدا صعودا حادا نحو الجول الذي يسكنه بدو الدين . وشاهدنا من البعد جمالنا تبرك فوق الممر ،كان أصحابها المتشاجرين يتوقعون بلا شك أن نعود إليهم غاضبين ، لكننا كنا شاكرين أن تخلصنا من عمد ونستشعر هدوء المساء كله حولنا ، حتى أننا لا نحلم بالرجوع ونتمنى أن عنادنا يدفع بالقافلة للحاق بنا .

الفصل السادس عشر
عبر ريدة الدين

١) نهاية فكهة ليوم عاصف :

يقع الممر الذي سرنا فيه خلف ستار ناتئ من الجبل فلا يمكن رؤيتنا من أبراج مراقبة العدو في الجانب الآخر من الوادي الرئيسي والوادي الجانبي . لكن عندما وصلنا جانب الجدار الصخري الذي يكاد يكون عموديا اختلفت الأشياء . فما إن كدنا نظهر من خلف النتوء حتى انهال الرصاص على الجانب الآخر . فاختبأنا خلف صخرة وأنصتنا إلى صوت المزيد من الطلقات . وحتى نتأكد إن كنا نحن بالفعل الهدف لذلك الرصاص ، رفعنا قبعة فوق حافة الصخرة ؛ وسرعان ما وجه العدو نيرانه نحونا . أدى كل ذلك إلى أثر إيجابي على القافلة ، فجاءت مسرعة نحونا ، يتقدمهم الدليل وهو يصبح بنا أن نستلقي أرضا . وعندما وصلوا إلينا وهم يلهثون ، أخبرونا أن رماة حاذقين ببنادق جيدة يتمركزون في الجانب الآخر من الوادي ، وأنهم قتلوا قبل فترة وجيزة ثلاثة رجال من ذلك البعد . لحقت بنا هذه الأثناء قافلتنا الغريبة نوعا ما . فقد كان معنا أربعة من السادة حراسا لنا . أولهم شاب للجمال وآخر أكبر منه هو الدليل . ورفض أن يذهب بمفرده وأقنع السيد علي العطاس بعد إغراء طويل على مصاحبته . كان السيد علي يريد البقاء في عمد حيث بها زوجته وطفله ، ثم اصطحب معه ابنه وكان عليه أن يعطي اهتماما كبيرا بالطفل الذي ما زال في الثالثة من العمر . فأصبح الآن عقبة بالنسبة له .

كان هذا السيد الصغير يجلس متشبثا بكلتا يديه بالمخلوفة الخشبية . وبالنسبة لمقاييس الأوربيين فإن هذا الوضع أكثر من خطير في منعرجات جدار الصخر . لكن يبدو أنه شيء عادي بالنسبة للعرب فهم يركزون كل اهتمامهم على نيران البنادق ،

التي تأتي متقطعة من الجانب الآخر . لقد وضع صوت الحرب نهاية مفاجئة لكل التشاحن والشجار ، ولكل متاعب اليوم ، التي يبدو أنها نسيت عند نهايتها . واسترسل كل واحد في حكايات الحرب ، وسرحنا في خيالاتنا ، وفي مزاج هادئ سعيد صعدنا ممر الجبل الذي يقودنا بعيدا من رفاقنا في أسفل الوادي الساخن . يمضي الوادي مرة أخرى على امتداد الجانب الآمن من النتوء ، تعلوه في هذا المكان قطعة طويلة من الصخر ، اعتاد أن يعسكر تحت ظلها المسافرون . كان الوقت متأخرا جدا ولن يسمح لنا بوصول الجول قبل حلول الظلام ، لذلك قررنا أن نبقى هنا ونسير في صباح الغد بأقصى ما يمكن إلى النقبة التالية على أمل أن نجد بها ماء . فقد بقي لنا ما يكفي فقط لكوب شاي وقد جفت حلوقنا من الظمأ ، لكننا لم نستطع حمل أي أحد على العودة إلى عمد لإحضار الماء . وعندما نظرنا من المنحدرات الصخرية الحادة إلى الوادي أسفلنا غمرنا الفرح . وما زالت عند تظهر بصعوبة عند المنحنى ، الآن نحن بعيدين جدا من المناقشات المرهقة مع الناس هناك ومن اهتمامهم الفضولي نحونا . ويفصل ساتر جدار بيننا وبين منطقة العدو . نحن أحرار لوحدنا في هذه الليلة ، عاليا فوق الجبال ، نتأمل مباشرة من موقعنا في الصخرة مملكة النجوم الخالدة .

حكى السيد العيدروس دليلنا في الطريق : (ويسمونه سيار وهو الدليل من البدو الذي يؤمن سلامة السير في منطقة قبيلته) ، فقال قبل وقت قصير مضى ، استطاع الرماة المهرة قتل ثلاثة من الرجال في نفس هذا الممر المتعرج . ومن العادة عند نهاية اليوم أن يتم تبادل بعض الطلقات بين المراقبين المتحصنين ، كأنما ليظهروا أنهم يحافظون على الحراسة . ويبدو أننا قللنا مرة أخرى من الخطورة .

كان السيد محمد بن علي الصغير يشعر كأنه في المنزل تماما وهو في موقعه الضيق بين الصخور على حافة الجرف . وأكل كمية وافرة من بسكويتنا بالنسبة له شيء مدهش ثم تكور

آمننا لينام في سريره الصخري الصلب . وفي منتصف الليل وصلتنا صيحات من السهل أسفلنا : كانت والدة محمد بن علي قلقة على طفلها القاصر وأخذت تئن باستمرار : " يا ولدي يا ولدي " ولم تتوقف حتى قام بعض أفراد الأسرة بالصعود إلى الجبل ومعهم حمار ليعودوا بالشاب الصغير إلى منزله . يظهر أن والدته لا تثق كثيرا في زوجها المغامر . ووصلت إلينا حملة الإنقاذ بسلام ، لكنهم لن يتجاسروا على الرجوع ليلا لما يكتنف ذلك من خطورة . وعند الفجر حمل السيد علي العطاس ابنه الصغير على الحمار وسار به مزهوا عائدا إلى وادي عمد ، وصعدنا نحن هضبة بدو الدين ، وهدفنا الأولي أن نجد ماء لنا ولحيواناتنا .

٢) المسير مرة أخرى فوق الجول (السوط) :

تقلص حراسنا الآن إلى اثنين من السادة . أحدهما للجمال وهو يعرف الطريق بالرغم من أنه سافر فيه مرة واحدة في حياته ؛ والآخر السيد العيدروس ، رجل سريع البديهة وثرثار ، وكان مسئولا عن سلامتنا وأن يكون وسيطا في علاقتنا مع بدو الدين . وهم بدائيون جدا لذلك يمكن أن يكونوا خطرين بالنسبة للأجانب الذين يسافرون بمفردهم . قابلنا شيخهم العجوز ، عثمان في المصنعة في دوعن مع الحاكم باصرة ، واغتنم فون فيسمان الفرصة وجمع منه معلومات عن منطقته وقبيلته وتحسس إذا كان يرحب بزيارتنا لرئاسته في الريدة . ثم قدم لنا الشيخ العجوز دعوة للزيارة بل وعد بأن يسمح لنا برؤية بلاده التي ما زالت متوحشة . لذلك يعتمد الكثير على وجود زعيم الدين شخصيا في الريدة .

عندما وصلنا الجول امتطينا جمالنا وسرنا بأقصى سرعة إلى أول مكان للتوقف يوجد به ماء للشرب يختلف هذا الجول قليلا في طبيعته عن الجول الذي عبرناه في طريقنا إلى وادي دوعن . هو

أيضا سهل مسطح من حجارة جيرية . تنتشر فيه بكثرة شظايا حادة من الحجارة ؛ وينشق عبره ممر ضيق مشابه لسير الجمال . والفضاء لا محدود في كل الاتجاهات ؛ ولا وجود هنا للسلاسل الطويلة المميزة من المساطب الجبلية . وعبرنا هنا وهناك على أشجار قزمة معوجة . ويخيم صمت عميق على هذه المنطقة التي لا حراك فيها . بعد مسيرة بضع ساعات ، رأينا في منعطف في الأرض تحصينا من حجارة خشنة ، به أبراج قوية مربعة في كل ركن . هنا يعيش بعض الناس ، فلا بد أن يتوفر فيه ماء ، إذ أصبح الحصول عليها ملحا ، لأن ظمأنا أصبح عذبا . لكن لا أثر لأي كائن حي ، لا شيء سوى جدار يحيط بمساحة مربعة ، وقلاع تبرز منه . وجرفت الأمطار بالقرب بعض التراب إلى منخفض في الأرض ، حيث توجد بعض المزارع الجافة وقليل من شجر النبق لا أوراق فيها ولونها رمادي ولا أثر لأي خضرة ؛ كل شيء رمادي بشكل رتيب ويفتقد الحياة مثل السهل الصخري الذي يحيط بنا . وعندما اقتربنا من المستوطنة رأينا بعض النقاب الكبيرة يرفع الناس منها الماء . فقد انقطعت الأمطار لفترة طويلة ، ونتيجة لذلك نفدت المياه في بعض النقاب ، بينما الأخرى التي كان الماء مخزونا فيها لفترة طويلة أصبح طعمه مالحا ؛ وبالرغم من هذا ، أطفأنا ظمأنا به وملأنا مخزونا فيها لفترة طويلة أصبح طعمه مالحا ؛ وبالرغم من هذا ، أطفأنا ظمأنا به وملأنا قرب الماء والحافظات . ووزعنا البسكويت من مخزوننا على الفقراء ، وعلى السكان الودودين الذين يمرون بظروف بالغة الشدة بسبب الجفاف الطويل . كانت هناك أيضا قافلة من المكلا تستريح . وتحمل سمكا مجففا ، أغلبه سمك القرش ، والأرز إلى وادي عمد لكن يبدو أن تكاليف الترحيل تفوق قيمة هذه البضائع في المكلا .

تواصل طريقنا عبر الجول حتى وصلنا " شرج الأبيضين بامنصور " وارتحنا فترة الظهيرة . ورأينا هنا نفس صورة الجفاف والفقر . يتكون المكان من بعض المنازل الصغيرة والحظائر المبنية

من الحجارة والطين وسطوحها مسطحة من الطين . ما زالت هناك بعض الأوراق الخضراء باقية وقليل من أشجار النبق التي تنمو بين الأفدنة المزروعة ، وتجمع منها حتى آخر ورقة للأغنام . وتظل الأغنام برقابها الممدودة تتابع حركات الراعيات وهن يصعدن بعصاة طويلة إلى قمة الشجرة لينفضن الأوراق .

وتعيش في القرية الصغيرة عائلة واحدة فقط ؛ عرضوا علينا منزلا خاليا لنسكن فيه لا يمكن هناء شراء البيض ، ولا الدقيق ،ولا الأرز ،ولا اللبن . الشيء الوحيد الذي يمكن الحصول عليه هو كميات كبيرة من النبق الجاف ، الذي يساعد على تخطئ الموت جوعا . يسحق النبق وتصنع منه عصيدة أو خبزا . أما إذا أكل نيئا فالقشرة الخارجية هي الصالحة للأكل ؛ أما الحبوب القوية مثل الصخر فترمى . ويضاف أحيانا إلى وجبة النبق قليل من لبن الغنم أو الإبل ، وعند موسم حصاد التمر في وادي دوعن يجد جزء منه طريقة إلى بدو الدين ، الذين يحمون بدورهم سكان الوادي من الأعداء . يحتاج الأمر على كل حال ، إلى مران ضروري طويل حتى يستطيع أن يعيش الإنسان على هذا الحد الأدنى من الطعام مثلما يفعل هؤلاء البدو في أوقات الجفاف . والرعاة والراعيات الذين التقينا بهم فيما بعد في منخفضات شبيهة من الأرض وفي الوديان حيث تنمو بعض الأعشاب والأشجار كان غذاؤهم الوحيد سلالا صغيرة مستديرة مليئة بنبق جاف .

نجحنا بفضل فصاحة (سيارتنا) السيد العيدروس ، وبفضل الاحترام الذي يلقاه السادة بين هؤلاء الناس البسطاء في تصوير بعض سكان القرية من النساء ، كانوا بنتين وأمهما وصديقه .

تسير النسوة بلا حجاب وهن أكثر حرية وانفتاحا في سلوكهن من نساء وادي عمد . يظهر أن إحساسهن بالأمان كبيرا ، فقد التقينا بهن بعيدا من منازلهن ، لوحدهن مع قطعانهن أو في طريقهن للقيام بعمل ما في قرية أخرى على بعد ساعات .

ورضخت مريم ، بتشجيع من والدتها ، وأعطتنا حزامها من سلك النحاس ملفوف بسلك فضي جميل وكذلك قلادتها

المصنوعة من حبات فضية بيضاوية ، وذلك مقابل سعر عال .
وبعد أن حصلت مريم على صفقة رابحة ، ذهبت في الحال بجزء من الربح إلى الصائغ في قرية على بعد ساعات ،واشترت حزاما وقلادة جديدين .
واصلنا مسيرتنا عبر السطوح الصخرية الرتيبة تحت شمس العصر المحرقة . ورأينا على مسافة بعض القرى الصغيرة المبعثرة التي تنتمي إلى منطقة الدين . تمتلك هذه القرى بشكل عام قطعة مزروعة من الأرض وقليلا من الأشجار ، وأرضا محروثة جيدا تنتظر المطر ، الذي سيجعل الزراعة ممكنة . احترقت الأشجار ، وماتت وتحول لونها إلى بني رمادي كأنما عصف بها شتاء شمالي .
عبرنا على شمالنا بأنقاض " الخميس " وأخبرنا السيد أن هذه كانت مسكنا لحضرمي جمع ثروة في جاوا ، وقام بغارات على أراضي وادي دعن الخصبة ودمر بساتين نخيلها .
وبدلا من أن يرشوه القعيطي بقطعة أرض ، جند جيشا ضده بل أحضر حتى المدافع إلى قريته . والرجل الذي جاء ليبني مملكة لم يكن مستعدا لهذا التطور ؛ وأخذوه أسيرا ، ودمرت قريته تماما وانتزعوا فدية ضخمة من عائلته الغنية في جاوا . وتقدمت عائلته بالتماس إلى الحكومة الهولندية نيابة عن الأسير المغامر ، وبنوا التماسهم على أساس جنسيته الهولندية . عند ذلك أصبح للحكومة الهولندية رغبة واهتمام كبير لمعرفة الحقائق الصحيحة عن الأوضاع في الوطن الأصلي لعدد كبير من رعاياها .
جئنا بعد مسافة إلى قرية " خليف با سويد " توقفنا هنا لنستجدي ماء للإنسان والحيوان ونحاول أن نشتري بعض العلف للجمال . يظهر أنه لم يبق ماء كاف في النقاب ، كان هذا بلا شك السبب في استقبالنا الجاف . ولا توجد أيضا كميات وافرة من العلف ؛ فأمكننا أن نشتري فقط ثلاثين حزمة من عيدان القصب ، كلفتنا ريالا واحدا . يبدو أن الريال هو فئة العملة

الوحيدة المتداولة ؛ إذ لا يستطيع الإنسان شراء أي شيء بنصف ريال . وطلبوا مساعدتنا لعلاج جمل مريض ، قالوا إن ثعبانا لدغه . وقام الطبيب المحلي بتلطيخ الحيوان بمرهم أسود وقطع نصف أذنيه . وأخبرونا عن رجل مريض بأن ثعبانا هسهسة ، لكنه يعاني كما هو واضح من انفتاح في أحد أجزاء جسمه ، وعبرنا لهم عن أسفنا لأننا نسافر بدون صندوقنا الطبي وليست لنا معرفة لنساعد ضد لدغ ثعابين البلاد الخطرة .

٣) ريدة الديين :

واصلنا سيرنا سريعا ، على أمل الوصول ذلك المساء إلى الريدة ، النقطة المركزية لإقامة بدو الدين . هنا يسكن الزعيم الذي التقينا به في حصن باصرة . اقتربنا بعد المغيب بوقت طويل من " نجدين " قرية الشيخ عثمان . وسرنا نتعثر في الظلام نتبع الجمال ، حتى جئنا على أرض مزروعة بها بعض أشجار النبق الجافة تنتشر هنا وهناك . ولم يظهر في القرية أي ضوء يبشر بالترحاب ؛ والمنازل التي مثل القلاع لا تشبه شيئا سوى المربعات السوداء . وما أن سمعتنا كلاب الحراسة حتى أتت تهاجمنا مباشرة وهي تنبح بشراسة ،وأدت هذه الضوضاء إلى بعث الحياة في المنزل : ارتفعت أولا بعض الأصوات المتسائلة ثم بعض الأضواء . واستعملنا الحجارة لإبقاء الكلاب بعيدة ، ثم استعنا بالتوجيهات الصادرة من خلف الأبواب ، ووجدنا طريقنا إلى منزل الشيخ عثمان ،كان منزلا بائسا منخفضا وليس حوله أي شيء جذاب . فأيقظنا السكان بصيحاتنا ، و أدخلونا وهم يتحاشون بريبة إلى غرفة كبيرة أرضيتها من تراب فجلسنا فوق سجادنا السفري . وتلاشت سريعا آمالنا لنوم عاجل بعد هذا اليوم المرهق عندما رأينا شخوصا سوداء تلوح بأعداد متزايدة خارجة من الظلام الغامض . لقد جاءوا ليصافحونا ويجلسوا ويشاركوا في حلقة الاستجواب الجريء . كان شيخ عثمان مرة

أخرى في وادي دوعن مع الحاكم باصرة ؛ ولم يخبر أبناءه باجتماعه معنا فكان علينا أن نقدم بيانا مفصلا عنه . عندها فقط رحبوا وقدموا لنا القهوة . وواجهتنا حرفيا عاصفة من الزوار ، كانوا جسورين في أسئلتهم . ولم يساعد السيد بتاتا في دعم هيبتنا ؛ وعندما بدأ الترحاب بنا أعطى اهتماما بتقبيل يده وأخبرهم بأننا مجرد بشر عاديين ، " بدو من أوربا " وهي عقبة حاولنا أن نتخطاها في المناقشات التي تلت . وحاولت هذا بتوجيه الموضوع إلى الأراضي المقدسة وتحدثت عن الأوضاع هناك وعن ابن سعود و " الإخوان " (جماعة الوهابيين) . وعندما كان الكل يصغون بانتباه ، سألت السيد بشكل عابر " لقد أديت بالطبع فريضة الحج حدثنا عنها ؟ " وعندها أرغم أن يتعرف بأنه لم يذهب إلى مكة وإذا حاول أن يحتال بعد ذلك ويقول إنه طاف العالم ، وشاهد ضمن بلاد أخرى عدن وزنجبار ، فإن إجابتي الطبيعية ستكون : " كنت أعتقد أن رحلتك الأولى كان يجب أن تكون إلى مكة وليس البحث عن الثروة " . ولم يبق أي شيء بعد هذا للسيد الورع إلا أن يقول : " إذا أراد الله سوف أذهب إلى مكة " .

يعطى بدو الدين انطباعا بأنهم قوم بدائيون متسولون فقراء ، وصلتهم محدودة مع العالم الخارجي . ويتدلى شعرهم الطويل المتموج فوق وجوههم على أكتفاهم . عند تخلصنا من السيد في صباح اليوم التالي ، أصبحوا أكثر مودة نحونا وعلى استعداد لمساعدتنا أكثر من توقعنا . تكدست الجماعة في ذلك المساء ، في غرفتنا ولم يبرحوا ، فأرغمنا في النهاية ان نستأذنهم لنستلقي وننام فأجابوا : " ليس لنا اعتراض - تفضلوا بكل سرور " فلم يبق أمامنا سوى أن نستلقي حيث نحن ونحاول أن ننام بالرغم من ضوضاء المناقشة التي تدور حولنا .

٤) مسيرة بالإكراه إلى وادي يبعث :

في صباح الثالث عشر من يونيو صحونا قبل شروق الشمس بوقت طويل . كان علينا أن نحصل على جمال نشطة وحارس جديد وتوقعنا أن يستغرق هذا بعض الاستعداد لكن الأمور سارت في الواقع بسهولة . فقد أحضروا الجمال أثناء الليل ، وعينوا بدويا يتمتم في الكلام اسمه سعيدا ليصحبنا حتى يبعث .

لم نجد أحدا له الشجاعة ليصحبنا إلى نصاب رغم الجهد الذي بذلناه . فكان علينا مرة أخرى أن نلتف حول منطقة غير آمنة ونسير جنوبا إلى وادي يبعث . هناك يمكن أن يفكر الناس إذا كانوا يرغبون في الدخول في مخاطرة والإسراع بنا عبر منطقة الفوضى بين حضرموت ومنطقة عدن الخلفية . الجمال هزيلة بسبب الجفاف فأخذت تسير ببطء فكنا نستغني هنا قدر ما نستطيع ؛ فسرنا معظم الطريق . وصلنا وادي غربة قرب الظهيرة ، حيث هبط طريقنا منحدر حجر جيري صقلته خف الجمال حتى أصبح يلمع . وتنمو في تربة الوادي الرملية قليل من الأشجار والشجيرات . تولى صالح بمساعدة سعيد أمر أحد الجمال أثناء الهبوط ؛ والجمال مدربة على الجبال ، فأخذت تهبط جدار الصخر بحذر شديد . كانت الحرارة في الوادي عنيفة حتى كدنا أن نفقد الشجاعة وكنا نفكر بقلق من وقت لآخر إذا كنا فعلا نستطيع تحملها لساعات أخرى .

لم يكن الوادي من حسن الحظ طويلا ، فبعد نصف ساعة كنا نقف عند سفح جدار الصخر الذي علينا تسلقه حتى نصل إلى المرتفع . لكن سيكون مثل هذا الإرهاق أثناء ساعات الحرارة الطاغية فوق طاقة الرجال والحيوانات لذلك قررنا أن نرتاح تحت شجرة في الوادي . وعلقنا مفارشنا السفرية عالية بين الأغصان لنجد ظلا أكثر من تحت الشجرة ، كانت الراحة حلوة رغم الحرارة ، و ارتشفنا كميات لا حصر لها من الشاي . ثم بعد

الظهر، وبشجاعة متجددة ، بدأنا نتسلق الجرف في نهاية وادي غربه . وشاهدنا في الوادي بعض الرعاة والراعيات يطعمون أغنامهم بأوراق الأشجار . كان في الجول الذي سرنا فيه إلى ما بعد المغرب ، نبات أكثر تنوعا ، مجموعة أشجار رمادية سوداء . صنت جاف وتظهر من وقت لآخر أشجار صامدة ملتوية ، لكن لا أثر لحياة الحيوان ، لا صوت ولا حركة ترى أو تسمع . وثابرنا في المسيرة ساعة بعد أخرى ، ونحن نسير الآن فوق الهضبة القوية الصخرية ، التي ترن فيها حجارة الراسب الطفالي مثل المعدن ، ونتأرجح إلى الأمام والخلف فوق ظهور جمالنا ، ونغالب النوم . عبرنا على بعض أشجار النبق الجافة ، وعندما حلّ الظلام أخنا الجمال عند مجموعة أشجار صنت بها عقد كثيرة . وأزحنا جانبا الحجارة الرخوة وفرشنا بساطنا السفري فوق أرض صخرية ما زالت ساخنة من الشمس . كانت استعدادات المبيت هذه أسهل بكثير منها في رحلتنا الأولى ؛ فعددنا الآن أربعة فقط ومعنا الحد الأدنى من العفش . والاستراحة ليلا ، بعيدا من البشر ومع دليل واحد صامت ، نعمة كبيرة . وجبة المساء بحق اقتصادية جدا ، تتكون فقط من بعض التمر وقليل من البسكويت ، وكمية ماء الشرب مجرد ما يكفي الفرد . لكن لا أصوات خشنة جافة تعكر الصمت الهادئ في ليل الصحراء ، ولم نرغم على مواصلة المفاوضات حول رحلتنا القادمة . أصبحت فكرة الإسراع في اتجاه عدن هاجسا بالنسبة لنا وتشبثنا بهذه الخطة وكنا ننزعج وتتصاعد المعارضة داخلنا كلما أشار أي واحد إلى صعوبة الذهاب رأسا إلى نصاب ، لكن علينا أولا أن نقوم بالتفاف ثم نقوم بمحاولة عند نقطة التوقف التالية . وبما أننا سرنا بعيدا إلى الجنوب من نصاب، فقد استقر رأينا أن نحاول الوصول إلى شقرة إلى الساحل في طريق الحوطة ـ غزان ـ حبان ـ يشبوم . ويوجد بين الشقرة وعدن طريق تستعمله العربات أحيانا . وسوف نتخذ القرار النهائي بعد الظهر غدا في يبعث .

في الرابع عشر من يونيو كنا على استعداد للرحيل مبكرا فقام كل واحد بتقديم المساعدة : لم يعرقل الصراخ والمشاحنات استعدادات الرحيل في هذه الحالة . يمر الجزء التالي من طريقنا فوق هضبة صخرية بها أحيانا منخفضات في شكل أحواض ؛ شاهدنا عند حافة إحدى هذه الأحواض العريضة ثلاث غزلان . يبدو أن الجول لا يوفر أبسط احتياجات الطعام لهذه الحيوانات : هذه الثلاثة هي الأمثلة الوحيدة من نوعها التي شاهدناه في هذه الهضاب . وبعد بضع ساعات من المسير وصلنا العقبة ، وهي المنحدر الصخري الحاد الذي هبطنا به إلى الوادي حيث تقع مجموعة القرى التي تسمى يبعث . كان بالتأكيد هبوطا طويلا وحارا ، لكن الممر كان معبدا لحد ما ويظهر أنه يستعمل كثيرا . يعبر الجزء الأول بين جدران عالية من الصخر ، ثم نصل بعد ذلك ، إلى منحدرات الوادي الأصلية الواسعة العرض ، وشاهدنا منظرا رائعا من البعد للتلال أمامنا ، ثم فوق الوادي والقرى العديدة ومنازله المبنية من الحجارة ، وفوق أشجار النخيل والنبق ، إلى الضفة الأخرى من الوادي والجول الذي يمتد خلفه على مد البصر . وشاهدنا عددا من الأشجار الصغيرة الغريبة بالقرب من الممر . إن الصراع من أجل البقاء في الجفاف والحرارة جعل الأغصان تنمو قوية وقصيرة وقريبة جدا من بعضها البعض مما جعل الشجرة تشبه الغاريقون المصنوع من الصخر ، مغطى بأوراق صغيرة خضراء .

٥) وادي يبعث :

هبطنا الوادي الصامت يملؤنا القلق حول إمكانية الحصول على دليل وجمال للرحلة إلى الحوطة . ترغم الحرارة الناس على البقاء داخل المنزل أثناء النهار ، وليس هناك ما يفعلونه الآن في البساتين . يظهر أن يبعث تعاني كثيرا من الجفاف الطويل

المستمر . فلم نجد أشجار النخيل سوى ماء قليل جدا لذا ليس بها ثمار ؛ وبساتين أشجار النبق الحيوية في المزارع المحروثة جيدا عارية ولا لون لها . لا بد أن تربة الراسب الطفالي البنية في الوادي خصبة جدا . يبدو مظهر الرخاء على القرى المبنية فوق التلال في سفح ضفة الوادي ذات الانحدار المعتدل . المنازل مبنية من قطع من الحجارة الخشنة الداكنة ، حتى تكاد أن تكون سوداء اللون وملتصقة بالطين ؛ يوجد عادة منزل واحد عال مربع يؤدي دور برج الدفاع . وأخذنا سعيد إلى " القرن " إلى منزل الشيخ أبو بكر الذي نحمل له رسالة تعريف من أبناء الشيخ عثمان في ريدة الدين . وكان منزله شاحبا ، إلا أنه استقبلنا برقة ،ووضع أمامنا تمرا وبعض الخبز وقطعة صغيرة من السمك المملح ، على أنه أخبرنا في نفس الوقت أنه يجب أن ننتظر يومين أو ثلاثة للحصول على الجمال ، وبالأخص على السيارة (الدليل المضمون) الذي سيصحبنا إلى الحوطة . فالمنطقة التي سنمر عبرها خطيرة جدا : نهبوا هناك قبل فترة وجيزة بعض الناس وقتلوهم . لا يمكننا أن نغادر مرة أخرى حتى تأتي قافلة وتستعد للرحيل عند ذلك نستطيع أن نلتحق بها ونواصل سيرنا ، فلا يوجد شخص يمكن أن يخاطر ويقودنا عبر تلك المنطقة دون حماية من قافلة . لكننا أيضا لن نعتمد على مثل هذه الفرصة الضعيفة . وتفكرنا لبضع ساعات وبحثنا عن نصيحة أخرى ، فلم يتقدم أحد باقتراح مقنع ، جاء صالح في هذه الأثناء وهمس لي بأنه يجب ألا نبقى هنا ، لأن الناس في هذا المكان ليسوا ميالين نحونا . إن الإقامة لأيام في هذا السكن البائس غير مرغوبة ، فقد بدأ القمل يبتلينا منذ النهار ، ويبدو أن سعيدا الوفي ، اقتنع أننا هنا في خطر ، فعرض أن يأخذنا بجماله حتى " صدراه " في وادي حجر ، إذا وجدنا دليلا واحدا يدلنا على الطريق . وعند هذه المرحلة تخيلنا عن محاولة الوصول إلى عدن برا – – المحاولة التي سرنا فيها سيرا شاقا ودخلنا في مفاوضات متعددة وصعبة . والآن فإن الإرهاق ، والأكل القليل البائس ، والقمل ،

والكراهية الواضحة التي أبداها الأهالي نحو أول مسيحيين يزورون يبعث ، كلها أسهمت في اتخاذ القرار . وحتى لو نجحت الرحلة إلى عدن . فمن الواضح أنها ستأخذ وقتا طويلا .
يمكننا أن نصل داره في حجر في يومين ، وحسب ما يقوله الناس هنا ، وسوف تستغرق ثلاثة إلى أربعة أيام من هناك إلى المكلا . ووجدنا في الحقيقة أننا نحتاج لضعف ذلك الزمن لنعبر تلك المسافة . وحالما اتخذ القرار بدأنا الاستعدادات للرحيل ؛ وأعطونا عبدا زنجيا ليكون دليلنا وحارسنا . لكن ليس هذا ما يجب أن يكون عليه الأمر : كان المفترض أن يصحبنا رجل له مكانة . أصبح عنصر الزنوج في هذا الوادي واضحا مرة أخرى ؛ لقد رأينا قليلا من العنصر الزنجي في وادي عمد ومنطقة الدين ، لكن هنا العكس رأينا الكثيرين .
ما زال الوقت مبكرا عندما تحركنا بعد الظهيرة . خرج مضيفنا من منزله بينما كنا نأخذ صورا فوتوغرافية للمتفرجين ونراقب تحميل الجمال ، لكنه ما عاد يحاول حمايتنا من الأخلاق الصفيقة والتعليقات الساخرة التي يطلقها الصبية ، الذين أخذوا يتفرجون دون أن يمدوا يدا للمساعدة . كان علينا أن نوقفهم من التمادي بإعطائهم بعض الردود المتوعدة . كان صالح وسعيد منزعجين بطبيعة الحال حول التغيير الذي اتخذته الأمور ، فعملا بجهد لإعداد الجمال . وعندما اختلينا لبعضنا قال سعيد إنه سمع حديثا ينطوي على توعد شرير وسألوه إن كان معنا ذهب كثير . وعندما أجاب بالنفي ، قالوا إن النصارى بكل تأكيد لا يمكن أن يخاطروا كل هذه المسافة البعيدة في أرض غريبة دون أن يكون معهم مال كثير وأنهم يسافرون فقط بهذه الهيأة الفقيرة حتى يتفادوا خطورة النهب . وإذا انضم إليهم صالحا فسوف يجد نصيبه من الغنيمة ولن يعرف أي إنسان عن المسألة ، إذا ما اتفقوا جميعهم وقالوا بكل بساطة إنهم وقعوا أثناء الرحلة في أيدي قتلة وقطاع طريق . كان صالح أيضا كثير الريبة في أهل المنطقة ، ويشك هو

وسعيد أن العبد الذي أعطوه لنا من أجل أن يكون شريكا في المؤامرة وأن يهاجمنا ليلا أثناء ما نحن نيام . وتأثرنا بقلقهم الشديد ، بالرغم من أننا ما زلنا غير قادرين أن نصدق أن التعليقات التي سمعوها ليست أكثر من فكرة قالوا بها من أجل التمتع البسيط بإخافتنا .
تابعنا ممرا عريضا مطروق بكثرة يمر بجانب الحقول المزروعة المظللة جزئيا بأشجار النبق ومجموعة صغيرة من النخيل . خرج السكان الفضوليون من أي قرية عبرناها وهم يهرعون نحونا بنفس الأسئلة المكررة " لماذا تأتون بالنصارى إلى هنا ؟ " وماذا جاءوا ليفعلوا ، وإلى أين تأخذونهم ؟ " وكانت المحاولات لتبادل بعض الكلمات الودية تقابل عادة بسوء نية ومقت . وشذ عن هذا شخص واحد وهو سيد فقير ؛ لقد أدى فريضة الحج ورأى بعض أنحاء العالم وصحبنا لمسافة وتبادل معنا الحديث لفترة . لم يكن منزعجا بأي حال من تعليقات الكراهية التي أطلقها سكان الوادي واعتذر عن صفاقتهم نحونا بأنها ناتجة عن جهلهم .

٥) الوهم الذي تلاشى – اتجهنا مرة أخرى صوب المكلا :

قبل أن نغادر الوادي المأهول وندخل الوادي الجانبي ، ملأنا قرب الماء من بئر عميقة في آخر قرية . ولم نتخلص من الصبية الفاسدين إلا بعد أن سرنا بأقصى سرعة ، وأصبحنا بعيدين في الجانب المهجور من الوادي . أعطانا الوصول إلى هناك إحساسا بالخلاص وأننا لن نطارد بعد الآن بالازدراء والكراهية وسوء النية التي عبر عنها الرجال . ونفس صالح وسعيد عن مشاعرهما المكبوتة بإرسال الشتائم من القلب نحو أولئك " الكلاب الغادرة " أما نحن لم نكن غاضبين كنا فقط نتعجب من هذه الكراهية الفطرية غير المتوقعة نحو الأجانب من غير المسلمين التي لا نجد

لها تفسيرا . وكلما تقدمنا كلما زادت قناعتنا بأننا مهددون بخطر حقيقي ، لذلك يجب أن نمضي إلى أقصى ما يمكن من العالم غير المأهول قبل حلول الظلام .
تنمو في هذا الجانب من الوادي أشجار الإثل ومختلف الأعشاب ، كانت الراعيات يعدن بقطعانهن نحو ديارهن . ولن يمضي وقت طويل حتى يقودنا طريقنا مرة أخرى صاعدا الجدار الصخري نحو الجول ؛ وعندما وصلنا هناك توقفنا نسترد أنفاسنا لكن كان كلانا مقتنعا بأنه من المستحيل أن نصل إلى عدن برا في الوقت الذي تبقى لنا . كما أننا نسير أيضا في طريق جزؤه الأكبر مجهول ، وسوف نصل فقط إلى منطقة مكتشفة وممسوحة عندما ندخل وادي حجر .
لا يثق صالح وسعيد البتة في دليلنا الأسود . كانا يعتقدان أن لديه تعليمات لنعسكر في الليل عند نقطة محددة سلفا حتى يهاجمنا ونحن في غفلة وينبهنا . لذلك كان علينا أولا أن نسير إلى أقصى ما تسمح به طاقتنا وطاقة جمالنا ، وثانيا ، أن نجعل دليلنا يرى أننا مستعدون للهجوم . وتوقفنا بعد مسيرة ساعتين بعد المغيب ، وفرشنا البطاطين على جانب الممر ، واستخرجنا مسدساتنا من أعماق الحقائب السفرية ، واختبرناها جيدا وحشوناها بالرصاص ، ووضعناها تحت الملابس التي نتخذها مخدة . لكن لم يحدث أي شيء نمنا نوما رائعا في هذه الليلة كما فعلنا دائما .
في الخامس عشر من يونيو سرنا سيرا عنيفا فوق أرض صعبة بها عقبات كثيرة . وبدأ أثر الإرهاق والجوع يظهر تدريجيا – – سبب لنا طعام الحلاوة من وجبة التمر والبسكويت والشاي الغثيان ، كما لم ننعم بنوم كاف . وبعد الليالي الباردة في الهضبة كانت الحرارة التي تزداد سريعا مع تقدم النهار كريهة بدرجة مضاعفة . ويدل تزايد رطوبة الهواء على أننا نقترب من الساحل ومن حجر ، حيث يتوفر الماء دائما . وعند شروق الشمس كانت ملابسنا وأشياء أخرى قد أصبحت رطبة .

توقفنا عند الساعة الثانية عشرة في الوادي القائظ الحر ظل جلمود يشع بالحرارة . كنا نحتاج إلى عزيمة كبيرة لنواصل سيرنا مرة أخرى عند الثانية والنصف . سرنا في صمت ، متحاشين الحديث مع بعضنا البعض ، فقد افتقدنا الطاقة للمودة والمرح . وعبرنا على منطقة مثيرة جدا من وجهة نظر الجيولوجيا وعلم النبات . هنا ينتهي الجول ، وتحل محله مساحة غير متساوية مهشمة من الصخور والوادي . واتجاه الطبقات الذي ظل حتى الآن متسقا وأفقيا ، أصبح تعوقه طبقات من تشكيلات صخرية سوداء كالفحم تشق طريقا عبر طبقات الحجر الجيري ، وأحيانا ترتفع فوقها مثل المخروط الأعزل . يوجد ماء أكثر لكن به نسبة عالية من بالملوحة . وسرنا عبر أحواش من الحشيش طوله بضعة أقدام . وفوق الأرض هنا وهناك مستنقعات تغطيها قشرة من الملح ؛ وتنمو في أرض المستنقعات الملحية هذه شجر نخيل طويلة رفيعة من نوع لم نشاهده أبدا من قبل . ثم جئنا فيما بعد إلى مساحات جرداء مغطاة بجلاميد . ولم نجد لدهشتنا مستوطنات بشرية هنا : راينا فقط أشخاصا في البعيد ، بجانب ضفة كثيفة النبات لنهر ضحل لكنه سريع . اتضح أن هذه هي الجهات العليا من وادي حجر . كان الماء ساخنا جدا ومالحا . عندما عبرنا النهر أخذت الشمس تميل نحو المغيب فأسرعنا لنصل إلى صدارة قبل هبوط الظلام ، ولم يمض وقت طويل حتى شاهدنا المنازل الحجرية المتناثرة لهذه القرية الكبيرة التي على الضفة الجبلية للوادي . هنا تبدأ الزراعة مرة أخرى . حقول من السمسم والذرة تتعاقب سريعا مع بساتين النخيل . والينابيع العنيفة تقذف الماء عاليا والذي يكاد يصل درجة الغليان ؛ تجري هذه المياه إلى الحقول وبساتين النخيل . وتمتد القنوات طويلا حتى يبرد الماء عندما يصل إلى النبات ، لكنه ما زال رغم ذلك دافئا جدا . ولاحظنا ترسبا أبيضا في القنوات .

كان الظلام قد حل عندما اقتربنا من أول منزل في صيدارا ، واقتربنا مرة أخرى بحذر وريبة نحو الرجال . هل سنتعرض هنا لنفس الإجحاف ضد النصارى ؟ وهل سنتعرض كما في السابق إلى أسئلة فاحصة وفضولية ونستمع إلى أصوات خشنة حتى منتصف الليل ؟ .

الفصل السابع عشر
وادي حجر - - شيء من العربية السعيدة

١) صداره مساكنها الرئيسية :

أعطتنا صداره ، انطباعا بأنها قذرة ، لكن على جانب من الرفاهية . وتنتشر منازلها الحجرية بعيدة عن بعضها ؛ أغلبها من طابقين وبناؤها مربع قوي لتدافع عن نفسها في حالة الاعتداءات . صدارة مستقلة ؛ فأقصى مركز لحكومة القعيطي يبعد مسيرة ساعتين إلى الجنوب الشرقي . دارت حروب كثيرة للسيطرة على وادي حجر الخصب هذا ، وشاهدنا في الأيام التالية العديد من آثار هذا النزاع .

وقفنا هنا أخيرا أمام منزل زعيم القرية ، متشككين في الطريقة التي سوف نستقبل بها . لكنهم أعدوا لنا فورا شرفة فوق السطح ، ثم جاء بعد ذلك صاحب المنزل ليرحب بنا ويدعونا للدخول . ونحن نذكره بالعرفان ، ومدينون له إذ جعل الناس يتركوننا في سلام بالرغم من أنهم هنا أيضا لا يتعاطفون مع الأجانب . أدى مضيفنا فريضة الحج وعاد بانطباعين حميدين عن الأوربيين : فعندما عبر في طريقه على عدن تعرف على مستشفى الإرسالية في الشيخ عثمان وتحدث باحترام كبير عن طبيب المستشفى الذي قابله هناك ثم مرة أخرى ، في الأراضي المقدسة نفسها حيث قابل هولنديا أصبح مسلما ؛ وبعد انتهاء الحج قابل الهولندي مرة أخرى في جدة وعامله كأنه أخوه . وأخبرته أن الهولندي في جدة صديق عزيز لدي ، فأصبحنا فورا على علاقة ودية .

لكن سرعان ما امتلأت شرفة السطح ما امتلأت شرفة السطح بالناس وبدأت المصافحة والأسئلة مرة أخرى كالمعتاد .
أما الصبية فكانوا منصرفين عنا في الشارع الذي تحتنا ، عندما

سمعنا ضوضاء شديدة ورأينا الناس يهرعون من كل اتجاه ويمطرون المنزل الذي يقابلنا بوابل من الحجارة . واعتقدنا أن معركة شاملة على وشك الوقوع . ثم جاء بعض الرجال يحملون فروع نخيل ملتهبة واشتعل المنزل الذي كان هدفا للحجارة بشكل مثير . واكتشفنا لراحتنا الكبرى أن سبب الاضطراب أن ثعبانا كبيرا حاول الفرار عبر مدخل المنزل . وأصابته بعض الحجارة ، ثم بدأ التواء الثعبان وانطوائه يخفت قليلا ثم سقط في الشارع كأنما قد انكسر . وتقدم أكثر الواقفين جسارة وقطع نهاية ذنبه ، وزال بذلك الخطر بسرعان ما عاد الهدوء .

بعدما أرهقنا تماما من الإجابة عن الأسئلة التي طرحت علينا ومن تحية الذين تقدموا بها ، طلبنا الإذن بالسماح لنا بالانسحاب لنرتاح . فوافق الجميع ، وأعلن مضيفنا بأننا سننام في نفس الشرفة . ولم يتحرك أي واحد ولو بوصة واحدة ليتركونا لوحدنا . فلم يكن أمامنا سوى أن نستلقي بين زوارنا ، الذين تكدسوا مثل السادرين . ثم أيقظونا بعد فترة لتناول الطعام ، وكان كل واحد يجلس في نفس المكان . وأكلنا ثم أغرقنا في النوم مرة أخرى ، لكننا أفقنا قبل شروق الشمس بأصوات زوارنا العالية ، الذين عادوا في ذلك الحين .

كرسنا ذلك اليوم لتجهيز قافلتنا للرحلة إلى المكلا . أما سعيد التمام ، فكان مساعدا أمينا لنا طوال الرحلة من ريدة الدين ، وسوف يعطي جمالة المرهقة وجبة جيدة وراحة ثم يعود بها دليلا جيدا ، وعاد إلى بلاده وهو سعيد وشكرنا له وفاءه ، الذي كنا في شك من أمره في البداية .

كشف لنا استطلاعنا للمنطقة المجاور عن وجود العديد من الينابيع الساخنة التي يروي بساتين النخيل والحقول المزروعة بالقرب من صداره . ولا تضر الحرارة العالية النبات ويظهر هذا من النمو الكثيف الذي يكاد يكون استوائيا حتى عند منابع تلك الغدران . أن الصورة التي صنعها هذا المنظر في وسط صحاري الصخر كانت جديدة بالنسبة لنا . وكان جديد

بالنسبة لنا أيضا العادة الموجودة هنا ، وهي استخلاص عصير من النخيل : يتخمر هذا العصير سريعا وينتج شرابا ليس بأي حال بريئا ويستهلك بكميات كبيرة . وحكوا لنا أقاصيص كثيرة عن عديد من الرجال الذين أصبحوا عبيدا منتظمين لخمر النخيل . ويبدوا أن سوء استعمال النخيل هذا الذي يدينه الرأي الإسلامي بشدة ، غير موجود المناطق الأخرى التي سافرنا فيها ، ربما يعود إلى الفقر أكثر من الوعي الديني . إن الناس ينغمسون في رفاهية هذه الخطيئة في الأرض المروية جيدا في وادي حجر ، حيث مزارع النخيل تتبع بعضها باستمرار لساعات بل حتى أيام .

استحممنا في إحدى الينابيع الدافئة ، وهي متعة افتقدناها منذ ديار البقري ؛ لكن الدائرة المزدحمة من المتفرجين الشباب الناقدين وعباراتهم الساخرة ، زادت لحد ما من حرارة الماء العالية ، ومنعتنا من الاستمتاع الكامل بالمناسبة .

تشير هذه الينابيع الحارة إلى حركة بركانية . تقع صداره على حافة سلسلة الجبال الساحلية ، وهي مليئة بآثار بركانية واضحة . واختفى التشابه الرتيب في تكوينات الجول وحجارة صخرية وراسب طفالي . هناك طبقات متكسرة ومثنية بشكل مثير ، وجروف عالية وقمم من صخرية قديمة ، وبينهما يمكن التعرف على براكين وانطفأت ، وهي التي تميز الفضاء بين صداره والمكلا .

أعطانا الانتظار الضروري للجمال وللحارس الفرصة لكتابة يومياتنا ، كنا أزحناها مؤخرا جانبا لوجود مهام أخرى أكثر إلحاحا ؛ لكن بالرغم من أن مضيفنا فعل ما في وسعة ليهيئ لنا بضع ساعات لعمل هادئ في غرفة في الطابق الأعلى ، إلا أنه لم ينجح في ذلك . فلا يستطيع مقاومة رغبات ضيوفه وسرعان ما امتلأت الغرفة المكتظة في الطابق الأعلى بجمع من الفضوليين ، يحدقون فينا ويعرقلون علينا بأسئلتهم وحديثهم بأصوات عالية .

٢) النثر والشعر في وادي حجر :

تمكننا ، بعد إصرار شديد ، أن نتحرك في الرابعة بعد الظهر . هناك طريقان إلى المكلا : يسير الأول رأسا عبر الجبال ، ويلتف الثاني التفافة طويلة بمتابعة الوادي الرئيسي حتى البحر ثم يسير في الساحل إلى المكلا . الطريق الجبلي هو الأقصر ولكنه الأشق ، وأخبرونا أنه صعب جدا على جمالنا ، فليست لها القوة على احتماله . وفوق ذلك سيكون الخطر كبيرا على مجموعتنا الصغيرة في الجبال ، في غياب حراسة مسلحة . وتذكرنا أن " ليتيل " كانت معه حراسة مسلحة كبيرة ، عندما هوجم في هذه البلاد – فقد قتل أحد السادة الذي كان يقوم بمهام الدليل في إحدى الإشتباكات – وقبلنا هذا التأكيد من الناس في صدراة باعتباره معقولا لذلك قررنا أن نسير بطريق الوادي ، رغم أن له سمعة سيئة بالنسبة للملاريا . وكان " ليتيل " مقتنعا لحد كبير بهذا المرض : فكان لا بد من تغيير حراسة جميعهم تقريبا بعد كل مسيرة قصيرة في وادي حجر . حاولنا أن نتجنب الخطورة بالنوم بعيدا من تجمعات الناس ، وبعيدا بقدر الإمكان فوق أرض عالية جافة .

كان القافلة بقيادة عربي رفيع اسمه ذيب . وقد قضى شبابه رهينة في قصر السلطان في المكلا . وهذا يوضح أن صدارة ما زالت قبل عشرين سنة جزاء من منطقة القعيطي ، وأن السلطان رأى من الضروري لتقوية قبضته على المنطقة أن يأتي بأبناء العائلات القيادية إلى قصره . وذيب مدين لهذه الظروف لتلقي تعليمه – – وهو تعليم جيد بالنسبة لهذه البلاد – – وذيب أكثر تهذيبا من الشبان الآخرين في صدراه . وعلى الرغم من شعره الطويل ، فإن وجهه أكثر وسامة ورقة في تعابيره مما عليه الوجوه عادة هنا . كان معنا أيضا علي ، رجل كبير في السن ولاذع نوعا ما ، وكان فخورا لأنه يستطيع القراءة وتمكن

من تهجئة أسماء الأماكن التي عبرنا عليها . وعندما سرنا قليلا طلب منا إذا أمكن أن نشتري له نظارة من السوق في البندر (الميناء أي المكلا) حتى يتمكن من قراءة القرآن بشكل أفضل . والرجل الثالث الذي صاحبنا ، عبدالله ، بدوي عادى جدا ؛ ويتحدث قليلا ، لكنه كان يروعنا من وقت لآخر في أثناء المسير بأغانيه البدوية الرتيبة القبيحة الحزينة : " يا دانا . . آ . . آ " الخ . وأخيرا كان معنا محمد الصغير ، صبي في الثانية عشرة لا يتعب ، ويقوم بتجربته الأولى في رحلة كهذه ، ولم ير بعد لا البحر ولا المدينة . بجانب هؤلاء ، كان معنا حائكا من المكلا انضم إلى القافلة بجمل محمل وصبيين . وكان معنا جمل ضخم كنا نسميه الفيل ، وناقة للبن ، وجمل صغير رشيق يقوم برحلته الأولى .

يلبس قادة القوافل هنا نوعا غريبا من الصنادل . أشرطة عريضة من الجلد تغطي ليس الجزء الأعلى من القدم فحسب بل تمتد إلى ما بعد الأخمص ، وتحدث صوت خشخشة عند المشي . والقصد منها إبعاد الثعابين العقارب ، خصوصا في الرحلات الليلية . يظهر أن هذه المخلوقات منشرة هنا أكثر من المنطقة الداخلية الجافة بسبب النبات الغزير والرطوبة العالية ، حيث يلبسون الصنادل هناك في الظهر لحماية الأرجل من حرارة الأرض .

رافقنا تقريبا كل الرجال في القرية عبر بساتين النخيل إلى النهر ؛ وخضنا الماء الدافئ ثم جئنا على المزيد من بساتين النخيل . ثم بعد ذلك مزارع الذرة ، التي انتهت لتحل محلها الأعشاب والحشائش وأشجار الصنت . واختصرنا الطريق عند انحناءة النهر ؛ ويستمر هداب النخيل بلا انقطاع بجانب الماء .

أعلن ذيب استعداده (للتكلفة) أي بذل قصارى جهده ، وعليه فمن المحتمل أن نصل المكلا في ظرف ستة أيام . وما أن دخلنا المنطقة التي وضع لها " ليتيل " خريطة ، حتى استطاع فون

فيسمان أن يعطي مسحه المفصل للطريق وأصبحنا أحرارا في السفر ليلا ، أي بعد المغيب وقبل الشروق .
وصلنا بعد ساعتين إلى حدود القعيطي . وجدنا هنا ، بجانب قلعة تسمى " حصن بن دغال " بها سكان من الوادي ، أول معقل يحتله جنود يافعيون من " الدولة " (أي الحكومة) ؛ ويتخذ اسم " بدع قعار " وعبرنا على هذه القلعة الوحيدة : الجنود الذين أنهكتهم الملاريا يحملقون نحونا بفضول ، وهم يتدافعون ويزيحون بعضهم جانبا ليتمكنوا من مشاهدتنا من النوافذ الصغيرة بالقرب من السطح . واقتربنا أكثر إلى النهر عند هذه النقطة ، ولم يمض وقت طويل حتى سار طريقنا عبر بساتين النخيل الخصبة ، التي توجد على أطرافها وعبرها قنوات للري مليئة بالماء . كان الظلام قد حل عندما اقتربنا من " حوت " أول قرية في خريطة " ليتيل " . وقررنا ألا نقضي الليالي في قرى أو منازل ، إذا كان تحاشيها ممكنا بأي حال من الأحوال ، حتى نتفادى إزعاج الزوار الفضوليين ؛ وأخنا الجمال حيث تبدأ منحدرات التل على مسافة من حوت .
لم نتمكن من سد النقص في مخزوننا من الأكل في صدراره ، فقد عاد الرجل الذي أرسلناه لهذا الغرض خاوي الوفاض . كان النوم فوق المنحدر الصخري غير مريح والقرب من النهر والمزارع المروية جعلت الهواء رطبا جدا ، فكان ثقيل الوطأة ليلا . والناموس الذي يعذب البشرية في البلاد الحارة الرطبة ، ظهر هنا مرة أخرى . وأفقنا في منتصف الليل بضبع كان يتشمم حولنا لكنه انطلق جاريا مثل الأرنب عندما أفاق بعض رفاقنا ووقفوا على أقدامهم .
لم نتمكن من البداية مبكرا في صباح اليوم التالي ، السابع عشر من يونيو . كان لا بد أن ترتوي الجمال تماما ؛ ثم أخبرونا أن أحدها شرد . بينما كان رجالنا في الواقع يحاولون أن يعطوا الجمال أكبر وقت لتأكل من الأراك الذي هنا . والبدو بلا استثناء

يفعلون كل ما في وسعهم ليحافظوا على جمالهم في أحسن حالة ممكنة.
يمضي الآن الطريق طول الوقت بجانب النهر ، عبر بساتين متصلة من النخيل . ويسير مرة على الضفة اليسرى ومرة أخرى على اليمنى . وعبرنا على فواصل دورية بخزانات منخفضة مبنية من جلاميد ؛ تخزن هنا الماء الذي ينساب عبر قنوات ليروي بساتين النخيل . وحواشي أشجار النخيل عادة عريضة ، وفي الأعلى في واجهة المنحدرات الصخرية ، حيث لا يوجد ظل ، يتصبب القرويون عرقا تحت حرارة الشمس .
هما دائما في وضع استراتيجي جيد ، لأن وادي حجر الخصب هذا كان منطقة نزاع طويل حتى وقت قصير مضى . ويجب أن يعزى لهذا انخفاض درجة الرفاهية وانعدام الزراعة مكثفة لكل الأرض الصالحة للزراعة . وفي هذا الصدد فإن وادي دوعن في مستوى أعلى بكثير .
أصبح الوادي بعد بضع ساعات أضيق ، واقتربت المنحدرات الصخرية من النهر ، وأصبحت مساحات الأرض المزروعة أكثر ضيقا ، وتلاشت في النهاية تماما . ثم عبر طريقنا فوق سهل تبعثرت فيه حجارة حادة محمرة وبنية ، هنا تقع قرية " حصن مصينع " وكل منازلها على الإطلاق بلا حائط أمامي أو خلفي ، إنها مثل الأنفاق القصيرة من الصخر حيث جانبها الأبعد نحو حائط الصخر وواجهتها تقابل النهر . عندما سألنا عن أسباب هذه الطريقة من البناء قالوا إنه الفقر والحرارة الشديدة ؛ بهذه الطريقة يستفيدون من النسمة التي تهب عبر الأنفاق . ينتمي سكانها إلى نوع من قبيلة الغجر تعيش معزولة من الناس الآخرين . ويسكنون أبعد من ذلك في قرى كبيرة من أكواخ القصب ؛ وهم نصف رعاة ويحتقرهم السكان المستقرون .
يضيق الوادي حتى يصبح مجرى صخري يجري عبره النهر تحت الأرض . ويمتلئ مجراه الضيق بالجلاميد ؛ وربما يندفع السيل هنا أيضا بعد الأمطار فوق الأرض . ويصعد الممر بشكل حاد إلى

المنحدر الصخري ، صعود الجمال هنا بحملها الثقيل عمل بطولي من جانبها ، فهي تصعد الجلاميد الملساء ثم تهبط مرة أخرى إلى الوادي حيث يصبح عريضا . يظهر النهر مرة أخرى فوق السطح في منتصف المجرى الصخري ، وله لون مخضر أزرق جميل .

لا يستطيع أحد بعد الهبوط أن يقاوم إغراء الأشجار الظليلة والرمال البيضاء الملتمعة بجانب النهر الذي اتسع هنا وأصبح بركة عميقة . لكنها حالة مظهر خداع . فسرعان ما جعلت الحرارة المرحقة معسكر ما بعد الظهيرة هذا لا يحتمل ، لأنه في الجزيرة العربية فإن أشجار النخيل وحدها هي التي توفر ظلا كافيا . أما بقية الأشجار فهي خداعة بالنسبة لما يبدو عليها من ظل ، لأن أوراقها تأخذ شكلا مستقيما أثناء حرارة اليوم لتحمي نفسها من أشعة الشمس .

ينعطف النهر ٩٠ درجة عند النقطة التي تجري فيها في واجهة الصخر ، ويجوف حوضا عميقا جدا حتى لم نستطع أن نصل قاعه بالغطس فيه . والرمال والصخور على جانبه ساخنة جدا إلى درجة لا يمكن الوقوف أو الجلوس عليها بدون أن يكون الواحد مرتديا ملابسه . كان الماء أيضا ساخنا . ورياح الصحراء الجافة هي الوحيدة التي تأتي بالبرودة ، وذلك فقط عندما يظل جسم الإنسان مبتلا . الساعات التالية التي قضيناها في المعسكر كانت استشهادا . فالنمل وقراد الجمال لم تترك لنا راحة ، وأشعة الشمس الحادة ، مع الحرارة العالية ، جعلتنا نخشى من ضربة الشمس .

واصلنا سيرنا في وقت مبكر بعد الظهيرة . وأخذ الممر يتنقل من ضفة النهر إلى الأخرى وما زال الوادي ضيق هنا وقطعة الأرض الصالحة للزراعة لا تذكر . كانت تقابلنا عرضا بعد مسافات طويلة مزروعة ذرة والكوخ المخصص لحراسها . ما عدا ذلك فالوادي غير مأهول في هذا الجزء .

وصلنا " الغبرة " قبل المغيب ، حيث يفارق طريقنا الوادي ويخترق الجبال لبعض المسافة وأكد لنا البدو أننا سوف نكون هناك بلا ماء لمدة يومين لذلك من الضروري أن نعسكر مؤقتا هنا ، فما زال وجود الماء ممكنا . ما كانوا يريدونه بالطبع هو إعطاء جمالهم فرصة أخرى لتملأ بطنها من الأراك . وذهبنا لننام كأحسن ما يكون الأصدقاء ، بعد أن وعدونا أن نتحرك في الثالثة والنصف صباح الغد . لكن الجمال التي طاشت ترعى بعيدا ، لم يتم العثور عليها في الظلام إلا قبل الفجر ، كانت حوالي الخامسة عندما حملنا قافلتنا على التحرك . وخيبة أمل مثل هذه لا تصلح المناخ الذهني ، خصوصا قبل أن يتعلم المرء معرفة رفاقه . عدم الثقفة هذه لا تصلح المناخ الذهني ، خصوصا قبل أن يتعلم المرء معرفة رفاقه . عدم الثقة في الوفاء بوعدهم بأنهم سيعملون كل ما في وسعهم ، والرغبة الجامحة للسير سريعا نسبة لقلة الأكل ورداءته ولدت فينا مزاجا من التوتر والإرهاق .

أصبح منظر الجبال التي عبرنا خلالها بديعا . كانت الطبقات الجيولوجية واضحة جدا في جدران النهر الجافة التي يمر بها طريقنا . وأمامنا سلسلة شامخة من جبال القرانيت مثل جدار ضخم بقمم حادة أعاليها خشنة . الجو حار جدا وسط هذه الجدران الصخرية الجرداء إذ كان علينا أن نتسلق بمشقة فوق أرض حادة ملساء . وعلى أحد جوانب الممر ينبوع به ماء كريه رفضت حتى الحيوانات أن تشرب منه . وتسلقنا نحو الممر الجبلي العالي الذي يسميه جماعتنا " حوطة " ويقف في الطريق جدار قوي مسلح مبني من شظايا حجر غير متساو . فقد دار قتال عنيف هنا قبل عشر سنوات عندما أرسل القعيطي حملة لغزو وادي حجر . ومقابر القتلى معلمة بأكوام بسيطة من الحجارة على جانبي الممر الجبلي . بعد أن هبطنا مسافة طويلة وصلنا الوادي مرة أخرى في أكثر الأوقات حرارة في اليوم . كانت ضفافه شديدة الانحدار لذلك لم نستطع أن نصل إلى مائه

المغري وشجيرات الأراك الخضراء ، لكن البدو ذهبوا ليبحثوا عن مكان يمكن أن نهبط منه . واستقر رأينا أن نرتاح هنا فترة بعد الظهيرة ، ليس في " القليتة " ولكن أبعد في نيفه الرغبة الجامحة للإسراع بأي ثمن لنصل إلى النهاية جعلت فون فيسمان وأنا نقرر بحماقة لدفع الأوامر بالعنف ، وإذا دعت الحاجة ، نسير لوحدنا إلى نيفه بدون القافلة . الطريق متعرج عبر منطقة من تلال الرمل والحرارة عالية جدا مما جعلنا لا نرتاح هنا فترة بعد الظهيرة ليس في القليته ، ولكن أبعد في نيفة الرغبة الجامحة للإسراع بأي ثمن لنصل إلى النهاية جعلت فون فيسمان وأنا نقرر بحماقة لدفع الأوامر بالعنف وإذا دعت الحاجة ، نسير لوحدنا إلى نيفة بدون القافلة . الطريق متعرج عبر منطقة من تلال الرمل والحرارة عالية جدا مما جعلنا لا نرتاح لقرارنا . ومن حسن الحظ كانت لذيب النخوة ليتراجع وأمر القافلة أن تتبعنا . لم تمض ثقتنا هباء في خريطة " ليتيل " ، لأن نيفه كانت قريبة جدا . وبالقرب من الممر صخرة ضخمة ، تشبه في شكلها " الغاريقون " ، وستجد كل القافلة حماية تحت ظلها . لم يكن النهر بعيدا جدا وبدأت تنمو على جانبيه النباتات الخضراء التي ستتغذاء منها الجمال . بدأت تضمحل مؤونتنا من التمر والبسكويت . وكان رفاقنا البدو اقتصاديون جدا في الأكل : يتاولون وجبتين في اليوم ، واحدة عند استراحة ما بعد الظهيرة والثانية في المعسكر المؤقت ليلا ، عندما يخبزون قليلا من الخبز نصف ناضج مصنوع من دقيق من نوع ما . وطعمه ليس مقبولا ، والأسوأ أنه يظل في الصدر مثل الحجر لا ينهضم . كان فون فيسمان يشرب دائما لبن الناقة في المساء ، ولكني رفضت شربه ، فله رائحة نفاذة مثل عرق الحيوان . أصبنا بسوء التغذية والإرهاق . إن التوتر الداخلي ومما رسة ضبط النفس خلال المفاوضات الطويلة والمناقشات في عمد ومنطقة الدين ، وفي يبعث وصدارة بدأت تأخذ ثأرها على نظامي في الهضم . ولكننا كنا مرغمين على المضي قدما وسرنا في

ذلك اليوم حتى السادسة والنصف مساء وقضينا الليل فوق هضبة صغيرة من الصخر بين جبال القرانيت . جمع البدو خلال اليوم أغصانا وأعشابا جافة وجففوا في المساء نباتات للنار ، التي سوف يخبزون فوق رمادها خبزهم ونصنع عليها الشاي . إنها أفضل ساعات اليوم ؛ فهي تجمعنا سويا في مزاج من الصداقة الحقة والعرفان بإنتهاء يوم من الحر والرحلة المرهقة . وهي أيضا اللحظة التي يلطخ فيها رفاقنا البدو أجسامهم بحذق – الذراعين ، الصدر ، الرقبة – بالسمن . ويحفظون أيضا شعرهم مدهونا جيدا . وقد شد انتباهنا أن أجسامنا التي يتصبب منها العرق باستمرار ونادرا ما تغسل ، أصبحت صلبة ومفزعة من الملح الذي يبقى عليها من تبخر العرق . وتخلص البدو من هذا الشعور الكريه بدلك أنفسهم بالدهن ؛ زيادة على ذلك ، فإن هذه الممارسة تجعل أجسامهم أكثر مقاومة لحرارة الشمس والبرودة المفاجئة في المساء . قالوا إن البشرة تصبح رطبة بشكل مريح من الدهن .

في ذلك المساء جاء ذئب إلى معسكرنا المؤقت . وسمع البدو نداءه في الجبال المحيطة واستيقظوا على عجل وجمعوا الجمل مع بعضها داخل المعسكر .

أفقنا مبكرا في اليوم التالي ، التاسع عشر من يونيو ، ، لأنه أصبح من المهم جدا أن نصل المكلا بأسرع ما يمكن . وتحركت القافلة في الرابعة والربع واتخذنا خطا مستقيما على ساحل البحر ، نتعثر بمشقة فوق جلاميد الجرانيت . ووصلنا ميفع عند الثامنة والنصف ، قرية بائسة على البحر عند مدخل وادي حجر .

يعيش الجزء الأكبر من سكان ميفع في أكواخ بائسة ؛ والمنازل الطينية القليلة متهدمة وفقيرة ورثة . فتحوا لنا المنزل الذي يسكن فيه الجنود ؛ وهو أحسن ما يمكن أن نلقى ، لكنه أيضا بائس بما فيه الكفاية . بقي جندي واحد فقط ؛ فقد مات رفاقه من الحمى التي تتمتع ميفع بسمعة عنها لا تحسد عليها .

فالجنود اليافعيون من المرتفعات الصحية هم أقل الناس مقاومة لحمى المناطق الساحلية الرطبة الحارة . وعندما توفي آخر رفاق هذا الجندي ، هرب من المنزل ، فلا يجرؤ على السكن فيه بعد ذلك . ولا يمكن الحصول على الطعام من القرويين لا من أجل المحبة ولا من أجل المال ، ولكن الجندي أشركنا في تموينه من الأرز والبيض . وقال إن أهل المنطقة فقراء لدرجة اليأس وغير أصحاء . صحيح يأتي المهاجرون إلى هنا ، ولكنهم لا يتحملون البقاء لفترة طويلة ، وجزء يسير من الأرض الصالحة للزراعة مستغل . يعتبر الجنود اليافعيون أن النقل إلى ميفع بمثابة عقوبة الإعدام . فتركيبهم الجسماني لا يمكنهم من مقاومة الحمى الوبائية ، ومرتباتهم تكفيهم لإعاشة أنفسهم جيدا ، وسكان القرية فقراء جدا وبائسون ولا يمكن الحصول منهم على أي شيء .

بينما كنت مستلقيا في ركن الغرفة الصغيرة ، التي تفوح برائحة النيلة ، شعرت بمغص حاد في البطن ، وأحسست بأني لا أستطيع مواصلة الرحلة . ولحسن الحظ كان لدى الناس دواء أعلنوا بالإجماع أنه فعال ، وهو ملعقة كبيرة من الفلفل المسحوق . قاومت شكوكي وتمكنت من ابتلاع نصف الملعقة . لم يكن العلاج سريع المفعول كما توقع مستشاري الطبيبين ، لكن استطعت على الأقل أن أواصل الرحلة مع القافلة في العصر ، وغادرنا هذا المكان الموبوء بارتياح كبير.

الفصل الثامن عشر
عبر الساحل عائدين إلى نقطة البداية

عبر الساحل عائدين إلى نقطة البداية

رجعنا الآن نحو اتجاه الجبال ، مخترقين سهلا عريضا مغطى بحجارة صغيرة . وعندما حل الظلام استيقضنا على هضبة من الجرانيت وهدهدتنا أصوات الأمواج للنوم وهي ترتطم بالساحل بعدما دفعتها الرياح الموسمية التي بدأت تهب الآن تدريجيا .

في العشرين من يونيو ، استيقضنا عند الثانية والنصف وغادرنا معسكرنا في الجبال عند الثالثة . استرحنا عند الغبر ،ويتخذ الوادي يصب في البحر اسمه منها ، وأكلنا وشربنا . وكانت هناك ماء بئر على عمق بضعة ياردات من سطح مجرى الوادي ، لكن الماء مالح ، ليس هذا بمستغرب ، حيث أن البئر على بعد بضعة مئات من الياردات من البحر . وغفونا تحت بعض الأعشاب ، لكن سرعان ما دفعتنا الشمس التي ارتفعت عالية في المساء لمواصلة السير .

أخذنا استراحة ما بعد الظهر بالقرب من بئر بها ماء حالي عند مدخل وادي آخر . ووجدنا ظلا تحت صخرة معلقة ثم تحول إلى عذاب بفعل حشد من قراد الجمال ، لكن وجدنا على الساحل كهفا جوفته الأمواج . وهناك بعد أن تخلصنا من القراد حملنا - - مع الأمواج المتكسرة ترشنا – الرزاز - - أننا نبحر في بحر متلاطم متهجين إلى عدن .

وصلنا بروم عند الثامنة مساء . هذا هو الميناء الشهير الذي تلتجئ إليه البواخر التي لا تستطيع أن تعبر ممرات المكلا

والشحر ليلا أثناء فترة الرياح الموسمية الجنوبية العربية فترسو هنا يحميها راس بروم من الرياح .

نصبنا معسكرنا لليل فوق سطح صخري خارج المدينة ، ولم يجرؤ أحد من السكان على مغادرة حماية القرية ليلا ليشبع فضوله ويزعجنا بالأسئلة . وأصبنا بخيبة أمل عند ما لم نجد طعاما نشربه ، ولكن ... نأمل أن نعود مرة أخرى إلى قصر السلطان المضياف في المكلا في صباح الغد .

كان الحادي والعشرون من يونيو آخر يوم في أسفارنا واليوم الخامس عشر منذ مغادرة تريم . تحركنا عند الرابعة وعشرين دقيقة ، التففنا حول القرية نحو البحر ، فوجدنا بعض الصيادين منهمكين على شباكهم . وبروم بها بضع مئات من السكان وكانت لها أيام أفضل . يوجد الآن جنود في قصر السلطان الأبيض . ويعطيها المسجد الأبيض وكذلك بعض المنازل الحجرية البيضاء ؛ مظهر جذابا عندما تشاهدها من البعد . وتقوم بساتين النخيل ومزارع الذرة بين القرية وحائط الجبل ، لكن ليس أمامهم مساحة للتوسع في هذا السهل الساحلي الضيق الذي تطبق عليه الصخور . وتسيطر المكلا على بروم عن طريق إجراءات نقدية . تجارة السمك المصدر الوحيد للدخل الذي بقى للناس . رأينا أحجاما ضخمة من رؤوس سمك القرش المجففة ملقاة في كومة ، ومن بينها رؤوس " رأس المطرفة " .

يصعد الطريق من الساحل إلى جدار الصخر بجانب البحر . وفي القمة الصخرية بقايا قلعة وبعض المدافع الصدئة . ينحفر الممر في جزء من الطريق من الجرف . تلكأ محمد الصغير خلفنا باستمرار ، لأنه لم ير البحر من قبل ، فهو مأخوذ بالدهشة لهذه الأعجوبة الجديدة . يصعد طريقنا مرة عاليا إلى الصخور ثم يقود مرة أخرى إلى الشاطئ برماله الملتمعة البيضاء . وكما واصلنا السير تراجعت الجبال ، أخيرا صرنا نمشي فوق الساحل الرملي المسطح . الطريق مطروق بكثرة وبه العديد من

السقايات . ثم ظهرت فوه آخر نقطة توقف قبل المكلا . تقع المدينة البيضاء المحاطة بمنطقة زراعية شاسعة ، في مدخل وادي فوه . عبرنا خلال مزارع خضراء نضرة نحو أشجار ظليلة ، اخترناها مكانا لتوقفنا ، لكنها برهنت على أنها حارة جدا وأرغمنا على اللجوء إلى المنازل . فسوف نجد الضيافة فورا في تلك المنازل العالية البيضاء ، لكننا لن نتمكن هناك من الراحة ومن التحرك سريعا ، لذلك بحثنا عن ظل من أشعة الشمس في أكواخ القرية حيث يسكن الزنوج العبيد . وخصصوا لنا كوخا خاليا بل تمكنا من شراء أرز وبعض البيض وشرائح من السمك . وأعد صالح وليمة عادية من هذه المؤن واحتفلنا بها أخوة مع رفاق قافلتنا في كوخ الزنوج . ثم سرنا مرة أخرى منتشين في الفرن الملتهب من ظهيرة جنوب الجزيرة العربية .

عبرنا بالقرب من فوه على مطار بريطاني ، ثم تسويته تماما وأخلى من الحجارة ويمكن الوصول إليه من المكلا بالسيارة . وينحني الممر نحو الساحل حتى يصل المدينة ونراها من البعد مثل ضباب أبيض ، معتمة ترتعش في غيم حرارة ما بعد الظهيرة تخاف الجمال من الأمواج و لا تجرؤ على المشي فوق الرمال المبتلة المتماسكة بالقرب من البحر , وهي أيضا مرهقة حتى الموت ؛ الجمل الصغير الذي يقوم برحلته الأولى يئن باستمرار أثناء السير ، مثل الطفل الباكي ، وسكت فقط عندما تحدث إليه ذيب مشجعا .

في ظهر الأحد كنا نقترب من نهاية إرهاقنا ، والمضايقات ، والجوع والمخاطر . وعلينا أن نشعر بالسعادة والعرفان ونحن نعود إلى نقطة بدايتنا . كان يجب أن يعطينا منظر نهاية رحلتنا طاقة جديدة تجعل أعيننا تشع بالفرحة ، لكن جاهدنا بدلا من ذلك ببلاهة في صمت في أحذيتنا الممزقة وحملقنا بأعيننا المجهدة المتعبة نحو المكلا عبر البحر ، الذي يعكس وهج الشمس . والجمل الصغير يئن ويجاهد بآخر ما تبقى له من قوة . كنا في غاية التعب لنفكر . لكننا نشعر أن شيئا جميلا جدا وحسنا

ينتهي بالنسبة لنا . وعند الخامسة عبرنا بوابة المكلا الطويلة ودرنا رأسا إلى اليسار نحو قصر السلطان العتيق .

وكان أول من جاء لاستقبالنا هو طبيب الميناء ، علي عبداللّه حكيم وصافحنا بحرارة وهو يقول : الحمد للّه .

النهاية ..!!